العتبة العلوية المقدسة

سلسلة في رحاب نهج البلاغة - ١

# شرح وصية أمير المؤمنين للإمام الحسن عليهما السلام

تأليف

الخطيب الشهيد السيد حسن القبانچي

تلخيص وإعداد: مكتبة الروضة الحيدرية

شرح وصية أمير المؤمنين للإمام الحسن عليهما السلام

تأليف: الشهيد الخطيب السيد حسن علي القبانچي


■ الناشر: العتبة العلوية المقدسة

■ إعداد: مكتبة الروضة الحيدرية

■ إخراج فني: نصير شكر

■ عدد النسخ: ١٠٠٠نسخة

■ السنة: ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م



العتبة العلوية المقدسة، العراق . النجف الأشرف

هاتف: ٠٧٨٠٢٣٣٧٢٧٧ (٠٠٩٦٤)

لإبداء ملاحظاتكم يرجى مراسلتنا على البريد الالكتروني :
info@haydarya.com

بسم الله الرحمن الرحيم

## ▪ إقرأني أوّلاً..

كنت أتردّد منذ أمد بعيد بين مواصلة شرح لهذه الوصيّة كما ينبغي وإهماله بالكلية، إلى أن يتيح الله خصباً في الذهن، ونشاطاً في النفس، وقوّة في الفكر أكثر ممّا أجد، ولكن رأيت كما قال العماد الاصفهاني: «إنّه لا يكتب الإنسان كتاباً في يومه إلاّ قال في غده لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على البشر». كان هذا هو الحافز الوحيد على الخوض في عباب هذا البحر الطامي، البحر اللجي من الحكمة والمعرفة.

دخلت في الموضوع بعد إلحاح نفسي لم أجد له مدفعاً، ولا عنه حولاً، معتقداً أنَّ ما أُلاقيه من صعوبة ووعورة لا تذلل إلاّ بصبر وتوفيق، لما لهذه الوصية من الأهميّة مالم يكن لغيرها من الوصايا، إذ كل فصل منها منهج تربوي، ومنهج سلوك، ومنهج تفكير، ومنهج حياة.

قبسات كل منها يصلح أن يكون أحد مفاهيم الفكرة الإسلامية، مفاهيمها الواقعية الضاربة في مناكب الأرض، المتلبسة بصميم الحياة.

تلك هي الخاصة الواضحة التي تمتاز بها وصايا الإمام علي عليه السلام من سائر وصايا المخلوقين، وتلك هي المقادير المحدودة التي تقتبسها الأفهام المحدودة من البحر اللّجي العظيم.

وحسب الذهن الواعي أن يلم بناحية واحدة أو أكثر من هذه النواحي الكثيرة والآفاق المترامية، وحسب الأذهان البشرية أن تتساند وتتساعد فتكشف منها أنواعاً كثيرة من العلم، وجوانب كثيرة من الهداية والإرشاد.

إنّ هذه الوصية لم تلاق من الكتّاب والشرّاح العناية التي تستحقّها، فقد بعدوا عن كثير من مطالبها المهمّة الثريّة التي يجد الإنسان فيها سعادته واطمئنانه لو أحسن استعمالها، ولم يعطوها نصيبها كما أعطوا غيرها ممّا هي دونها ودونها بأشواط.

ولقد كان حرياً أن يُحتَفل بها كما احتفلت هي بطاقات الحياة كلّها، ووجَّهت القلوب لكلّ منحة منحها الله، وكلّ آية من آيات الله.

حاولت في هذه الأوراق أن أُشير إلى هذه الثروة الضخمة وفوائدها، وإذا لم أبلغ الكمال فحسبي أني بذلت أقصى ما لديّ من جهد، وإذا لم أعرض على القارئ جميع حقائقها وأسرارها، فإنّي قدمت له ما يكفي للدلالة على عظمتها، وقوّة تعاليمها، وسموّ غايتها، وأنّها تشعّ أمواجاً من النور، وتفتح آفاقاً من الحياة.

***

# الفصل الأول

## الوصية في القرآن والسّنة

**ومن وصية له عليه السلام لولده الحسن**

**كتبها إليه بحاضرين منصرفاً من صفين**

«مِنَ الوَالِدِ الفَانِ، الْـمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْـمُدْبِرِ الْـعُمُرِ، الْـمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْـمَوْتَى، والظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً، إِلَى الْـمَوْلُودِ المُؤَمِّلِ مَا لاَ يُدْرَكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الأَسْقَامِ وَرَهِينَةِ الأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْـمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الْـدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْـغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْـمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْـمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْـهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنَصَبِ الآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الأَمْوَاتِ».

صلّى الله على صاحب هذه الوصية التي لا يجد الكمال الإنساني مذهباً عنها، ولا عن شيء منها، ولا يجد النقص البشري مساغاً إليها

ولا إلى شيء منها. ففيها المعنى التام للإنسانية، كما أنّ فيها المعنى التام للحقّ، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان.

ولو تدبّرتها لرأيت منها كوناً معنوياً دقيقاً قائماً بصاحبها الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأُصول الحكمة فيه. ولأيقنت أنّها معجم علمي أَلَّفته الحكمة الإلهية بعلم مَنْ علَّمها وقوّة مَنْ قوّتها، لتتخرّج به الأُمّة التي تبدع العالم إبداعاً جديداً، وتنشؤه النشأة المحفوظة له في أطوار كماله.

وإنّي لأكاد كلّما تأمّلتها حسبتها صفحة إلهية مصنّفة أبدع تصنيف وأدقّه، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يهتدي الفكر البشري لأحسن منه ولا أصح ولا أكمل.

وهي كذلك ضابط للفضائل، توجِّه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهاً واحداً لا يختلف، فيكون طريقاً ما بين الإنسان والانسان من ناحية، والطريق ما بين الإنسان وبين الله.

وهي بعد هذا كله تحمل الإنسان أن ينظر إلى موجده كأنه رقيب حيّ في قلبه، لا يرائيه ولا يجامله ولا يُخدع من تأويل، ولا يُغرّ بفلسفة ولا تزيين، ولا يمكنه ما تسوّل النفس، ولا يزال دائماً يقول للإنسان في قلبه: إنّ الخطأ أكبر الخطأ أن تنظّم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك.

وجماع القول: إنّ في معانيها قوّة تجعل باطن الجسم متساوقاً مع ظاهره، فتتعاون الغرائز المختلفة في النفس تعاوناً سهلا طبيعيّاً مطرداً

كما تتعاون أعضاء الجسم على اختلافها في اطراد وسهولة وطبيعة.

***

## شرح الألفاظ :

عيون وصيّته عليه السلام أنّها من أب ووصفه بسبع صفات إلى ولد ووصفه بأربع عشرة صفة، وفي كلّ واحدة من هذه الصفات بصيرة لمن استبصر، وعبرة لمن اعتبر.

فقال أوّلاً: «من الوالد الفان». يعني: هذه وصية من والد سيفنى عن قليل.

«المقرّ للزمان»: وأنّه مقرّ بتغيّر الزمان ـ الدهر ـ .

«الذامّ للدنيا»: ـ الذام لأهل الدنيا الذين اشتدّوا إليها وإلى عمارتها.

«الساكن مساكن الموتى»: الذي يسكن دار قوم كانوا فيها فماتوا وتركوها لغيرهم.

«الظاعن عنها»: ويظعن ـ أي يرحل ـ عن هذه الدنيا غداً، أي عن قريب.

«الى المولود المؤمّل ما لا يدرك»: إلى ولد مُعرَّض لهذه المِحن والبليّات الذي إن رجا أن يُعمِّر الدين فلا يدركه إذ لا يجد ناصراً له، ويسلك طريق والده بأن يعيش مثله بغصّة وأسف ويُقتل أيضاً، وهو مع

ذلك بمنزلة هدف ترميه الأمراض بأوجاعها، ونفسه مرهونة عند الأيام، فكلّما يأتي يوم آخر يطالبه بتكليف آخر ومشقّة أُخرى.

«غرض الأسقام»: والغرض: الهدف الذي يُرمى.

و«رهينة الأيّام»: قيل: الرهينة بمعنى الرهن.

و«رمية المصائب»: الرمية: الصيد أي كلّ حي في دار الدنيا تصطاده المصيبات.

و«عبد الدنيا»: إنّ أبناء الدنيا كالعبيد لها أذلاّء لشدائدها ومحنها.

و«تاجر الغرور»: التجارة: التصرّف، أي من يتصرّف فيها يتصرّف في متاع الغرور، ويمكن أن يغرّه.

و«غريم المنايا»: الغريم: المديون، أي تطالب الحي في الدنيا أسباب الموت، يموت فيه كلّ يوم عضو من أعضائه إلى أن يفنى. وأشار إلى هذه الجمعية بالمنايا.

و«أسير الموت»: الموت: يُسمّى المنيّة لأنّه مقدَّر لا يمكننا دفعه كأنّا أُسراء الموت.

و«حليف الهموم»: الحليف: من يكون حلف غيره وفي عهده.

و«قرين الأحزان»: القرين: المصاحب.

و«نُصَبِ الآفات»: النَصَب: الشيء المنصوب، ونصبت فلاناً عاديته.

و «خليفة الأموات»: الخليفة: من يجيء خلف الغير يلزمه ما يلزم صاحبه.

***

## الوصية لغة وشرعاً:

الوصية: هو أن يوصل الشيء بغيره؛ لأنّ الوصيّ يوصل تصرّفه بعد الموت بما قبله. هذا لسان اللغة.

ولسان الشرع: هي تمليك العين أو المنفعة بعد الوفاة أو جعلها في جهة مباحة. وأوصيت له بشيء، وأوصيت إليه إذا جعلته وصيّك، والاسم الوصاية بالكسر والفتح، وهي استنابة الموصي غيره بعد موته في التصرّف فيما كان له التصرّف فيه من إخراج حقّ واستيفاءه، أو ولاية على طفل، أو مجنون يملك الولاية عليه.

## أقسام الوصيّة:

وهي وصيّتان: وصية الأحياء للأحياء، وهي أدب، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بصالح عمل. ووصية الأموات للأحياء المعبّر عنها بالوصية عند الموت، تكون بحقّ يجب عليهم أداءه، ودين يجب عليهم قضاءه. وقد أمرنا بالوصية عند الموت في الكتاب العزيز، والسنّة النبويّة المقدّسة.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْـمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْـوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْـمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْـمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ١٨٠].

وفي السنّة النبويّة الشريفة:

قال ﷺ: «ما ينبغي لامرئ مسلم أن يبيت إلاّ ووصيّته تحت رأسه»[1].

وقال ﷺ: «من لم يحسّن وصيته عند الموت كان نقصاً في مروّته وعقله»[2].

وقال ﷺ: «من مات ولم يوص مات ميتة جاهلية»[3].

إلى غير ذلك من الأحاديث ممّا لها دخل في الوصية عند الموت.

***

(١) روضة الواعظين : ٤٨٢؛ عنه البحار ١٠٣ : ١٩٤ ح٣؛ والوسائل ١٣ : ٣٥٢ ح٧.
(٢) روضة الواعظين : ٤٨٢؛ عنه البحار ١٠٣ : ١٩٤ ح٥.
(٣) روضة الواعظين : ٤٨٢؛ والوسائل ١٣ : ٣٥٢ ح٨.

## الفصل الثاني
## الامام علي عليه السلام والحنان الأبوي

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيما تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لاَ يَشُوبُهُ كَذِبٌ.

وَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الـمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يُعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي، مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ».

لقد سبق لنا أن قلنا: إنّ هذه الوصيّة هي من أفصح الكلام وأبلغه، وأجمعه لدقائق الحكمة العملية ولطائفها، وأكمل رسالة لتوجيه

الفكر الحديث، والتعليم الأُمي، وأنّها تمكّن للناس في القربى، لا قربى النسب بل قربى الثقافة، والعلم، والأدب، وهي أبهج وأجمع قربى، ولأنّ في هذا تثقيفاً وتأليفاً ينتفع به الشرف الإنساني، لما يحمل من كنوز القرائح، ومُثل الحياة العليا، ومن مسرّة النفس، ولذّة العقل.

***

### إدبار الدنيا وإقبال الآخرة:

قوله عليه السلام : «فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي».

يريد عليه السلام من الادبار تدرّج العمر في المضي، وأزوفه إلى الانصرام والفناء شأن كلّ متمتّع بالحياة. وإقبال الآخرة هنا مرادف لما فسّرنا به إدبار الدنيا، فإنّ الإنسان كلّما بعد من مبدء السير، قرب إلى منتهاه.

وأما (جموح الدهر) فهو لعدم ملائمته للنوايا الصالحة، ولمعاكسة الزمان إياه، وتأخر أهله عن إنجاح مقاصده الإلهية التي لا ينفك عنها مثل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ، فهو سلام الله عليه يريد تزهيد الناس عن التولّع في الدنيا وحبّها لجهتين، أولاهما: أنّها منصرمة لا محالة، والثانية: أنّها عريّة عن إنالة أبنائها مقاصدهم المطلوبة، قصيّة عن رغباتهم. وكلّ من هاتين يحقّ معها الإعراض عنها، فكلّ منصرم عقيم الانتاج، وكلّ ما لا يجدي صاحبه نفعاً حريّ بالنكوص عنه.

وإنما وصفه عليه السلام من الدارين المقبلة والمدبرة هو الذي يحقّ معه عدم الاهتمام بغير النفس، وتدرّجها في الكمال، فإنّ للإنسان بذلك

وازعاً عن غيره، فلا يضرّه من ظلّ إذا اهتدى، ولا ينهكه إذا صلح في هديه من انحرف عن الهدى، وهذا لا ينافي وجوب النهي عن المنكر، فإنّ الغاية هاهنا أن لا يسترسل هو مع رغبات الضالين، ولا يهملج في شهواتهم. وأما باب النهي عن المنكر فهو أن يردّهم عن متابعة الهوى، وأن ينقم ما سلكوه من المسالك الوعرة.

### همّ النَفس يُشغِل عن هموم الناس:

وقوله عليه السلام: «غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ».

إنّما تفرّد عليه السلام بهمّ نفسه لأنّه أعزّ الأنفس وأشرفها، وأعودها للأُمّة بمنافع ومنجيات، على أنّ فيه تعليماً للملأ الديني، بأن كيف تكون حالهم في تهذيب النفس وتربيتها، وإنمائها نموّاً صالحاً، وأن يكون لهم من أنفسهم وما يشوبها من أكدار ومعائب شاغل عن غيرهم، وعن التجسّس عن عيوب الناس والوقيعة فيهم.

هاهنا أصحر سلام الله عليه بنتيجة ما جاء به من سلوك، بأنّها مصدّقة من قبل الحقيقة الراهنة، الموصولة بالحقّ المبين، محبّذة بما هنالك من مبادئ قدسيّة التي وعاؤها قلب الإمام عليه السلام، ومصدرها عقله الفيّاض، وهو الذي صرفه عن الهوى لحضوتِهِ بالعصمة اللاّزمة لكلّ مُتَسَنِّم مثل مقامه من الامامة.

وهو سلام الله عليه لا يكلّف الناس بكلمته هذه أن يكونوا معصومين كمثله، فإنّ ذلك مستحيل على العاديين من الناس، وإنّما

يحبّذ عليه السلام أن يقتصّوا أثره حسب القدرة والاستطاعة، لذا قال في مورد آخر: «أما إنّكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد»[1].

وفي ذلك إيعاز إلى أنّ السير الحثيث وراء أيّ حقيقة ملازم للتوصّل اليها كما توصّل هو سلام الله عليه فصدفه رأيه، وصرفه عن الهوى، وصرّح له محض أمره، بعيداً عن الشوائب والأكدار، فهو عليه السلام يرغب في أن تكون شيعته مقتصّة أثره فيما بيّناه من السير والتوصّل، ويرغّبهم في ذلك بكلمته الذهبية، وبيانه الشافي.

وهو أصدق من أصحر بحقيقة حيث يعرف نفسه الكريمة، بأنّ تفكيره فيما أفضى به إلى جدّ لا يكون فيه لعب، وصدق لايشوبه كذب، فإلى اقتصاص أثره يا مؤمّلي النجاة به وبهديه وهداه يا شيعته جميعاً.

***

## الحنان الأبوي:

قوله عليه السلام: «وَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْـمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يُعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي، مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ».

هذا حنان أبوي لبيان تمحيص النصح، وإسداء أقصى ما يسع أيّ ابن أُنثى أن يسديه من محض الخير، والإمام في طليعة من يفيض البر، ويحثّ على المعروف، وهو سلام الله عليه ليست حياته حياة دمويـّة،

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥، إلى عثمان بن حنيف.

ولا كيانه كياناً مادّياً، حتّى تثيره لإرشاد ولده المحبوب عاطفة طبيعية، أو حبّ بشري، ولكن له وجود مكيّف بالفيض الأقدس، وحياة مزيجها المواهب الإلهية، فليس فيما ينيله إلاّ الخير محضاً، ولكن كلّما كملت قابليّة القابل عظم النصح المبذول.

وفي المقام لا قصور في الفاعل والقابل، فلا قصور في مدى كلٍّ منهما، غير أنّه سلام الله عليه استعمل هذا النوع من الخطاب جرياً على ما هو المطرد في العادة، من أنّ الإنسان لا يدّخر برّه عمّن هو أقرب الناس إليه من قربى وولده. وهو بخطاب ابنه العزيز يرمي إلى المجتمع الديني كلّه من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فعلى كلّ فرد أن يأخذ منه منيته من المقدرة، وقسطه من المعرفة.

أجل هكذا كان الإمام عليه السلام يتّجه إلى الناس بحكمه، وأمثاله، ونصائحه الرائعة التي لا تجد لها أشباهاً إلاّ في حكم النبي وأمثاله ونصائحه.. حكمٌ تتبلور فيها طبائع الصديق والعدوّ، والمحسن والمسيء، والأحمق والعاقل، والبخيل والكريم، والصادق والمنافق، والظالم والمظلوم، والمعوز والمتخم، وصاحب الحق، وصاحب الباطل، ومفهوم الخلق السليم والخلق السقيم، وشؤون الجاهل والعالم، والناطق والصامت، والأرعن والحليم، وصفات الطامع والقانع، وأحوال العسر واليسر، وتقلّبات الزمان وما لها من أثر في أخلاق الرجال، وما إلى ذلك من أُمور لا تحصى في فصل أو باب، وكلّها مركّزة على الواقع، يدركها العقل الصحيح، فيأخذ منها قواعد لا تتأثر بظرف، ولا تتعلّق بزمان.

كان عليه السلام يحرّك في الأفراد عواطف الخير، ويوقظ فيهم ما غشته

الأيام من الضمائر السليمة، ويعمل على إنمائها وينصح برعايتها.

كان يتوجّه إلى الضمائر بتوصياته، وخطبه، وعهوده، وأقواله جميعاً؛ لأنّه لم يفته أنّ لتهذيب الخُلُق شأناً في رعاية النظم العادلة، وفي بثّ الحرارة في المعاملات بين الناس. وقد ساعده في ذلك ما أوتي من مقدرة خارقة ينفذ بها إلى أعماق الناس أفراداً وجماعات، فيدرك ميولهم وأهواءهم، ويعرف طباعهم وأخلاقهم، فيزن خيرها وشرّها، ثمّ يصوّر ويطوّر، ويأمر وينهى، على ضوء ثقته الهائلة بالضمير الإنساني الذي يتوجّه إليه.

كانت ثقته بالضمير الإنسان ثقة العظماء الذين تألف فيهم العقل النيّر، والقلب الزاخر بالدفء الإنساني، النابض بالحبّ العميق الذي لايعرف حدوداً. كانت ثقته بهذا الضمير ثقة المسيح، ومحمّد، وسقراط، وسائر العظماء الذين مدّهم القلب بنور يخبو لديه كلّ نور، وعلى أساس هذه الثقة أرسى عليه السلام حكمه وأمثاله، وعلى أساسها تترابط الأفكار والتوجيهات التي يخاطب بها وجدانات الناس.

إنّ وصايا الإمام التي توجّه بها نحو الضمير الفردي والجماعي تعتبر بمنزلة وصايا الأنبياء بما تحمل من عمق الفهم، وحرارة العاطفة وسموّ الغاية، هذه الوصايا التي أرادها عليه السلام حصناً منيعاً للأخلاق العامة، والعطف الإنساني، وتركيز العمل النافع على أُسس من الايجابية في العقل والضمير.

❋❋❋

## الفصل الثالث
## معالجة القلب

«فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ أَيْ بُنَيَّ، وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ، أَحْيِي قَلْبَكَ بِالْـمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْـيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْـحِكْمَةِ، وَذَلِّلْـهُ بِذِكْرِ الْـمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْـفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْـمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدْهُمُ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دارَ الْـغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيل قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ،

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ الْـقَوْلَ فِيمَا لَاتَعْرِفُ، وَالْـخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلاَلَتَهُ فَإِنَّ الْـكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلاَلِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ».

## تقوى الله تعالى:

قوله عليه السلام : «فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ أَيْ بُنَيَّ وَلُزُومِ أَمْرِهِ».

هذا فصل يتكفّل سعادة الدارين للإنسان، وعمدة ما يهمّ في النظام النوعي والفردي، وأهمّ ما يقرّره علم الاجتماع.

ففي هذه الكلمة الحثّ على التقوى التي لا يعتمد جمام الإنسان وراحة البشر إلاّ عليها. فرجل التقوى هو الذي تأمن الناس بوادره، وتأمل نجعته ورفده، ولا يتحرّى إلاّ مرضاة ربّه، ويخشى غضبه. وعامل التقوى يحدوا إلى هذه كلّها، ولزوم أمره سبحانه مساوق لما ذكرناه من لوازم التقوى.

ولم تكن هنالك خصلة أصلح للعبد، وأجمع للخير وأعظم بالقدر، وأنجح للآمال من التقوى، والقرآن الكريم مشحون بمدحها وفضلها، وعدّد في مدحها خصالاً:

١ ـ المدحة والثناء بقوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٦].

٢ ـ الحفظ والتحصين من الأعداء وهو قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران : ١٢٠].

٣ ـ التأييد والنصر وهو قوله: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الْـمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

٤ ـ إصلاح العمل وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١].

٥ـ غفران الذنوب وهو قوله:﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

٦ ـ محبّة الله تعالى وهو قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٤].

٧ـ قبول العمل وهو قوله:﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْـمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

٨ ـ الإكرام وهو قوله:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

٩ ـ البشارة عند الموت وهو قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَـهُمُ الْـبُشْرَى فِي الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس : ٦٣-٦٤].

١٠ـ النجاة من النار كما في قوله:﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢].

١١ ـ الخلود في الجنّة كما في قوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣].

١٢ ـ تيسير الحساب كما في قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٦٩].

١٣ ـ النجاة من الشدائد والرزق الحلال كما في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق:٢ ـ٣].

فلينظر الإنسان إلى ما جمعت هذه الآيات من السعادة والخير، فلاينس نصيبه منها.

***

## ذكر الله تعالى:

قوله عليه السلام: «وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ».

عمارة القلب بذكر الله تعالى ذكراً لا يعتريه النسيان، يستتبع ملازمة الطاعة له، والانسلال عن معصيته في جميع أطوار الإنسان وشؤونه، في سرّه وعلانيته، وفي حلّه ومرتحله، فلا يرد إلاّ في طاعة، ولا يصدر إلاّ عن معصية، فمن كان محبوّاً بهذه الفضيلة فالناس جميعاً محبورون بفضائله وفواضله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أُنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الورق والذهب، وخيرٌ لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عزّ وجلّ[1].

(١) المحاسن ١ : ١٠٩ ح٤٥؛ عنه البحار ٩٣ : ١٥٧ ح٢٩.

وعنه ﷺ أيضاً: سبق المغرّدون، سبق المغرّدون، قيل: ومن هم يارسول الله؟ قال: المستغرقون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم، فوردوا القيامة خفافاً[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وقد انكشف لأرباب البصائر المستنيرة بنور المعرفة أنّ ذكر الله أفضل الأعمال الروحية، والقلبية، والنفسية، والبدنية، ولكن له مراتب بعضها قشور، وبعضها لبوب. وللذاكر أيضاً مراتب بحسبه، ولكلّ ذكر نتيجة أيضاً فإنّ نتيجة ذكر العبد لله ذكر الله له كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم﴾ [البقرة : ١٥٢].

وقيل: في هذه العبارة تقديم وتأخير لأنّ الله أمرهم بالذكر مع فاء التعقيب كقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : ٥٤] وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩]، وذلك لأنّ ذكر العبد لله تعالى نتيجة ذكر الله له كما أنّ محبّتهم له ورضاءهم عنه تعالى نتيجة محبّته إيّاهم، ورضوانه عنهم.

والحقّ أنّ لكلّ من القولين وجهاً وجيهاً؛ لأنّ التقدّم في الأول على سبيل الإعداد والتهيئة، وفي الثاني على سبيل العلّية واللزوم؛ لأنّ جميع حالات العبد تابعة لما في علم الله وقضائه الاجمالي ثمّ التفصيلي، فذكرنا له تعالى مسبّب عمّا في اللوح المحفوظ والذكر الحكيم.

---

(١) الجامع الصغير ٢ : ٤٤ ح٤٦٥١، وكنز العمال ١ : ٤١٧ ح١٧٧٣.

وأيضاً فإنّ ذكر العبد لله، ومحبّته له، ورضاءه عنه، وسائر صفاته الحسنة، وأعماله الصالحة مؤدّية له إلى أمثال هذه النتائج على وجه أكمل وأعلى، فإنّ لكلّ شيء حادث، كما له مبدءاً كذلك يكون له غاية. والمبادئ للأشياء ذوات الغايات هي نفس الغايات بالذات، وغيرها بالاعتبار كما حقّق في مظانّه. أو لا ترى أنّ تصوّر كلّ فاعل مختار لنتيجة فعله وكمال عمله متقدّم علماً على ثبوت تلك الغاية، وهي متأخّرة عنه عيناً.

فإذا كان هكذا فنقول: لمّا كان الله سبحانه مبدء كلّ شيء وغايته، وأوّل كل فكر وذكر ونهايته، وظاهر كل موجود وباطنه، فالأوّل فيه عين الآخر، والباطن عين الظاهر، والعلم هناك عين العين فقد صحّ كلّ من الوجهين في الذكر. وهذا أيضاً من العلوم المختصّة بأحبّاء الله ومشتاقيه المجذوبين إليه.

هذا ولنرجع إلى ما كنّا فيه من بيان مراتب الذكر والذاكر ونتيجة كل مرتبة فنقول: أما مراتب الذكر والذاكر: فذكر اللسان، وذكر الجوارح والأركان، وذكر النفس، وذكر القلب، وذكر الروح، وذكر السرّ.

وأمّا تعيينها وتعيين نتائجها: فذكر اللسان الاقرار، ونتيجته حقن الدم والمال بالأمان «فاذكروني بالايمان أذكركم بالأمان». وذكر الأركان باستعمال الطاعات والعبادات للوصول إلى المثوبات «فاذكروني بالطاعات أذكركم بالمثوبات».

وذكر النفس بالاستسلام للأوامر والنواهي، للفوز بنور الاسلام «فاذكروني بالاستسلام اذكركم بنور الاسلام». وذكر القلب بتبديل الأخلاق الذميمة، وتحصيل الأخلاق الكريمة للتشبّه بالحق والانخراط في سلك أحبّائه، والاتّصال بجنابه، «فاذكروني بالأخلاق أذكركم بالاستغراق».

وذكر الروح بالتغريد والمحبّة، لحصول المعرفة والحكمة «فاذكروني بالتغريد والمحبّة، أذكركم بالتوحيد والقربة». وذكر السرّ ببذل الوجود لوجدان المعبود «فاذكروني ببذل الوجود والفناء أذكركم بنيل الشهود والبقاء». وهذا حقيقة قوله في الحديث القدسي: «وإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي».

وهذا هو لبّ الألباب، وهو الذكر الحقيقي، والغاية الأخيرة لما في الخطاب. وهو يجعل الذاكر مذكوراً، والمذكور ذاكراً. بل الذكر والذاكر والمذكور واحد، كما قال سبحانه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فافهم ذلك واعرف قدره، فإذا تقرّر ذلك فقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] يحتمل القياس للجميع، وكذا قياس ما هو نتيجة له بحسب الأقسام من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلكلّ ذكر من أقسام الأذكار فلاح يناسب معناه.

فاذكروا الله باللسان لعلّكم تفلحون بالاحقان والأمان، وبعمل

الأركان لعلّكم تفلحون بالوصول إلى مثوبات الجنان، وبالنفس بالاستسلام لعلّكم تفلحون بنور الإسلام، وبمحبّة القلب لعلّكم تفلحون بالاستغراق في محبّته، وبالروح لعلّكم تفلحون بمعرفته وحكمته، وبالسرّ من جهة الفناء فيه لعلّكم تفلحون بنيل شهوده وجماله والبقاء به بعد الفناء فيه.

***

## الاعتصام بحبله تعالى:

قوله عليه السلام: «وَالاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَب أَوْثَقُ مِنْ سَبَب بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ».

الاعتصام بحبل الله تعالى يعصم الإنسان عن التورّط في مساقط الهوى، والانهماك في مهاوي الشهوات، فمتى راقه أن يقترف إثماً، أو يلمّ بسيّئة، وجد من نفسه ما يضرب على يده، ويجعجع به عن السير في سنن الهلكات، كما أنّه لا يبارحه حاثّ من نفسه على عمل الخيرات، وما فيه صالح نفسه ومناجح البشر عامة، وليس حبل الله وعروته الوثقى التي يجب أن يستمسك بها غير ذينك الأصلين الذين فيهما السعادة الخالدة، وفوز الدارين.

ثمّ إنّه عليه السلام أكّد أمره بالاعتصام بحبله تعالى بأنّه أوثق العرى، وأقوى الأسباب، وفي شريعة الحجى أنّه يجب أن يؤخذ بما لا يخشى

انقطاعه ولا يحاذر انفصامه، ولا يدنو منه السقوط والهلكة، ولا يحتمل معه التدهور والتقهقر، فيكون العامل قد ارتجّ على نفسه أبواب الضعة، وكبح الضرر المحتمل الذي يجب المحاذرة عنه.

وهذه مواد حيوية للنفس، يجب التحلّي بها، أفاضها عليه السلام على كلّ البشر وهو يخاطب ابنه المحبوب، فجاء مسير كلامه كما قلنا مسير المثل السائر ـ إياك أعني واسمعي يا جارة ـ فإنّ الإمام المجتبى صلوات الله عليه هو منبثق أنوار العظات البالغة، ومنار الحكم والأحكام كلّها، وآية العدل، وشارة الأخلاق، منذ بدء حياته، فهو في غنىً عن المواعظ والوصايا.

## عليّ رمز الاعتصام:

وقيل: المراد بالحبل هو الولاء لعلي وأولاده الطاهرين المعصومين، والأخبار مستفيضة بذلك، جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «آل محمّد هم حبل الله المتين الذي أمر بالاعتصام به، فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾» [آل عمران: ١٠٣]. وجاء أيضاً عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنّ عليّ بن أبي طالب هو حبل الله المتين»[1].

***

(١) البحار ٦٨ : ٢٣٣؛ وتفسير البرهان ١ : ٣٠٦ ح٦ و ٧؛ عن تفسير العياشي ١ : ١٩٤ ح١٢٢ و ١٢٣.

## إحياء القلب بالموعظة:

قوله عليه السلام: «أَحْيِي قَلْبَكَ بِالْـمَوْعِظَةِ».

أمره عليه السلام بإحياء قلبه بالموعظة لما فيها من تنشيط العامل إن كان متحلياً بما تقتضيه الموعظة، وإرجاعه إلى الأمر الحكيم إن كان خلواً منها، فهو كلّ حين بين النشاط والمسرّة، بما آب إليه من الجميل المبهج بلحاظ عواقبه السارّة.

وليس شيء أنفع للمرء من الموعظة، فإنّها تحيي القلب، وتفتح البصيرة، وتوقظ الفكرة، وتشدّ الهمّة، وتبعث العزيمة، وما أُتي الناس إذ تسقط أخلاقهم، وتذهب آدابهم، وينتشر الفساد فيهم إلاّ من قبل عدم الموعظة والواعظين لهم.

وإنّك لتجد الفرق ظاهراً بين رجل يحضر مجالس الوعظ والتذكير، وبين رجل أهمل ذلك، وتباعد عنه، فإنّك ترى من لين الأول وأدبه ورقّته وعطفه، وانصياعه للقول، وإقباله على النصيحة، ما لا ترى في الثاني بل هو على العكس من الأوّل في خشونته، وجفائه، وقطيعته، وعدم التزامه بشيء من الأدب والدين، يمثل الوحوش الضواري في بطشها وسطوتها، وهب أنّه متعلّم فإنّ كثيراً من المتعلّمين يؤتون من قبل علمهم إذا فسدت أخلاقهم، فيتّخذون ما بأيديهم من العلم سلاحاً يتوصّلون به إلى مقاصدهم الفاسدة، وأغراضهم الخبيثة.

أُنظر هذه الأمم المتناحرة التي يصول بعضها على بعض، ويحاول

بعضها ابتلاع بعض، أليس الذين على رأسها هم أكثر الناس علماً، وأوفرهم معرفةً كما يزعمون، أين ذهب عنهم علمهم، وأين ولّت عنهم معارفهم، لو كانت المعارف والعلوم وحدها هي الرادع عن الشر، والوازع عن الأذى والظلم. لا جرم أنّ الأُمم بأخلاقها، وأنّ الأخلاق تأتي من قبل العلم الصحيح، والعلم الصحيح يأتي من قبل القائمين عليه الحافظين لحدوده، وهو والدين الصحيح سواء.

كذب من قال: «العلم في جنب، والدين في جنب» بل هما أخوان متلازمان، وعضدان متوازران، لا ينفك أحدهما عن الآخر، والعقل سراجهما المنير، ومستشارهما الناصح، والوعظ جلاؤه وبه حياته، يقول عليه السلام: «أحيي قلبك بالموعظة». ويقول في مقام آخر: «إنّ الله سبحانه جعل الذكر ـ التذكير والموعظة ـ جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة»[1].

ولشرف الوعظ وفضله تولاّه الله سبحانه، ثمّ أمر أنبياءه ورسله أن يتولّوه ويقوموا به.

ومواعظ الله في خلقه كثيرة، ونصائحه لهم عظيمة، يكتبها الدهر، وتقرأها عليك الليالي والأيّام، وأفصحها كتبه المنزلة، وشرائعه المفصلة.

وأفضل كتبه القرآن ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة:٢٣١] وأكمل شرائعه خاتمتها، وأفصح أنبيائه وأنصحهم

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم٢٢٢.

محمّد ﷺ ﴿رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْـمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨].

ومن السابقين لقمان إذ يقصّ الله علينا من مواعظه ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّة مِنْ خَرْدَل فَتَكُنْ فِي صَخْرَة أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ١٣و١٦].

وروي أنّ داود عليه السلام كان ينصب له منبراً فيجلسه عليه، ثمّ يجلس هو تحت منبره يستمع لحكمته.

ولقد أهمل الوعظ والتذكير في هذه العصور، تركه العالمون فأنف من الاستماع الجاهلون، ومتى لم يستعمل العالم علمه أنف الجاهل أن يتعلّم.

وإنّ للواعظ شرائط إذا أهملت كلاً أو بعضاً، قلّ التأثير ففات الغرض، الأوّل: أن يكون عالماً. الثاني: أن يكون ناصحاً. الثالث: أن يكون ذا بيان. الرابع: أن يكون حكيماً، وذلك أنّ الجاهل لا يعرف ما يعظ به، وغير الناصح ربّما يتخيّر من الكلام، ويستخدم من البيان ما له فيه غرض وغاية ومنفعة، صلح به الناس أم فسدوا.

والذي لا بيان له لا يقدر على التصرّف في إيراد الكلام وإصداره حسبما تقتضيه المصلحة، أما تسمع موسى بن عمران عليه السلام حيث يقول وقد كلّف أمر الرسالة: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ

رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونَ﴾ [القصص:٣٤]. وغير الحكيم ربما كان ضرره أكبر من نفعه، لوضع وعظه في غير محلّه، وإيراده في غير موقعه، إنّ الوعظ حكمة، والحكمة إذا أعطيتها لغير أهلها فقد ضيّعتها وظلمتها، والواجب أن يعطى لكلٍّ ما يناسبه، وما ينتفع به ويفهمه.

لقد أُلقيت هذه الوظيفة الشريفة اليوم إلى غير أهلها، وحملها من لا قدرة له على القيام بعبئها، ولكن الذي يخفّف المصيبة أنّه لا تخلو الأرض من عامل عليها بخير وأنّه:

«ما برح لله عزّت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة، يذكّرون بأيّام الله ويخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلّة في الفلوات، فمن أخذ القصد حمدوا إليه الطريق وبشّروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق وحذّروه من الهلكة، وكذلك كانوا مصابيح تلك الظلمات وأدلّة تلك الشبهات»[1]. وهكذا يكونون، «ولله الحجّة البالغة». ولابدّ لنا في هذا المقام من التنبيه على أُمور:

الأوّل: في التنبيه على آداب الواعظ مع من يعظه.

الثاني: في التنبيه على آداب من يستمع الموعظة.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٢٢٢.

## التنبيه الأول: في آداب الواعظ:

إنّ للواعظ آداباً ينبغي أن يتحلّى بها، ويحرص عليها، لتُعينه على مراده، وتوصله إلى غرضه وقصده.

منها: أن لا يواجه المستمعين بالشدّة، ولا يستقبلهم بالعنف، ولا يلومهم، ولا يعيّرهم لما في اللوم والتعيير من شدّة التحمّل له، ومشقّة الصبر عليه، فيكون الوعظ حينئذ سبباً للنفرة، وداعياً لعدم الاصغاء، وموجباً للتباعد عن القبول والاقبال، وكثيراً ما يوقع في عكس المقصود.

بل الواجب استعمال الرفق واللين، فإنّه أوصل للقصد، وأجلب للقلب، وأقرب إلى مرضاة الرب، ألا ترى وتسمع كيف يأمر الله سبحانه موسى وهارون أن يقولا لفرعون الطاغية المتمرّد: ﴿قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه : ٤٤].

وإذا كان يرجى استجلاب فرعون وخشيته وتذكّره على كبريائه وجبروتيّته فكيف غيره، وكم يكون من عداه قريباً من الحقّ حريّاً بالخشية، جديراً بالتذكّر إذا وعظ باللين، وخوطب بالرفق، ودعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

## التنبيه الثاني: في آداب من يستمع الموعظة:

ما مني الناس بمرض أفتك في عقولهم، وأردى لنفوسهم من عدم الاتّعاظ، ومن الإعراض عن قبول النصيحة والموعظة، وإنّ من سدّ على نفسه هذا الباب فقد سدّ عليها كلّ باب من أبواب الخير، وكلّ سبيل

من سبل الهداية والرشد، وتركها ميداناً لتجوال الهوى، ومسرحاً لعبث الغواية، وملعباً تلعب وتعبث بها بواعث الشهوات، ودواعيها وشياطينها، وما أقرب من كان كذلك إلى الهلكة المخزية، وسوء المصير المردي، أعاذنا الله منه.

فأوّل واجبات المرء أن يأخذ نفسه به أخذاً شديداً، ويحملها عليه حملاً مرغماً لا هوادة فيه، وليفضل الحضور في مجالس الوعظ والتذكير على كلّ أمر وإن عزّ وعظم، وليقبل على الاصغاء والاستماع للواعظ بكلّ ما أُوتي من فهم، وليحرص على من يسمعه ويفهمه منه بكلّ ما عنده من قابلية واستعداد، وليعلم أنّ الانتفاع به يحتاج إلى أمرين.

الأوّل: إصلاح العقيدة، فإنّ من فسدت عقيدته قلّت عظته، وعميت بصيرته، وقسا قلبه ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة : ٧٤].

الثاني: اجتناب أكل المال الحرام، فإنّه يورث القسوة، ويحجب البصيرة، ويمنع من استماع الموعظة والتأثر بالنصيحة.

قال الحسين عليه السلام يوم الطفّ لمن أقدم على قتاله، واستباح الفتك بعياله وأطفاله، بعدما تقدّم إليهم بمواعظه البالغة، ونصائحه المنجية فلم يسمعوا قال عليه السلام : وكيف تسمعون لي وقد ملأت بطونكم من الحرام[1].

---

(١) البحار ٤٥ : ٨.

ولقد كان بعض السلف الصالحين من أهل العلم يقتاتون ببطن الاضطرار، إحتياطاً لأنفسهم من أكل المال الحرام، يرون أنّ ما يأكلونه على هذا الوضع وإن كان حلالاً في الظاهر فإنّه يحتمل أن يكون حراماً في الواقع، فيقتصرون منه على ما يضطرّون إليه، فإن كان حلالاً فقد انتفعوا بكبح جماح أنفسهم، وقمعها عن شهواتها، وإن كان حراماً لايضرّهم؛ لأنّ لهم عند الاضطرار أن يتناولوا من الحرام بمقدار ما يقيم صلبهم، ويدفع الموت عن أنفسهم.

وقد كان حجة الإسلام الشيخ محمّد طه نجف رضوان الله عليه، يفتي بلزوم التقيّؤ على من أكل حراماً ثمّ عرف حرمته بعد ازدراده، والظاهر أنّ ذلك نظراً منه إلى أنّ الحرام يوجب ظلمة في النفس يبتعد بها المرء عن الله سبحانه.

وإنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يبالغون في الاجتناب عن ذلك، حتّى أنّهم اقتصروا على أن يأكلوا ممّا كسبت أيديهم، والذي لم يتهيّأ له ذلك يأكل من حشائش الأرض ومنابتها المباحة لسائر الحيوانات.

فكان موسى عليه السلام يقتات من حشائش الأرض، حتّى كانت خضرة الحشيش تُبان من صفاق بطنه، وما سأل ربّه حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] إلاّ خبزاً يأكله. وكان عيسى عليه السلام يقول: «زادي تقواي، وراحلتي رجلاي، وأكلي ممّا تنبت الأرض». وكان سليمان يسفّ الخوص ويأكل من ثمنها، وكذلك كان أبوه داود، يصنع الدروع ويبيعها ويأكل من ثمنها.

وإنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان أكله خبز الشعير، وما شبع من خبز برّ قط، وكان أحبّ شيء إليه أن يكون خائفاً جائعاً.

وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يضع خبز الشعير في جراب، ثمّ يختم عليه خوفاً من الحسن والحسين عليهما السلام أن يلتاه بسمن أو زيت، وهو القائل: وكأنّي بقائلكم يقول: إذا كان هذا طعام ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن مبارزة الأقران، ومنازلة الشجعان(١).

وأنت ترى أنّ هؤلاء الأنبياء وأتباعهم، ما كانوا يمنعون أنفسهم ممّا أحلّ الله لهم، إلاّ لمثل هذه الملاحظات القيّمة التي كشفنا لك عن أحدها والله خبير بما يعملون.

## إماتة القلب بالزهد:

قوله عليه السلام: «وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ».

الزهد يكبح جماحه عن الشهوات وما يخالج الإنسان من دواعي النهمة والشره، فكأنّ القلب إذا انكفأ عنها بتصوير مغباتها السيئة، فإنّ روح الحركات الذميمة قد انتزعت منه وكأنّه ميّت عن الدنايا، وإن كانت تزامله الحياة السعيدة الخالدة.

## درجات الزهد:

ومعلوم أنّ الزهد من عظائم مكارم الصالحين، وجلائل صفات

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥؛ عنه البحار ٣٣ : ٤٧٣.

المتّقين، وجملة مقامات السالكين إلى الله تعالى بقدمي الطاعة واليقين، وهو في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهي، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفت ولكن يجاهدها ويكفّها، وهذا يسمّى المتزهّد في حقّ من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهّد يذيب أولاً نفسه ثمّ كيسه، والزاهد يذيب أوّلاً كيسه ثمّ يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه، والمتزهّد على خطر فانّه ربّما تغلبه نفسه، وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا والاستراحة بها في قليل أو كثير.

الدرجة الثانية: أن يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إيّاها بالاضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين فإنّه لا يشقّ عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع يلتفت إليه، فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده، ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده فلايرى زهده، إذ لايرى أنّه ترك شيئاً إذا عرف أنّ الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خنفساء وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً، والدنيا بالاضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خنفساء إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة. ومثل هذا الزهد أمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أنّ تارك الخنفساء بالجوهرة

أمن من طلب الاقالة في البيع.

قال أبو زيد لأبي موسى عبد الرحيم: في أيّ شيء تتكلّم؟ قال: في الزهد، قال: في أيّ شيء؟ قال: في الدنيا، فنفض يده وقال: ظننت أنّك تتكلّم في شيء، الدنيا لا شيء، أيش تزهد فيه[1].

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة، وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتّى نفّذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنّه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلب في مقابلة ما يناله.

فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدخول مع أنّ الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز إن أكلها فلذّتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع، ثمّ يبقى ثقله في المعدة، ثمّ ينتهي إلى النتن والقذر، ويحتاج إلى إخراج الثقل، فمن يتركها لينال عزّ الملك كيف يلتفت إليها.

ونسبة الدنيا كلّها أثمن ما يسلم لكلّ شخص منها وإن عمّر مائة سنة بالاضافة إلى نعيم الآخرة أقلّ من لقمة بالاضافة إلى ملك الدنيا، إذ لا نسبةَ للمتثبّت إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب ولو كان يتمادى ألف ألف سنة صافية عن كلّ كدورة، لكان لا نسبة له إلى الأبد،

---

(١) راجع كشف المحجّة ٧ : ٣٥٨ كتاب الفقر والزهد.

فكيف ومدّة العمر قصيرة، ولذّات الدنيا مكدّرة غير صافية، فأيّ نسبة لها إلى نعيم الأبد، فإذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلاّ إذا التفت إلى ما زهد فيه، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلاّ لأنّه يراه شيئاً معتدّاً به، ولا يراه شيئاً معتدّاً به إلاّ لقصور معرفته، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة.

فهذا تفاوت درجات الزهد، وكلّ درجة من هذه أيضاً لها درجات، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقّة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته إلى زهده.

## درجات الزهد بالاضافة إلى المرغوب فيه:

وأما انقسام الزهد بالاضافة إلى المرغوب فيه، فهو أيضاً على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الآلام كعذاب القبر، ومناقشة الحساب، وخطر الصراط، وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها أنّ الرجل ليوقف في الحساب حتّى لو ورد مائة بعير عطاشى على عرفه لصدرت رواء، فهذا زهد الخائفين، وكأنّهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبةً في ثواب الله ونعيمه، واللّذات الموعودة في جنّته من الحور والقصور وغيره هذا زهد الراجين، فإنّ

هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا في وجود دائم على نعيم قائم لا آخر له.

الدرجة الثالثة وهي العليا: أن لا تكون له رغبة إلاّ في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللّذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى، وهو الذي أصبح وهمومه همّ واحد، وهو الموحّد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى ـ لأنّ من طلب غير الله فقد عبده، وكلّ مطلوب معبود، وكلّ طالب عبد بالاضافة إلى مطلوبه، وطلب غير الله من الشرك الخفي.

وهذا زهد المحبّين وهم العارفون؛ لأنّه لا يحبّ الله خاصّة إلاّ من عرفه، وكما أنّ من عرف الدينار وعرف الدرهم وعلم أنّه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحبّ إلاّ الدينار، فمن عرف الله وعرف لذّة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أنّ الجمع بين تلك اللّذة وبين لذّة التنعّم بالحور العين، والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحبّ إلاّ لذّة النظر ولا يؤثر غيره.

ولا تظنّن أنّ أهل الجنّة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحور والقصور متّسع في قلوبهم، بل تلك اللّذة بالاضافة إلى لذّة نعيم الجنّة كلذّة ملك الدنيا، والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالاضافة إلى لذّة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنّة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب، كالصبيّ الطالب اللعب بالعصفور والتارك للذّة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لـذّة الملك

لا لأنّ اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافّة الخلق.

## درجات الزهد بالاضافة إلى المرغوب عنه:

وأمّا انقسامه بالاضافة إلى المرغوب عنه، فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعلّ المذكور فيه يزيد على مائة فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتّى يتّضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكلّ فنقول:

المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام، وبعضها أجمع للجمل. أمّا الاجمال في الدرجة الأُولى فهو كلّ ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتّى يزهد في نفسه أيضاً، والاجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كلّ صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها.

والاجمال في الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما يرجع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة، والدينار والدرهم والجاه، وإن كثر أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة، وأعني به كلّ علم وقدرة مقصودها ملك القلوب، إذ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها، كما أنّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها، فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من

هذا يكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر.

وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها، قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْـبَنِينَ وَالْـقَنَاطِيرِ الْـمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْـفِضَّةِ وَالْـخَيْلِ الْـمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْـحَرْثِ ذلِكَ مَتَاعُ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران : ١٤] ثمّ ردّه في آية أُخرى إلى خمسة، فقال: ﴿إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْـحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ﴾ [الحديد : ٢٠ ] ثمّ ردّه في موضع آخر إلى واحد، فقال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْـهَوَى فَإِنَّ الْـجَنَّةَ هِيَ الْـمَأْوَى﴾ [النازعات : ٤٠-٤١].

فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه، وإذا عرفت طريق الاجمال والتفصيل، عرفت أنّ البعض من هذا لا يخالف البعض، وإنّما يفارقه في الشرح مرّة والاجمال أُخرى.

وصفوة القول أنّ الزهد عبارةً عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة؛ لأنّه يريد البقاء ليتمتّع، ويريد التمتّع الدائم بإرادة البقاء، فإنّ من أراد شيئاً أراد دوامه، ولا معنى لحبّ الحياة الدنيا إلاّ حبّ دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها.

ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْـقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَل قَرِيب﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]

أي لستم تريدون البقاء إلاّ لمتاع الدنيا.

فظهر عند ذلك الزاهدون، وانكشف حال المنافقين، أمّا الزاهدون المحبّون لله فقاتلوا في سبيل الله كأنّهم بنيانٌ مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنّة، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله، أو نيل رتبة الشهادة، وكلّ من مات منهم على فراشه يتحسّر على فوت الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْـهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [ البقرة : ١٦].

وأمّا المخلصون فإنّ الله تعالى ﴿اشْتَرَى مِنْ الْـمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَـهُمْ بِأَنَّ لَـهُمُ الْـجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فلمّا رأوا أنّهم تركوا تمتّع عشرين سنة أو ثلاثين سنة بتمتّع الأبد، استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به، وهذا بيان المزهود فيه، وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكر المتكلّمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلاّ إلى بعض أقسامه، فذكر كلّ واحد ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه.

وقد ذكر أبو حامد الغزّالي جملة من أقاويل الناس في الزهد، وبيّن قصورها واحداً واحداً، ثمّ قال[1]: وفي الزهد أقاويل وراء ما قلناه فلم نر في نقلها فائدة، فإنّ من طلب كشف حقائق الأُمور من أقاويل الناس ورآها مختلفة، فلا يستفيد إلاّ الحيرة. وأمّا من انكشف له الحقّ في

(١) راجع المحجّة البيضاء ٧ : ٣٦٢.

نفسه، وأدركه بمشاهدة من قلبه ـ لا بتلقّف ممّن سمعه ـ وثق بالحقّ واطّلع على قصور من قصّر لقصور بصيرته، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته.

وهؤلاء كلّهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة ولكنّهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة. والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف، وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه، والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف، وأمّا الحقّ نفسه فلا يكون إلاّ واحداً، ولا يتصوّر أن يختلف.

أقول: وفي الكافي عن السجادعليه السلام :«إنّ الزهد في آية من كتاب الله تعالى ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد : ٢٣]»[١].

وقد ورد هذا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهي الكلمة الجامعة في الزهد، قال عليه السلام : «الزهد في الدنيا قصر الأمل، وشكر كلّ نعمة، والورع عن كلّ ما حرّم الله عزّ وجلّ»[٢].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الزاهد في الدنيا، فقال: «الذي يترك حلالها مخافة حسابه، ويترك حرامها مخافة عقابه»[٣].

وفي مصباح الشريعة عنه عليه السلام قال: «الزهد مفتاح باب الآخرة

---

(١) الكافي ٢ : ١٢٨ح٤.

(٢) الكافي ٥ : ٧١ ح٣.

(٣) البحار ٧٠ : ٣١٠ ح٦.

والبراءة من النار، وهو تركك كلّ شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها، ولا إعجاب في تركها، ولا انتظار فرج منها وطلب محمدة عليها، ولا عوض لها بل ترى فوتها راحة. وكونها آفة، وتكون أبداً هارباً من الآفة معتصماً بالراحة.

والزاهد الذي يختار الآخرة على الدنيا، والذلّ على العزّ، والجهد على الراحة، والجوع على الشبع، وعافية الآجل على محبّة العاجل، والذكر على الغفلة، وتكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[2]، ألا ترى كيف أحبّ ما أبغضه الله، وأيّ خطأ أشدّ جرماً من هذا.

وقال بعض أهل البيت عليهم السلام: «لو كانت الدنيا بأجمعها لقمة في فم طفل لرحمناه، فكيف حال من ينبذ حدود الله خلف ظهره في طلبها والحرص عليها»[3].

والدنيا دار لو أحسنت إلى ساكنها لرحمتك وأحسنت وداعك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لما خلق الله الدنيا أمرها بطاعته فأطاعت ربّها، فقال لها: خالفي من طلبك ووافقي من خالفك، فهي على عهد الله إليها وطبعها عليه»[4].

قال أبو حامد: فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف

---

(١) مصباح الشريعة : ١٣٧؛ انظر المحجة البيضاء ٧ : ٣٦٣.

(٢) البحار ٧٠ : ٣١٥ ح٢٠.

(٣) البحار ٧٠ : ٣١٥ ح٢٠؛ والمحجة البيضاء ٧ : ٣٦٣ عن مصباح الشريعة.

(٤) المصادر نفسها.

المزهود فيه، فأمّا بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة: فالفرض هو الزهد في الحرام، والنفل هو الزهد في الحلال، والسلامة هو الزهد في الشبهات. وقد ذكرنا درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد، إذ قيل لبعض السلف ما الزهد فقال: «التقوى».

وأمّا بالاضافة إلى خفايا ما يترك فلا نهاية للزهد فيه إذ لا نهاية لما تتمتّع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات لا سيّما خفايا الرياء، فإنّ ذلك لا يطّلع عليه إلاّ سماسرة العلماء، بل الأمور الظاهرة أيضاً درجات الزهد فيها لا يتناهى.

فمن أقصى درجاتها زهد عيسى عليه السلام إذ يتوسّد حجراً في نومه، فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك؟ فقال: وما الذي تجدد؟ فقال: توسّدت الحجر ـ أي تنعّمت برفع رأسك عن الأرض في النوم ـ فرمى الحجر وقال: خذه فقد تركته لك.

وروي عن يحيى بن زكريا أنّه لبس المسوح حتّى نقب جلده تركاً للتنعّم بلين الثياب، واستراحة حسّ اللمس، فسألته أُمّه أن يلبس مكانها جبة صوف ففعل فأوحى الله إليه: يا يحيى أثرت على الدنيا، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان. وجلس عيسى عليه السلام في ظلّ حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمتني أنت إنّما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعّم بظلّ الحائط.

فإذن درجات الزهد ظاهراً وباطناً لا حصر لها، وأقلّ درجاته: الزهد في كلّ شبهة ومحظور. فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أنّ الزهد كلّ ما سوى الله فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشرب واللبس،

ومخالطة الناس ومكالمتهم، فكلّ ذلك اشتغال بما سوى الله.

فاعلم أنّ معنى الانصراف من الدنيا إلى الله الاقبال بكلّ القلب إليه ذكراً وفكراً ولا يتصوّر ذلك إلاّ مع البقاء، ولا بقاء إلاّ بضرورات النفس فيما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن، وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله، فإنّ ما لا يتوصّل إلى الشيء إلاّ به فهو منه، فالمشتغل بعلف الناقة في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج.

ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعّم ناقتك باللذّات، بل غرضك مقصوراً على دفع المهلكات عنها حتّى تصير بك إلى مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن، فيقتصر على قدر الضرورة، ولا نقصد التلذّذ بل التقوّي على طاعة الله فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد(١).

***

### قوّة القلب باليقين:

قوله عليه السلام: «وَقَوِّهِ بِالْـيَقِينِ».

تقوية القلب باليقين هو النزوع إلى أسبابه وموجباته في جميع

---

(١) راجع المحجة البيضاء ٧ : ٣٦٢-٣٦٤.

المعارف الإلهية منذ المبدأ الأعلى إلى منصرم ما يدركه الفكر حتّى يقف البعث والنشور، والتفكير حول هذه المعارف وتصوير براهينها وآثارها لا يبارح الاعتقاد الجازم وهو اليقين المطلوب.

ويشرق لك من أُفق البيانات المطلّة من سماء الشريعة، أنّ اليقين أمرٌ جليل في نفسه، قال صلى الله عليه وآله: «اليقين الايمان كلّه»(١) وإنّه عزيز الحصول صعب المنال، قال صلى الله عليه وآله: «أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أوتي حظّاً منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل»(٢) وأنّه جيّد الثمرة، مجيد العاقبة، مستقيم الطريق.

قال صلى الله عليه وآله: «ما آدمي إلاّ وله ذنوب ولكن من كانت غريزته العقل، وسجيّته اليقين لم تضرّه الذنوب؛ لأنّه كلّما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم، فتكفّر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنّة»(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «انّ العمل القليل الدائم على اليقين، أفضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين»(٤).

وقال عليه السلام: «انّ الله تعالى بعدله وقسطه، جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط»(٥).

(١) كنز العمال ٣ : ٤٣٧ ح٧٣٣١.
(٢) البحار ٨٢ : ١٣٧ ح٢٢.
(٣) احياء العلوم ١ : ٧ / آفات العلم.
(٤) الكافي ٢ : ٥٧ ح٣؛ عنه البحار ٧٠ : ١٤٧ ح٨.
(٥) الكافي ٢ : ٥٧ ح٢؛ عنه البحار ٧٠ : ١٤٣ ح٧.

وفي وصيّة لقمان لابنه: «لا يستطاع العمل إلاّ باليقين، ولا يعمل المرء إلاّ بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتّى ينقص يقينه»(١).

وهذه النفاسة في اليقين، واستقامة الطريق به، وطيب الثمرة منه، يبعثنا على البحث في معناه، وفي الأسباب المحصّلة له، وفي الموانع المبعدة عنه، وإليك البيان:

كلّ من التفت لأمر ما، فامّا أن يكون شاكّاً فيه أو ظانّاً أو عالماً، وذلك أنّه إن كان متردّداً فيه كان شاكّاً، وإن كان مرجّحاً لأحد الطرفين مع احتمال الطرف الآخر كان ظانّاً، وإن كان لا مع احتمال الآخر كان عالماً، ثمّ العلم إن كان مع عدم مطابقة الواقع فهو الجهل المركّب، وإن كان مع مطابقة الواقع فهو اليقين.

### تعريف اليقين:

ومن هنا قالوا في تعريف اليقين وتحديده لغةً: أنّه العلم الذي لاشكّ فيه. واصطلاحاً: اعتقاد مطابق للواقع، ثابت لا يمكن زواله، وعند أهل الحقيقة: رؤية العيان بقوّة الايمان لا بالحجّة والبرهان، وقيل: مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار.

### مراتب اليقين:

ومراتبه ثلاثة: علم اليقين، عين اليقين، حقّ اليقين.

---

(١) احياء العلوم ١ : ٧ / آفات العلم.

وقد ذكر القرآن هذه المراتب الثلاثة، ففي سورة الواقعة قال تعالى: ﴿إِنَّ هذَا لَـهُوَ حَقُّ الْـيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وفي التكاثر قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْـيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْـجَحِيمَ﴾ وفيها أيضاً: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْـيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ - ٧].

وهذه المراتب هي مرتبة في الفضل والكمال، وهي مثل مراتب معرفة النار، فالعلم بالنار مثلا بتوسّط الدخان هو علم اليقين، وهو العلم الحاصل لأهل النظر والاستدلال بالبراهين القاطعة، والعلم بمعاينة جرم النار المفيض للنور هو عين اليقين وهو العلم الحاصل بالكشف للخلّص من المؤمنين، الذين اطمأنّت قلوبهم بالله، وتيقّنوا بمعاينة القلوب ﴿إِنَّ اللهَ نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النور : ٣٥] كما وصف به نفسه، والعلم بالنار بالوقوع فيها والاحتراق بها، ومعرفة كيفيتها هو حقّ اليقين، وهو العلم الحاصل بالاتّصال المعنوي لأهل الشهود والفناء في الله.

وهذه المرتبة الأخيرة هي الدرجة العليا، والمنزلة الفضلى التي سألها الإمام علي زين العابدين عليه السلام في بعض أدعيته من الصحيفة بقوله: «واجعل يقيني أفضل اليقين».

وتحصل المرتبة الأولى بالنظر والفكر، ثمّ السير على الطريق المستقيم، فإنّ من فكّر أبصر، ومن سار على الدرب وصل، ولقد أخذ الله تعالى على نفسه الوعد بالهداية لمن جاهد فيه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] والله لا يخلف وعده.

ولقد حدّثنا القرآن والتاريخ عن رجال من الأُمم السابقة نظروا لأنفسهم، وفكّروا في أمرهم، ثمّ ساروا على الطريق فوصلوا، منهم أصحاب الكهف، ومنهم مؤمن آل فرعون، ومنهم آسية بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ ، في كثير من أمثالهم من هذه الأُمّة: منهم سلمان الفارسي، ومنهم أبو ذر الغفاري، ومنهم المقداد بن أبي الأسود الكندي، ومنهم عمار بن ياسر العبسي. فارجع إلى تاريخهم، واستعن على نفسك بذكر أحوالهم، والاقتداء بهم تفلح.

وتحصل المرتبة الثانية بالرياضة والتصفية، وحصول التجرّد التام للنفس، وهذه التصفية والتجرّد إنّما تأتي من العمل بموجبات اليقين على ضوء المرتبة الأُولى، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩]. وقول الرسول صلى الله عليه وآله: «الصلاة معراج المؤمن».

فمن حاول الوصول إلى المرتبة الثانية من مراتب اليقين بغير الجهاد في الطاعة حاول عبثاً، أيكون الرقي بغير المرقاة، والعروج بغير المعراج؟ هيهات ذلك، فكما لا يحصل اليقين بغير الدليل، لا يحصل الوصول بغير المسير، فالمشاهدة والرؤية لا تكون إلاّ بعد قطع المسافة والنظر.

روي أنّه سأل ذعلب اليماني علياً أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أرأيت ربّك؟ فقال له عليه السلام: «لم أعبد ربّاً لم أره»(١). أراد من الرؤية هذه الرؤية القلبيّة الحاصلة من اليقين، كما فسّر هو ذلك في مقام آخر حيث يقول عليه السلام مشيراً إلى الله سبحانه: «لم تره العيون بمشاهدة العيان، بل رأته القلوب بحقائق الايمان»(٢)، وبقوله: «رأى قلبي ربّي» ولقد وصف المتّقين بقوله: «فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذّبون»(٣).

وتحصل المرتبة الثالثة بحصول وحدة معنويّة، وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ـ أي بين المتيقِّن والمتيقَّن به ـ ؛ بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول، ومرتبطاً به غير منفكّ عنه، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنة فيضان الأنوار والآثار منه إليه.

وعبّر بعضهم عن هذه المراتب بتعبير أوضح وأجلى، فقال:

للعلم ثلاث مراتب، أوّلها: علم اليقين، وهي مرتبة البرهان. وثانيها: عين اليقين، وهو أن يرى المعلوم عياناً فليس الخبر كالعيان. وثالثها: حقّ اليقين، وهو أن يصير العالم والمعلوم والعلم واحداً، ولعلّه لا يعرف حقّ هذه المرتبة إلاّ من وصل إليها كما أنّ طعم العسل لايعرفه إلاّ من ذاقه. ولعزّة هذه المرتبة وقلّة الواصلين إليها، لم يتعرّض

---

(١) إرشاد القلوب ٢ : ٣٧٤.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٧٩؛ عنه البحار ٤ : ٥٢ ح٢٩.

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٣؛ عنه البحار ٦٧ : ٣١٥ ح٥٠.

لبيانها الأكثرون.

قال الشيخ بيان الحقّ أبوالقاسم محمود بن أبي الحسن النيسابوري في كتاب (خلق الإنسان): قالوا: إنّ اليقين يقينان: أحدهما ينفي الشكّ، وهذا لا يغلب الشهوة، وهو يقين التوحيد، والآخر نور مشرق للصدر، غالب للشهوات، مبطل للاختيار، صارت لصاحبه أُمور الدنيا والآخرة وأحوال الملكوت معاينة، وأصبحت لأمره خاضعة طائعة، وعلى هذا جاء عن الله تعالى في الزبور المنزل على داود عليه السلام: «لو صدق يقينكم ثمّ قلتم للجبل انتقل فقع في البحر فوقع».

وذلك أنّ القلب إذا وصل إلى الله تعالى وامتلأ من عظمته، وأشرق بنور جلاله وهيبته، فبعد ذلك أينما وقع البصر دار الفكر حوالي ما امتلأ به القلب إذ وصل إلى الله، وامتلأ من عظمته من العمل الصرف الصافي الخالص غير الممزوج بالشبهات المكدّر بالشائبات، بمنزلة الشمس إذا دار قرنها واستوى حاجبها، وأشرق ضياؤها.

فحيث ما سرت من بلاد الله فضوؤها منك يريك الأشياء بألوانها وهيآتها وتقاديرها وأشكالها، فكذلك شمس اليقين اذا أشرقت واستضاءت بنورها النفس، أراه ذلك أمر الملكوت وأحوال الدنيا والآخرة، وبواطن الأشياء والأسرار التي في الغيوب ممّا كشفها الله لأنبيائه، وأطلع عليها قلوب خيرته وأصفيائه.

وممّا يؤيّد هذا المعنى ما رواه ثقة الإسلام في الصحيح بإسناده عن إسحاق بن عمار، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شابّ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يارسول الله موقناً.

فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون، على الأرائك متّكؤون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار، وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالايمان، ثمّ قال له: ألزم ما أنت عليه، فقال الشابّ: أُدع لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله، فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر، وكان هو العاشر[1]. وهذا الشاب هو حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري.

وممّا يدلّ على التفاوت في اليقين حتّى في الأنبياء عليهم السلام ما روي في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «اليقين يوصل العبد إلى كلّ حال سني، ومقام عجيب»[2].

---

(١) الكافي ٢ : ٥٣ ح٢؛ عنه البحار ٧٠ : ١٥٩ ح١٧.

(٢) مصباح الشريعة : ١٧٧؛ راجع البحار ٧٠ : ١٧٩ ح٤٥.

وكذلك أخبر رسول الله ﷺ من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده عيسى بن مريم عليه السلام وأنّه كان يمشي على الماء، فقال ﷺ: «لو زاد يقينه لمشى في الهواء»[1].

فدلّ بهذا أنّ الأنبياء عليهم السلام مع جلالة محلّهم من الله، كانت تتفاضل على حقيقة اليقين لا غير، ولا نهاية لزيادة اليقين إلى الأبد، والمؤمنون أيضاً متفاوتون في قوّة اليقين وضعفه، فمن قوي منهم يقينه فعلامته التبرّي من الحول والقوّة إلاّ بالله، والاستقامة على أمر الله، واستقامته على أمر الله وعبادته ظاهراً وباطناً قد استوت عنده حالتا العدم والوجود، والزيادة والنقصان، والمدح والذمّ، والعزّ والذل؛ لأنّه يرى كلّها من عين واحدة.

ومن ضعف يقينه تعلّق بالأسباب، ورخّص لنفسه بذلك، واتّبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة، والسعي في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها، يقرّ باللسان أنّه لا مانع ولا معطي إلاّ الله، وإنّ العبد لايصيب إلاّ ما رزق وقسم له، والجهد لا يزيد في الرزق وينكر ذلك بفعله وقلبه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٧].

## موانع اليقين:

إنّ للحصول على اليقين والاستمرار عليه إلى النهاية موانعاً

---

(١) مصباح الشريعة : ١٧٧؛ راجع البحار ٧٠ : ١٧٩ ح٤٥.

وحجباً وسدوداً، تعرض للسالك فتمنعه عن الوصول إلى معرفة الحق، والاستمرار عليه فضلا عن اليقين به والثبات فيه.

منها: ما يعرض له في طريقه، ويقف له في سبيله فيلويه عن الجادة، ويحيد به عن الطريق السوي، وهما التعصّب لما هو عليه، والتقليد الأعمى لمن اقتدى به، فإنّ كثيراً ما يحيد بالمرء تعصّبه، ويميل به تقليده فيتأوّل الأدلّة ويتصرّف بالبراهين فيفسّرها بغير معانيها، ويحملها على غير وجوهها، إرضاءاً لتعصّبه، وانقياداً لتقليده. ومحال أن يقتنع بغير ما هو عليه، وينصرف إلى غير ما هو فيه، ولو أتيتهم بكلّ آية ما اتّبعوا قبلتك.

وثالث الموانع الهوى والغرض، فإنّه يعمي ويصمّ «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان، اتّباع الهوى، وطول الأمل، أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن حقّ»[1].

وإنّك لتجد الكثير من الناس تسلّط عليهم الهوى والغرض، فهم له تبع قد أعماهم عن الحقّ، وأضلّهم عن سواء السبيل، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمّد : ١٤].

ومنها: ما يزيغ بالمرء ولو بعد الوصول فينأى به عن الحق، ويبعد به عن الهدى، ويعمى به عن الرشد، ويُحال بينه وبين الاستمرار على معارج اليقين، ولقد حكى الله عن قوم صالحين علموا أنّ القلوب تزيغ

---

(١) الكافي ٢ : ٣٣٦؛ عنه البحار ٧٠ : ٨٨ ح١٩.

بعد الهداية فقالوا: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران : ٨].

ومن نظر في كتاب الله علم أنّ الله سبحانه إنّما يزيغ قلوبهم عن المعرفة والهداية عند الزيغ عن الطاعة ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥].

***

## تنوير القلب بالحكمة:

قوله عليه السلام : «وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ».

إنارة القلب بالحكمة بلحاظ أنّ المبدع الحكيم سبحانه لم يخلقه عبثاً، وإنّما أبدع خلقه لأشرف الغايات والتدرّج في الرقي إلى مستوى الإنسان الكامل، والتحيّز في منبثق أنوار الطاعة نصب عين البارئ الكريم، وحيث تلوح مرضاته، ويشهد رغباته، فيجب عليه وهو عالم بهذه الحكمة البالغة أن لا يفتر عن العمل الصالح، وإسداء الجميل إلى أُمّته بالتعليم والارفاد فيكون واعظاً ومتّعظاً.

ومن المحتمل أن يكون مراده صلوات الله عليه من الحكمة، معرفة علل الأشياء ومعلولاتها، باعتبار كونها علماً غامضاً صعباً، لا يكاد يطّلع عليه ويصل إليه إلاّ ورثة الأنبياء وخلفاؤهم والقائمون مقامهم بالحقّ، ثمّ المرتاضون بالعلوم الإلهية والحكم الربانيّة، الآخذون أنوار الحكمة من مشكاة النبوّة والولاية، وهم الفلاسفة الحقّة الذين أفعالهم

محكمة، وصنايعهم متقنة، وأقاويلهم صادقة جميلة، وآراؤهم صحيحة، وأعمالهم زكيّة، وعلومهم حقيقيّة.

وهي معرفة حقيقة الأشياء، وكميّة أجناسها وأنواع تلك الأجناس، وخواصّ تلك الأنوار، واحداً بعد واحد، والبحث عن عللها، بهل هي، وما هي، وكم هي، وكيف هي، وأين هي، ومتى هي، ولِمَ هي، ومَن هي.

فالحكيم المستحقّ اسم الحكمة بعد أن يجيب على هذه المسائل التسعة إذا سئل عنها، ويقيم عليها الأدلّة والبراهين الشاهدة على صحّتها، من بلغت نفسه النطقية إلى كمالها العقلي، واستغنى عن الحركات والأفكار، فحينئذ يصير علمها عملا، وعملها علماً كما أنّ العلم والقدرة في المفارقات بالنسبة إلى ما تحتها واحد.

## تعريف الحكمة:

فالحكمة على ما قيل: استكمال النفس الإنسانيّة بتحصيل ما عليه الوجود في نفسه، وما عليه الواجب ممّا ينبغي أن يكتسب تعلّمها، ليصير عالماً معقولا مضاهياً للعالم الموجود، ويستعدّ للسعادة القصوى الأُخرويّة بحسب الطاقة البشريّة.

والأسماء تختلف بحسب اختلاف طرق التعليم، فإن أدركها بزمان يسير من غير تعلّم بشري وكان مأموراً من الملأ الأعلى بإصلاح النوع الإنساني، سمّيت نبوّة مأخوذة من النبوة ـ وهو ما ارتفع من

الأرض ـ ، فمعنى النبوّة الرفعة، ومعنى النبيّ الرفيع.

وإن كان بالتعلّم والدراية، سمّيت الفلسفة في لسان اليونانيّين، والفيلسوف محبّ الحكمة، وأصله «فيلاسوفا»، و «فيلا» هو المحبّ، و «سوفا» الحكمة، وهي أُمّ الفضائل، ومعرفتها مبعدة عن الرذائل، وموصلة إلى الأوائل.

## لوازم الحكمة:

ويلزمها صفات شريفة:

أحدها: أنّها تنوّر النفس بالنور الإلهي، فيشرف على جميع المجهولات العلمية، فلا يخفى عليه شيء من المجهولات. كما يقال: «إنّ آخر درجة الحكمة أوّل درجة النبوّة».

ثانيها: أنّها تزهد في هذا العالم، وتحقّره عند النفس؛ لأنّ الزهد من الدنيا من ضرورة الحكمة، ومن لم يزهد في الدنيا ما ظفر بالحكمة، فإنّ المشتغل بأُمور الدنيا، والمتكالب على ما يقوم بحال جسده ومشتهياته، غير مستحقّ لعلم الفلسفة والتسمّي بالحكيم، ومثله كمثل من جلس بعد النبي في مجلسه للتسلّط والتسلطن، والتفوّق على الأُمّة والتحكيم، فيصير مستعدّاً للعذاب الأليم.

**ثالثها:** أنّها ترغّب في الرحلة عن هذا العالم الفاني إلى ذلك العالم الباقي؛ لأنّ الموت يطيب ويسهل على العارفين الذين قد استقاموا على طريق النجاة، وتحقّقوا أنّهم ملاقوا ربّهم، فعند ذلك يتمنّون الموت،

واللّحوق بدار السعادة، ومفارقة دار البلاء والهوان.

ورابعها: أنّها يعرف ما علّة هذا العالم وما معلوله، وما المتوسّط بين العلّة والمعلول، فعلّة العلل هو الباري تعالى، والعلل المتوسّطة هي العقول الثابتة المجرّدة، والمعلول الجسم وما يتعلّق به من الجسمانيّات، والمتوسّط بينهما النفس، فمن أدرك المتوسّط أدرك الطرفين، لكون العقل مضيئاً بالنور الأوّل تعالى لا يشوبه ظلمة وكدر أصلا.

ومعرفته في أوّل وهلة من غير متوسّط مشكل جدّاً، والجسم وقواه لا علم له ولا معرفة لكثرة القشور والأدناس، فبقيت النفس متوسّطة في أُفقها، ولكن كلّما كانت أشرق قلّ قشورها، وكثر ضياؤها، فتيسّر لها بقوّة نورها إدارك الطرفين، ومعرفة الجانبين.

ومن هذا لما سُئِل المعلّم الأوّل أرسطاطاليس: كيف تَعمى النفس عن معرفة نفسها وهي أُمّ الحكمة؟ فقال: اذا غابت الحكمة عن النفس عميت عن نفسها وغيرها، كما يعمى البصر عن نفسه وغيره إذا غاب عنه المصباح.

ومن كلامه أيضاً: «انّ العقل الذي هو السيّد يوجد في النفس كثيراً والنفس متّصلة به، إلاّ أن يتعدّى حدودها، ويرتدّ عن رقيها، فإذا فارقته كان ذلك هو موتها وفسادها، فإذا اتّصلت به يصير كأنّهما شيءٌ واحد حيث بحياة دائمة».

وما أحسن ما قال بعض الحكماء: «إنّ العلوم كلّها في النفس بالقوّة، فإذا عرفت ذاتها صارت العلوم كلّها بالفعل».

فالنفس العاقلة في العالم الصغير ـ الذي هو الإنسان ـ بمنزلة النبي في الإنسان الكبير ـ الذي هو العالَم ـ إلاّ أنّ العقل لا يهتدي إلى الأحكام إلاّ بمعاونة ضوابط الشرايع، فإنّ معرفة كثير من الجزئيات أو حلّها بحيث يجب الاحتراز عن الأولى دون الثانية، لا يعرفه العقل ولا سبيل له إلى معرفته بدون الشرع، كما في كثير من الجزئيات المعلومة بالشرع، كالمنع من وطء الحائض وجوازه في المستحاضة، واختلاف العدّة وأمثال ذلك ممّا يطول تعدّده، أنّى للعقل أن يدركه فإنّه إنّما يوصل به إلى كليّات الأمور دون جزئيّاتها، والشرع يحكم على الكليّات والجزئيّات.

فعلم أنّ بالشرع حصلت الاعتقادات، واستقامة الأحوال بين صحيحها وسقيمها، فهو الدليل على المصالح الدنيوية والأُخروية، فالضالّ عنه ضالّ عن قصد السبيل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾ [الاسراء : ١٥] فالعقل بامداد الشرع يسوق سفينة النفس عن آفات بحر الدنيا، ويوصل إلى ساحل النجاة.

### الحكمة لا تخالف الشريعة:

وقد يتوهّم أكثر الضعفاء أنّ أقوال الحكماء وحججهم مخالفة للشرايع الإلهيّة ولما جاءت به الأنبياء عليهم السلام، وليس الأمر كذلك فإنّ الحكمة الحقّة المتقنة غير مخالفة للشرايع الإلهية، وإنّما يقول بمخالفتها من لا معرفة له بتطبيق الخطابات الشرعيّة على البراهين الحكمية، ولايعرف

ذلك إلاّ من هو مؤيّد من عند الله عزّ مجده، كامل في العلوم الشرعية والحكمية، مطّلع على الأسرار النبويّة، فإنّه قد يكون الإنسان كاملا في الحكمة، ولا حظّ له من العلوم الشرعية بالعكس، ومن أحاط الجانبين، وأحرز الطرفين، وجد توافقهما وتطابقهما.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣] قيل: إنّ الفضل هو العقل، والرحمة هو الشرع، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلا﴾ إشارةً إلى أنّ هناك طائفة هم الصفوة والخيار من البريّة ليس من شأنهم اتّباع الشيطان باعتبار الاصطفاء والاختيار، ولولا هم لما كانت الأكوان ولا دارت الأدوار.

والمرويّ أنّ مولانا موسى بن جعفر عليه السلام قال لهشام بن الحكم: «يا هشام إنّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرية وحجّة باطنية، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأمّا الباطنية فالعقول»[1].

فبان أنّ درجة الحكمة منحة، ولا مرتبة في المعاد عنده تعالى للجاهل بها، والقرآن العزيز وأحاديث أصحاب العصمة سلام الله عليهم وكلمات أساطين أهل الولاية مشحونة بمدحها.

### الأمر بتحصيل الحكمة:

والحكيم المطلق هو الله تعالى، وكلّ من أدرك من المعقولات

---

(١) البحار ١ : ١٣٧ ح٣٠.

نصيباً سمّي على سبيل التجوّز حكيماً لدنوّه من الله تعالى وتشبّهه به، وقربه منه بالادراك والعلم الذي هو صفته تعالى شأنه بالقرب المعنوي والدنوّ الإدراكي، فإذا كانت السعادة الأبديّة هو القرب منه، ومشاهدة جلاله ومعاينة كبريائه، وذلك لا يحصل ولا يتيسّر إلاّ بالحكمة، فلاشيء أعظم ولا أتمّ فائدة منها.

وقد أمر أمير المؤمنين علي عليه السلام بتعلّم الحكمة أين وجدت، ولو من المنافقين بقوله: «خذ الحكمة أنّى كانت، فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتّى تخرج فتسكن إلى صاحبها في صدر المؤمن»(١). وقال أيضاً: «الحكمة ضالّة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق»(٢).

كنّى عليه السلام بتلجلجها عن اضطرابها وعدم ثباتها في صدر المنافق، وكونه ليس مطيّةً لها، فهي غير مستقرّة فيه إلى أن تخرج إلى مطيّتها، وهي صدر المؤمن فتسكن إلى صاحبها، فيجب على المؤمن أخذها من مطيّته، وإخراجها من غير أهلها، فإنّ الحكمة تفسد عند غير أهلها كما تقلب السبخة طيب البذر إلى العفن.

ومن هنا ورد في كلامه عليه السلام: «إنّ كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داءً»(٣). وذلك لقوّة اعتقاد الخلق فيهم،

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم ٧٩؛ عنه البحار ٢ : ٩٩ ح٥٦.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم ٨٠؛ عنه البحار ٢ : ٩٩ ح٥٧.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم ٢٦٥؛ عنه البحار ٢ : ٩٩ ح٥٥.

وشدّة قبولهم لما يقولونه، فإن كان حقّاً كان دواءً من الجهل، وإن كان باطلا وجب للخلق علاج داء الجهل.

روى الشيخ الكليني طاب ثراه عن مولانا أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنّه قال: «قام عيسى بن مريم عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تحدّثوا الجهّال بالحكمة فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تعينوا الظالم على ظلمه فيبطل فضلكم»(١).

ومازال الحكماء والسلاّك يوصون تلاميذهم بكتمان العلم، وصيانة الحكمة عن غير المستوجبين، ويوجبون عليهم بذل ذلك إلى المستعدّين وأهل الاستيهال.

قال بعض الأعاظم من علمائنا: إنّ الحكمة سداها ولحمتها نفض غشاوة الوهم، ورفض كورة الطبيعة، والاستضاءة بأضواء عالم القدس، ومن ليست تلك شاكلته فهو في سبيل العلم كالأكمه في ساحة الأرض، أو كالزمن في أن يكون قيحاً.

### آداب الحكيم:

فينبغي لمن أراد الشروع في الحكمة أن يكون على ما نصّ عليه معلّم الصناعة (الشيخ الفارابي): «شاباً صحيح المزاج، متأدّباً بآداب الأخيار، وقد تعلّم القرآن وعلوم الشرع واللغة أوّلا، ويكون عفيفاً

---

(١) الكافي ١ : ٤٢ ح٤؛ والبحار ٢ : ٦٦ ح٨.

صدوقاً، معرضاً عن الفسق والفجور والغدر، والخيانة والمكر والحيلة.

ويكون فارغ البال من مصالح معاشه، مقبلا على أداء الوظائف الشرعيّة، غير مخلّ بركن من أركانها، ولا بأدب من آدابها، معظماً للعلم والعلماء، ولا يكون لشيء عنده قدراً إلاّ العلم وأهله، ولا يتّخذ علمه لأجل الحرفة، ومن كان بخلاف ذلك فهو حكيم زور ولا يعدّ من الحكماء».

## الحكمة العلميّة والعمليّة:

ولّما كانت السعادة هي المطلوبة لذاتها، وإنّما يكدح الإنسان لنيلها والوصول إليها، وهي لا تنال إلاّ بالحكمة الحقّة، فالحكمة امّا ليُعلَم بها وامّا ليُعمَل بها، فانقسمت الحكمة حينئذ إلى قسمين: علمي وعملي. والقسم العملي هو عمل الخير، والقسم العلمي هو علم الحق، والقسمان ممّا يوصل إليهما بالعقل الكامل والرأي الراجح.

وأكثر الأنبياء عليهم السلام أُيّدوا بامداد روحانيّة لتقرير القسم العملي، وبطرف ما من القسم العلمي.

فغاية الحكيم هو أن يتجلّى لعقله أصل الكون، ويتشبّهه بإله الحق بغاية الامكان، وغاية النبيّ أن يتجلّى له نظام الكون، فيقدّر على ذلك مصالح العامة حتّى يبقى نظام الكون وتنتظم أُمور بني آدم.

قال الحكيم المهرجاني من حكماء إخوان الصفا: «إنّ الشريعة طبّ المرضاء، والفلسفة طبّ الأصحاء، والأنبياء يطبّبون المرضى حتّى

لا يتزايد مرضهم، ويزول المرض بالعافية فقط، وأمّا الفلاسفة فإنّهم يحفظون الصحة على أصحابها حتّى لا يعتريهم مرض أصلا».

أقول: الظاهر أنّ حفظ الصحّة أسهل من مداواة المرض؛ لأنّ حفظ الحاصل واستدامته أسهل من تحصيل الزائل واسترداده، فإنّ الطبيب الجسماني لا يحتاج في حفظ الصحّة إلاّ إلى سبب واحد، وأمّا في مداواة المرض فإنّه يحتاج إلى تحصيل أسباب متعدّدة.

وما هو موقوف على سبب أسهل ممّا هو موقوف على أسباب متعدّدة، وإنّ المخاطرة في المرض أشدّ؛ لأنّ خطر المرض الموت وخطر الصحّة المرض، فالاحتياج إلى إزالة المرض أشد، وعموم الناس اليه أحوج. فبان أنّ المزيل للأمراض الروحانية هو المفيض للحياة الدائمة.

***

## تذليل القلب بذكر الموت:

قوله عليه السلام: «وَذَلِّلْـهُ بِذِكْرِ الْـمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْـفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا».

وتذليله بذكر الموت: هو كفّه عن غلوائه في مظانّ الغرور ومواقع الخيلاء.

وتذكيره بالفناء: بإعلامه أنّ الإنسان في منصرم أمره، ومنتهى عمره لابدّ أن يلاقي أجله المحتوم له، فهنالك منقطع حياته وعمله وأمله

وإن بلغ من الكبر عتيّاً، ومن طول البقاء أمراً قصيّاً، وحينئذ فلا التكبّر يجديه، ولا المطامع تنفعه، ولا الآمال تنجعه، ويعود هو وجشعه ونهمته كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

وتبصيره بفجائع الدنيا: هو حمله على النظر في تلكم الكوارث والمحن بنظر الاعتبار، ولفت نظره إلى أنّه ليس من مخبأ عن تلكم الفجائع، ولا من منجا عن إصابتها دون من أصابته من الغابرين، وبطبع الحال أنّ «حكم الأمثال في ما يجوز وفي ما لا يجوز واحد» وبهذا يعلم المغزى.

***

## تحذير القلب:

قوله عليه السلام : «وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ».

فإنّ من الأُصول الموضوعة أنّ الزمان ليس من المشخَّصات، وأنّ من الممكن التشابه في أجزاء الدهر، وما أصاب السابقين إن كانت عقوبة على ذنب فليحذر الإنسان عن اقتراف مثله، وإن كانت بلاءً حسناً يستوجب عليها الأجر فليسأل المولى سبحانه أن يجزل أجره بغير هاتيك الشدائد.

وفي تذكيره بأخبار الماضين، وبما أصاب من قبله من الأوّلين عظات بالغة وعبر، فلينظر الإنسان كيف طوت أُولئك صروف الدهر وطحنتهم فجائع الأيام، وفي غالب الظنّ أنّه سيمضي لدة أُولئك النفر،

فليبتهل إلى ربّه أن يكفّ عنه الأسواء والسيّئات، ويكفه عن المآثم والموبقات الموجبة لمشارفة الملمّات الوبيلة.

***

### التدبّر في آثار الماضين:

قوله عليه السلام: «وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدْهُمُ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دارَ الْـغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيل قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ».

والسير في ديارهم: أعمّ من الحلّ والترحال في مرابض الأقوام المذكورين، ومن سِيَرِ أخبارهم والنظر في أعمالهم السيئة والحسنة، وتحرّي الحسن ممّا جاؤوا به، ورفض القبيح ممّا اجترحوه حتّى يبلغ في سيره إلى مستوى الصلاح، متنكّباً عن قاعة السوء، ومقيل الأهواء والشهوات.

والنظر في ما ارتحلوا عنه: إشارةً إلى الموت الذي لابدّ منه في منصرم الحياة، وأنّه لا خلود للانسان فيطيل معه الأمل أو يتسامح في العمل، فهنا يعرف الإنسان أنّهم ما انتقلوا إلاّ عن الأحبّة، وعن أُنس الديار المألوفة، وبهجة الحياة المونقة، إلى وحشة المقابر والأجداث، وممارسة الديدان والحشرات، ومحاولة الغربة والكربة.

فمن واجب الإنسان أن يتّخذ من العمل الصالح مصباحاً لذلك المنفى المظلم، ومؤنساً لذاك المعهد الوعر الموحش؛ لأنّه قال عليه السلام: عن قريب يصير كأحدهم فيصيبه ما أصابهم، فليكن غالب جهده في أن لا تصيبه إلاّ السعادة والخير، وتكون الصالحات جنّة له عن شقاء المقتبل، فليصلح مثواه ولا يبع آخرته بدنياه.

***

## الاحتياط في القول والعمل:

قوله عليه السلام: «وَدَعِ الْـقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِف، وَالْـخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيق إِذَا خِفْتَ ضَلاَلَتَهُ فَإِنَّ الْـكَفَّ عِنْدَ حِيرَةَ الضَّلاَلِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ».

وترك القول فيما لا يعرف يصون الإنسان عن مزلاّت الجهل، ومغبّات الخطأ التي يتدهور إليها الإنسان من حيث لا يشعر متى رمى القول على عواهنه، ولهج بما لا يتقنه من الكلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه: «كيف بك اذا بقيت في حثالة من الناس، مَرِجتْ عهودهم وأماناتهم، وصاروا هكذا، وشبّك بين أصابعه؟ قال: فقلت: مُرني يا رسول الله، فقال: خُذ ما تعرف، ودَع ما لا تعرف، وعليك بجويضة نفسك»(١).

(١) كنز العمال ١١ : ٢١٢ ح٣١٢٧٠.

ومثله التدخّل فيما لايُعنى الإنسان به حذراً من أن يصيبه المكروه من جرّاء ما ليس بصالحه، من قول أو عمل. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١) من جهة أنّ التكلّم فيما لا يعني المرء ممّا لا فائدة فيه أصلا، لا في الدين ولا في الدنيا على أنّه مذموم شرعاً، وقد وردت في ذمّه أخبار كثيرة، والسرّ في ذلك أنّه ربّما أدّى إلى الكذب بالزيادة والنقصان.

فقد ورد أنّه استشهد يوم أُحد غلام من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، ووجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أُمّه التراب من وجهه، وقالت: هنيئاً لك الجنّة يا بني، فقال النبي صلى الله عليه وآله: وما يدريك لعلّه كان يتكلّم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضرّه(٢).

وورد أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لبعض أصحابه وهو مريض: أبشر، فقالت أُمّه: هنيئاً لك الجنّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما يدريك لعلّه قال ما لا يعنيه حوسب عليه، وإنّما تتهنّأ الجنّة لمن لا يُحاسب، ومن يتكلّم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه مباحاً فلا يتهنّأ بالجنّة مع المناقشة في الحساب فإنّه نوع من العذاب(٣).

وكما أنّ التكلّم بما لا يعني المرء مذموم، كذلك سؤاله غيره عمّا لا يعنيه مذموم، بل هو أشدّ ذماً، حتّى قال بعض أهل العرفان ـ ولعلّه

---

(١) البحار ١ : ٢١٦ ح٢٨.

(٢) الترغيب والترهيب ٣ : ٥٤١ ح٥٤.

(٣) المحجة البيضاء ٥ : ٢٠٠ / كتاب آفات اللسان.

مصيب في رأيه ـ : لو سألت غيرك عن عبادته، فتقول له: هل أنت صائم، فهو سؤال عمّا لا يعنيك، وربّما كنت مذموماً عليه محاسباً من جهته، لأنّه إذا قال لك: نعم، كان مُظهراً عبادته، فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل الرياء سقطت عبادته لا أقل من ديوان عبادة السر، وعبادة السرّ تفضل عبادة الجهر بدرجات.

وإن قال: لا، كان كاذباً، والكذب ممقوت عليه صاحبه، وإن سكت كان مستحقراً إيّاك وتأذّيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى تعب وجهد فيه، فكنت عرّضته بالسؤال، امّا للرياء أو الكذب أو للإستحقار أو التعب في حيلة الدفع.

وكذلك سؤالك عن كلّ ما يخفي الإنسان ويستحي من إظهاره، أو عمّا يحتمل أن يكون في إظهاره مانع، كأن يحدّث به أحداً غيرك فتسأله وتقول: ماذا تقول، وفيم أنتم، فإنّ جميع ذلك وأمثاله من فضول الكلام والخوض فيما لا يعني، ويتضمنّ إثماً وإيذاءً، وليس من مجرّد التكلّم بما لا يُعنيه والفضول، وإنّما مجرّد ما لا يُعنيه هو ما لا يتصوّر فيه إيذاء، وكسر خاطر واستحياء من الجواب. كما روي أنّ لقمان دخل ذات يوم على داود عليه السلام وهو يسوّي الدرع ولم يكن يراها قبل ذلك، فجعل يتعجّب ممّا يرى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته الحكمة، فأمسك نفسه ولم يسأله، فلمّا فرغ داود قام ولبسها وقال: نِعْمَ الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكمة وقليلٌ فاعله[1].

(١) المحجة البيضاء ٥ : ٢٠٣ / آفات اللسان.

فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر، وايقاع في رياء أو كذب، فهو ممّا لا يعني وتركه من حُسن الإسلام.

وقد ورد أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال ذات يوم: إنّ أوّل من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنّة، فلمّا دخل قالوا له: أُخبرنا بأوثق عملك من نفسك ترجو الله به، فقال: إنّي رجل ضعيف العمل، وأوثق ما أرجو الله به سلامة الصدر وترك ما لا يعني(١).

وقال صلى الله عليه وآله لأبي ذر: ألا أُعلّمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: هو الصمت، وحسن الخلق، وترك ما لا يعنيك(٢).

وقال صلى الله عليه وآله: طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله(٣). ولكن أُنظروا كيف قلبنا الأمر فأمسكنا فضل المال وأطلقنا فضل اللسان.

وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عمّا كفيت، ولا أتكلّف ما لا يعنيني(٤).

وقد نقل أنّ ابن عباس قال: خمس هنّ أحسن وأنفع من حُمُر النِعَم:

---

(١) المحجة البيضاء ٥ : ٢٠١ / آفات اللسان.

(٢) المحجة البيضاء ٥ : ٢٠١ / آفات اللسان.

(٣) البحار ٧٥ : ٢٩ ح٢٢.

(٤) البحار ١٣ : ٤١٧ ح١٠.

لا تتكلّم فيما لا يعنيك فإنّه فضل، ولا أؤمن عليك الوزر منه. ولا تتكلّم فيما لا يعنيك حتّى تجد له موضعاً، فإنّه رُبّ متكلّم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعبث. ولا تمار حليماً ولا سفيهاً، فإنّ الحليم يغلبك بصمته، وإنّ السفيه يؤذيك بمنطقه. واذكر أخاك إذا يغيب عنك بما تحبّ أن يذكرك به، واعفه ممّا تحبّ أن يعفيك منه. واعمل عمل رجل يرى أنّه مجازى بالاحسان مأخوذ بالجرائم(١).

❊❊❊

(١) الترغيب والترهيب ٣ : ٥٣٥ ح٣٨، والمحجة البيضاء ٥ : ٢٠١ / آفات اللسان.

## الفصل الرابع
## الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

«وَأمُرْ بِالمعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْـمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِم، وَخُضِ الْـغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْـمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْـخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْـحَقِّ! وَالْـجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْف حَرِيز، وَمَانِع عَزِيز. وَأَخْلِصْ فِي الْـمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْـعَطَاءَ وَالْـحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ الإسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ الْـقَوْلِ مَا نَفَعَ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي عِلْم لا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْم لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ».

***

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قوله عليه السلام: «وَأمُرْ بِالْـمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْـمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ».

هذان أصلان قويمان يتقوّم بهما الدين الحنيف، وتحكم بهما أُسسه ويُشاد علاه، وهما من فروض الكفاية، تعاقب الأمر بهما والحثّ عليهما في الكتاب والسنة، وقام إجماع الأُمة على وجوبهما، وتصافقت على ذلك آي الكتاب الكريم، وتواترت الأحاديث النبوية، والمأثور عن أئمة الهدى ـ صلوات الله عليهم ـ .

وهما بمنزلة القوة المجرية، والسلطة المنفذة لطقوس الإسلام ونواميسه، وهما اللذان يخضعان النفوس الجامحة، والطبايع الشرسة للإئتمار والانتهاء، ولا سيما إذا كانا مشفوعين بالارهاب حيث تستدعيه الحالة وتقتضيه الحكمة.

وأمّا كون العامل بهما من أهل المعروف، فلأنّه إن كان الأمر خاضعاً للأمر الربوبي حق الخضوع، وواعياً إيّاه حق الوعي في إلزام الناس للأوامر الإلهية، وزجرهم عن مناهي المولى، فهو نفسه أولى من غيره بأن يمضي عليها ويتمرّن بها، فإنّه مهما بلغ من التسامح وإسلاس قياد النفس، فليس يرضى لها الوقوع في الهلكة المسببة عن اقتراف المآثم، وليس هو بعدوّ نفسه لا محالة.

ومن مراتب النهي عن المنكر مباينة مرتكبيه بكلّ ما يملكه الناهي

ويسعه من حول وطول، بيده ولسانه والاعراض عنه، والتظاهر بالاشمئزاز مما يرتكبه، وجعل العراقيل دون سيره الوبيل.

## فعل المعروف والأمر بالمعروف:

المعروف إسم جامع لكل فعل يعرف حسنه بالعقل والشرع. المعروف إسم جامع لما عرف من طاعة الله سبحانه والاحسان إلى الناس في الواجب المندوب. المعروف ضدّ المنكر في معناه ومصداقه، والتباين بين المنكر والمعروف بنحو السلب الكلي من الطرفين، فلا شيء من المنكر بمعروف، ولا شيء من المعروف بمنكر.

المعروف صفة شريفة معروفة، المنكر صفة رديئة منكرة، يختص المعروف بالأفعال الواجبة والمندوبة شرعاً وعقلا، ولا يدخل فعل المباحات شرعاً وعقلا في فعل المعروف، لأنّه خلو من الرجحان، وما لا رجحان فيه لا خير فيه، والمعروف كله خير.

ويختصّ المنكر بالمحرّمات شرعاً وعقلاً، فكلّ ما منع الشرع العقل من فعله ففعله منكر، وأما ما منع منه الشرع والعقل على نحو التنزيه عن فعله بدون إلزام بالمنع ـ وهو المكروه ـ ، فلا ريب في خروجه عن دائرة المعروف، وهو أشدّ خروجاً من المباح، المباح لا يدخل في المنكر، وأما المكروه فربما كان بعض المكروهات من المنكرات إذا تكرّر فعله.

يمتاز أهل المعروف بمعروفهم، ولهم مكانة معروفة، وفي الحديث الشريف «من بذل معروفه آتاه الله جزاء معروفه» وفيه «أهل المعروف في

الدنيا أهل المعروف في الآخرة»[1]. ومعناه أن أهل المعروف في الدنيا يصنعون المعروف في الآخرة، أو أنّهم معروفون في الآخرة.

وفي حديث ابن عباس قال: «يأتي أهل المعروف يوم القيامة فيُغفر لهم لمعروفهم، وتبقى حسناتهم تامّة فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته، فيُغفر لهم فيدخلون الجنّة، فيجتمع لهم الاحسان إلى الناس في الدنيا والآخرة»[2].

هذا الحديث ينطبق على الأولياء والنقباء، وأهل الاخلاص في ذات الله، الذين بذلوا أنفسهم وما لديهم في مرضاة الله سبحانه.

وفي الحديث «ليس شيء أفضل من المعروف الاّ ثوابه» وفي الحديث: «ليس كلّ من يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، وليس كلّ من يرغب فيه يقدر عليه، ولا كلّ من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والاذن، تمّت السعادة للطالب والمطلوب إليه»[3]. وفي هذا الحديث دلالة على أن الأعمال الخيرية تحتاج إلى التوفيق من الله سبحانه بعد الرغبة والقدرة.

وفي الحديث «صنائع المعروف تدفع ميتة السوء، وتقي مصارع الهوان»[4]. وهذا يدلّ على أنّ فعل الاحسان إلى الناس والرفق بهم، سبب للوقاية من موارد الذلّ والهوان.

---

(١) البحار ٧٤ : ٤١٢ ح٢٥؛ وكنز العمال ٣ : ٤٠٧ ح٧١٧٠.

(٢) كنز العمال ٦ : ٥٨٠ ح١٦٩٩٨ نحوه.

(٣) البحار ٧٤ : ٤١٤ ح٣١.

(٤) البحار ٩٦ : ١٧٧ ح٩.

### إنّ من المعروف الأمر بالمعروف:

لا نرتاب بأنّ الأمر بالمعروف من أهله في محله ربما كان أعظم من فعل المعروف، لأنّ فيه حفظ النظام بين أفراد النوع الإنساني على ما ذكرنا، وبه إكتساب الفضائل الدينية والعقلية، وإزالة الأخلاق الفاسدة، والعمل بما فيه الحياة في الدارين.

ولا أراك تشك بأن التهذيب والتعليم والالزام لشخص بما فيه ظهور كماله، وجميل صنعه، وحسن سيرته خير له من إعطائه ألف دينار يتنعم بها في معاشه مع تلوثه بأقذار المفاسد، وتدهوره في هوّة الجهالة.

### وجوب الأمر بالمعروف وشروطه:

الأمر بالمعروف وفعل المعروف واجبان بحكم العقل والشرع وجوباً كفائياً على كافة العقلاء، ولا شرط لوجوب فعل المعروف سوى القدرة عليه، إن تأثير الأمر بالمعروف له شروط يتوقف تحريك خطابه للمكلّفين عليها:

الأول: القدرة على الأمر بالمعروف، وغير القادر لا يجب عليه.

الثاني: العلم أو الظن أو إحتمال التأثير فيمن يأمره بالمعروف.

الثالث: أن يكون الآمر بالمعروف عاملا به، وإلاّ لم يكن أهلا لأن يأمر به لأن «فاقد الشيء لا يعطيه»، نعم فاقد الشيء لا يعطيه، إذ كل شيء تتصوّره وترى أنك تفقده يستحيل أن تعطيه لمن يطلبه منك، فالمرتكب للمنكر نجد من المنكر نهيه عنه، فضلا عن كونه لا يؤثّر نهيه

بأحد، والتارك للفعل الحسن مع قدرته عليه لا يحسن منه أن يأمر به ولا يؤثّر أمره بأحد، كلّ ذلك لأنّ «فاقد الشيء لا يعطيه».

جاء النص في القانون الإسلامي على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْـخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْـمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْـمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْـمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

دلّت هذه الآية الشريفة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصرّحت بانحصار الفلاح فيمن قام بهما، والعقل يحكم بلزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للنظام، وسدّاً لأبواب الفساد.

ومن ظاهر الآية عرفنا أن الوجوب كفائي حيث قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ ولو كان الوجوب عينياً لكن الخطاب بغير هذا البيان.

وقال سبحانه في صفة من آمن بالله حقيقة الايمان: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْـيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْـمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْـمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الْـخَيْراتِ وَأُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]. قرن إيمانهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تنبيهاً على أهمية وجوبهما وأثرهما.

قال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمّد ﷺ: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه»[1].

---

(١) كنز العمال ٣ : ٧٥ ح٥٥٦٤.

وقال ﷺ حين سئل عن خير الناس قال: «آمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم وأرضاهم»[1].

وقال ﷺ: «لتأمرنّ بالمعروف وتنهونّ عن المنكر أو ليسلّطنّ الله عليكم سلطاناً ظالماً، لا يجلّ كبيركم، ولا يرحم صغيركم، وتدعوا خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تُنصرون، وتستغيثون فلا تُغاثون»[2].

وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمان لئن يكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر»[3].

أعاذنا الله من بلاء ذلك الزمان، ووفقنا لفعل المعروف والأمر به، وترك المنكر والنهي عنه.

***

**الجهاد في الله:**

قوله عليه السلام: «وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ».

الجهاد هو تحمّل الجهود الجبّارة لنصرة الدين، سواءً كان ذلك

---

(١) كنز العمال ٣ : ٦٨٩ ح٨٤٧٤ .

(٢) احياء العلوم ٢ : ٢٨٧ / في الأمر بالمعروف ...

(٣) احياء العلوم ٢ : ٢٨٧ / في الأمر بالمعروف ...

بالانضواء إلى راية الحق والمناضلة بالآلات الحربية حسب ما تقتضيه الظروف الحاضرة، من غير جمود على كونه بالسيف والسنان، فمن مصاديقه القتال بالبنادق والمدافع، وفي البوارج وعلى الطائرات على حدّ قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْـخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فإعداد القوى والإرهاب يشملان كل هاتيك، ورباط الخيل لا غنى عنه في ساحة الحرب في أغلب صورها، وسواء كان بالقلم واكتساح معرَّة الشكوك والشبهات، وتفنيد ورطات المرجفين بالاسلام، كما في الكتب المؤلّفة والكلم المنشورة على الصحف، والدعاوات المبثوثة على صهوات الأعواد.

وبما أنّ هذا الجهاد قد تحفّ به لائمة من مناوئ، أو مخاطرة من مُدافع، طفق الإمام يوصي ولده البار بعدم الاكتراث بشيء من ذلك، فإنّ تثبيت الحقّ أهمّ من التحفّظ على البقيا وجمام النفس، أو التفصّي عن لومة اللوائم.

### الجهاد في سبيل الله:

خلق الله تعالى الإنسان وأودع فيه قوّتين مختلفتين، احداهما: نزّاعة إلى الشر، أمارة بالسوء، والأُخرى: نزّاعة إلى الخير ميّالة للعدل، محبّة للقرب من الله تعالى، توّاقة للوصول إليه.

وقد اقتضت حكمته عزّ وجلّ ـ رحمة للإنسان وإرادة لسعادته

وكماله ـ أن يشرفه بالتكليف، وهو عبارة عن جهاد ونضال بين هاتين القوّتين المتخالفتين في المنازع والأغراض، جهاد لا نهاية له إلاّ بانتهاء الحياة وافتراق البدن والروح.

فالانسان ما وجد في هذه الحياة الدنيا إلاّ للمجاهدة والكفاح في ميادينها الواسعة النطاق، المترامية الأطراف، وعلى قدر جهاده وكفاحه تكون منزلته من الله تعالى ومقامه عنده، ويكون ترقيه في مقامات الرفعة والكمال.

ومن كلمات الصوفية في هذا المقام: «من زيّن ظاهره بالمجاهدة زيّن الله باطنه بأنوار اليقين، ومن كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة».

يريدون أنّ كمال المعرفة واشراق القلب بنور اليقين لا يكون مع التكاسل والتخاذل، بل لابدّ من المجاهدة والمكابدة، وإماتة صفات النفس المذمومة، واستبدال الأخلاق الفاضلة بها، وليس يعجز الله تعالى أن يمنح الكمال بلا مشقّة، ويكرم عبده بدون جهاد ولا تكليف، ولكن هكذا سبق في علمه القديم، وتقديره الحكيم أنّ لكلّ شيء سبباً، فالفوائد في طيّ الشدائد، والعطايا على متن البلايا.

والله تعالى أحكم الحاكمين ناط السعادة بالجد، والمثوبة بالعمل الصالح إظهاراً لحكمته، وإشعاراً بجلال ربوبيّته ﴿ تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْـمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْـمَوْتَ وَالْـحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْـعَزِيزُ الْـغَفُورُ﴾ [الملك : ٢ـ١].

## أنواع الجهاد:

والجهاد لا يكون إلاّ بين خصمين متنازعين، وعدوّين متشاحنين، وأنواعه ثلاثة:

١ ـ جهاد النفس والشيطان.

٢ ـ جهاد المتهاونين في الدين وفي أحكامه وتعاليمه.

٣ ـ جهاد أعداء الدين المخالفين لنا في العقيدة.

أما النوع الأول جهاد النفس والشيطان، فهو الجهاد الأكبر لأنّه جهاد مع عدو باطن يراك ولا تراه، شديد المكر، عظيم الحيلة، ملازم لك في الليل والنهار، في النوم واليقظة، والحركة والسكون، يجري منك مجرى الدم في العروق، ومن أجل ذلك جعل الرسول الأعظم ﷺ جهاد النفس من أعظم درجات الجهاد فيما روي من قوله: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه»[١].

وفي رواية «أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله»[٢].

وفي حديث آخر «المجاهد من جاهد نفسه»[٣].

بل لقد سمّى الرسول ﷺ جهاد الكفار جهاداً أصغر في جانب جهاد النفس حيث قال: «قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر

---

(١) كنز العمال ٤ : ٤٣٠ ح١١٢٦٢.

(٢) كنز العمال ٤ : ٤٣ ح١١٢٦٥.

(٣) الوسائل ١١ : ١٢٤ ح١٠.

إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه»[1].

ومرجع هذا الجهاد إلى تخلية النفس من أوصافها الذميمة كالحقد والحسد، والكبر والعجب، والرياء والبخل، والطمع والحرص، وما إلى ذلك من الأمراض الباطنية المهلكة، وتحليتها بالأخلاق الفاضلة الكريمة.

والنوع الثاني من أنواع الجهاد هو الجهاد مع إخواننا في الدين، المشتركين معنا في الانتماء إليه، ولكن فَتَنَتهم الدنيا بمناظرها الجذّابة، ومظاهرها الخلاّبة، حتّى أصبحوا أُسارى بأيدي الشهوات، سكارى بمحبة اللذات، تساهلوا في تطبيق أحكام الدين والعمل بأوامره ونواهيه، من غير جحود ولا إنكار.

وهذا الضرب من الجهاد، هو عبارة عن التصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اشتدّ مسيس الحاجة إليه في الآونة الحاضرة لما انتشر فينا من القبائح والزور، ولما فشا بيننا من التفريط والاهمال، مع أنّه أساس حياة الأُمّة وبدونه لا تتوفر لها سعادة ولا هناء، كما صرحت الأحاديث الشريفة.

كقوله صلى الله عليه وآله: «من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان».

وقال أيضاً: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان

---

(١) كنز العمال ٤ : ٤٣٠ ح١١٢٦٠.

الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

والقائم في حدود الله معناه المنكِر لها، القائم في دفعها وازالتها، والمراد بالحدود ما نهى الله عنه، ومعنى استهموا اقترعوا.

والنوع الثالث من الجهاد هو جهاد مخالفينا في العقيدة والدين، فمحصّله: القيام بالدعاية الدينية المنظَّمة، والمجادلة بالتي هي أحسن، الخالية من الشدة والعنف، وعندنا أنّ هذا النوع من الجهاد متى نُظّم وأُحكمت وسائله فإنّه يأتي بأحسن النتائج وأطيب الثمرات.

وقد رسم لنا رسول الله صلى الله عليه وآله خطّته بما قام به في أُخريات حياته المباركة من إرسال البعوث والرسائل إلى القبائل والنواحي لنشر الدين، وتبليغ أحكامه وآدابه.

هذا، والجهاد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْـمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] معناه شامل لهذه الأنواع الثلاثة من الجهاد، أي جاهدوا النفس والهوى والشيطان، وجاهدوا كل خارج على الدين أُصوله وفروعه على الطريقة التي سار عليها رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي طريقة واضحة جليّة لا لبس فيها ولا ايهام، سداها ولحمتها الاخلاص لله تعالى والتفاني في محبته، والاعتماد عليه مع الثبات على الحق وعدم المساومة فيه، أو الانخداع عنه بالحيل المموّهة.

***

قوله عليه السلام: «وَخُضِ الْـغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ».

يريد ـ صلوات الله عليه ـ تأكيد مسألة الجهاد بالتفاني دونه ولومع الاستماتة، والتهيّؤ لاصابة الشدائد والأهوال، فلا تذهب بالقارئ الظنون إلى أنّ للجهاد أمداً محدوداً، ومنصرماً حيث تصادمه الأضرار، فهناك تتعلّل النفوس الخائرة بسقوط التكليف، وأما النفوس القويّة ذوات الايمان الكامل فلا يزالون يمضون قدماً إلى إنقاذ الحق وتحقيقه وتثبيته، ولو باسالة النفوس كما سبق إلى ذلك الشهداء الصالحون، كل ذلك حيث يجدي التفاني نفعاً يبقى معه التكليف.

واما النطاح حيث لا قبل للإنسان به فمن التكليف بما لا يطاق، إلاّ أن يكون بقتل الإنسان وإبادته في حد نفسه أثر مرموق إليه مرغوب فيه، كما جاء به إمام الهدى وسيد الشهداء الحسين عليه السلام، فقتل هو وآله وذووه وصحبه ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ .

***

## التفقه في الدين:

قوله عليه السلام: «وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ».

التفقّه في الدين هو أقصى ما يراد من أيّ ابن أنثى، فهو الغاية في الخلقة، وأبهج حُلّة للإنسان الكامل، وكان الإمام الصادق عليه السلام يتمنّى أن تكون السياط على رؤوس أصحابه حتّى يتفقّهوا في الدين[1]. وفي

(١) الكافي ١ : ٣١ ح٨.

أخبار الإمام الحجة ـ عجل الله تعالى فرجه ـ انّه يقتل من بلغ العشرين ولم يتفقّه في الدين(١).

ومراتب التفقه مقولة بالتشكيك، فيصدق على من ألَمَّ بتعلّم الفتاوى المجرّدة فحسب للعمل بها، فهو أول واجب للمكلَّف، وهو مناط صحة العبادة، وعلى من تطلَّبها بتدبّر في المبادئ والغايات، كما هو وظيفة العارفين والأفاضل، وعلى من حصَّل عليها عن استنباط في الأدّلة، وهو سُنّة المجتهدين،ولهم تدرّج في مراتب العلم والعمل، ففاضل وأفضل، وكلّ منهم فقيه في ذاته وإن تفاوتت الفضيلة المقسطة بينهم على حسب مراتبهم في الفقاهة، ولا يكلّف صاحب المرتبة الدانية بما تحلّى به صاحب المرتبة العالية، ولا يُقتنع من الأفضل بما يقتنع به من الأحسن، فالحجة عليه أتم، والتكليف عليه أعظم.

والغرض المقصود من الفقه حفظ «الدين» بالعبادات، و «النفس» بشرع القصاص والديات، و «العقل» بحظر ما يزيله من المسكرات، و «النسب» بالمناكح والمواليد، و «المال» بالمعاملات والمداينات، و «الكل» بالسياسيّات كالحدود والتعزيرات والقضاء والشهادات.

### الصبر على المكاره:

**قوله عليه السلام: «وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْـمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْـخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْـحَقِّ!».**

---

(١) اعلام الورى : ٤٤٥، عن البحار ٥٢ : ٣٨١، في التذييل.

## فضيلة الصبر:

التصبّر هو الحجر الأساسي للملكات الفاضلة كلّها، فإنّه اما أن يكون على الطاعة أو عن المعصية، فإن كان تحمّلا على جهود الطاعة ففيه أنواع العبادات البدنية، وإن كان جَلَداً على بثّ الثراء فمن العبادات المالية، وإن كان تحمّلا على وعثاء السفر وضرب آباط الإبل، فهو المرغبات التي تكون في الضرب في الأرض كالحج والأسفار المشروعة كلها.

وإن كان صبراً على مضاضة الحروب، وعضّ السلاح والمخاطرة بالنفس، ومعاناة الجروح الدامية، ومقاسات الحبوس والمشانق والأسر، فتلك فضيلة الجهاد، وقد يكون بمكافحة النفس، وكسر سورة الغضب، وكظم الغيظ الثائر، فذلك الحلم الذي رغب فيه العقل والشرع.

ولن تجد في الصفات الفاضلة صفة تلازم مخالفة النفس، أو السير في سفر الطاعة إلاّ ولها أتمّ صلة بالصبر أو ابتناء عليه، ولذلك تطابق الكتاب والسنة على الحثّ به، والترغيب فيه والدعوة إليه، فهو جماع الفضائل، وأصل تفرّعت منه فروع البر والاحسان، وأسس بنيت عليها قواعد الطاعة والايمان.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصبر نصف الايمان، واليقين الايمان كله ولن يفترقا»[1]. واليقين هو المعرفة بالله عزّ وجلّ الباعثة على طاعته، والصبر هو العمل بمقتضى المعرفة التي تحمله على الطاعة وإن شقت،

---

(١) كنز العمال ٣ : ٢٧١ ح٦٤٩٨ .

وتصرفه عن المعصية وإن عذبت ولذت.

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فلا خير في إيمان لا صبر معه كما لا خير في جسد لا رأس معه»[1].

وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل النبي صلى الله عليه وآله على الأنصار، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال أحدهم: نعم يا رسول الله، قال: فما علامة ايمانكم؟ فقال: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة[2].

وقال ابن عباس: «أفضل العدة الصبر عند الشدة» لما في ذلك من محمود العاقبة في العاجل والآجل.

وأكثر الناس يصبرون ولكنّهم لا يستحقّون اسم الصبر، لأنّ الصابر على الحقيقة لا يشك أن الذي يصيبه من المصائب، وينزل به من الحوادث هو خير له، لعلمه بحسن لطف الله تعالى به وجميل صنعه له، كمثل غارس الجنة الذي لا يزال يجيد عمارتها، ويوالي سقيها، ودفع الضر عنها، وهو مع ذلك يتعهّدها بتقليم أغصانها ، وتعريتها من بعض أوراقها لما يعلم في ذلك من المنفعة لها، ويرجوه من دفع المضرّة عنها.

فلو علم ابن آدم لطف الله تعالى به، وميّز جميل صنعه فيه، وعرف

---

(١) نهج البلاغة : قصار الحكم ٨٢.

(٢) احياء العلوم ٤ : ٦١ في فضيلة الصبر، المحجة البيضاء ٧ : ١٠٧.

حسن تدبيره له لأيقن رفقه، ووفى الصبر حقه، وعلم النعمة في المنع هي النعمة الطائلة الدائمة، وأنّ النعمة في الاعطاء والاتساع في أحوال الدنيا ربما كان مؤدّياً إلى منع نعيم الأخرى، ألا ترى إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ [العلق : ٦-٧].

وقال لقمان لابنه: «يا بني الذهب يجرب بالنار، والعبد الصالح يجرب بالبلاء»(١).

وقال الفضل بن عيّاض: «إن الله ليتعهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعهّد الرجل أهله بالخير»(٢).

ولولا أنّ في حلول الكوارث ونزول الحوادث تخفيفاً من الأوزار، وحطّاً من الذنوب، ومحواً من السيئات ما استطعنا عليها صبراً، ولولا أنّ في موافقة اللذات، ومقارفة الشهوات أنواعاً من المكاره وأصنافاً من الشدائد ما وجدنا عنها صبراً، ولكثر إليها إسراعنا، وقلّ عنها امتناعنا.

لا جرم أنّ جميع خلال الخير، وخصال البر، وأحوال الطاعة، وما جعل الله في الإنسان من حسن الشيم، وكرم الأخلاق، وأسباب الديانة، ودواعي الايمان إنّما هي كلّها مرتبطة بالصبر، وراجعة إلى الصبر، ومحمولة على الصبر، وجارية مع الصبر كيفما تأملتها، وعلى أيّ حال تدبرتها، فإنّه قطب تدور عليه جميع الأفعال المحمودة.

---

(١) احياء العلوم ٤ : ١٢٧ / الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر.

(٢) احياء العلوم ٤ : ١٢٧ / الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر.

ألا ترى أنّ الكرم صبر على مفارقة المال وعلى حبه، وأنّ العدل صبر على إمضاء الحكم وإن شقّ، وأنّ الصدق صبر فربما خالطه شوائب تكره، وانّ الحلم جامع لأشتات الصبر.

والأخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه وأجره أكثر من أن تحصى، فينبغي للمرء أن يتدرّع به، ويروض نفسه منذ زمن الحداثة عليه.

## أقسام الصبر:

والصبر في أصل معناه اللغوي الحبس، وهو باعتبار متعلّقه ينقسم ثلاثة أقسام: (الصبر عن...) (والصبر على...) (والصبر في...):

فالأول: حبس النفس عن فعل السوء والشر، ودواعي الهوى والشهوة، وكلّ ما يمسّ كرامه الإنسان، ويشوّه سمعته.

والثاني: الصبر على المكروه والألم، وتحمّل الرزايا والمصائب، وكل ما يقلق الراحة، وينغص العيش، ومن ذلك الصبر على ما يفوت الإنسان من المآرب والحظوظ الدنيوية.

والثالث: الصبر في مواطن الخوف والذعر، بل في مواطن الخطر أحياناً دفاعاً عن حق، أو حماية لمصلحة، أو وقاية لعرض وشرف، وهذا النوع من الصبر يسمّى الشجاعة والإقدام، فالشجاعة إذ ذاك ضرب من الصبر، قال الله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْـبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْـبَأْسِ

أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْـمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٧].

وقال بعض الحكماء: «ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب، لأنّ هذا تشاركه فيه الدابة، ولكن أن يكون للنفس غلوباً، وللخطوب حمولاً، ولجأشه عند الحفاظ مرتبطاً».

وانّ أعزّ شعوب هذا العصر، وأرفعها شأناً، وأوسعها سلطاناً هو الشعب الذي عرف من أخلاقه الصبر والثبات في مواطن الأخطار، ولدى اشتداد الأهوال، فهو يعدّ للأُمور عدّتها، ويهيّئ لها أسبابها ووسائلها، ثم يصبر صبراً بعد صبر، حتّى يحين الوقت، ويتضح الأمر، وإذ ذاك يجني ثمرته، ويجتني فائدته.

هذا الخُلُق يصح أن نسمّيه «الخلق القرآني» لكثرة ما ذكر في القرآن من التنويه به، والحضّ عليه في أكثر من سبعين آية: من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧]، ومعنى كون الصبر من عزم الأُمور أنّه مما يتأكد طلبه، وتجب على الشخص ممارسته من أُمور الأخلاق.

﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النساء : ٢٥]. ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٦].

﴿ وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة : ٢٤]. وأما الاستسلام إلى المكروه والصبر على المصيبة، والتقاعد عن دفعها بالطرق

والوسائل المشروعة الممكنة، فليس مما يرضاه الشرع ولا العقل لنا، ولايكون الصبر حينئذ صبراً محموداً، ولا خُلُقاً مشكوراً، ينزل بالمرء فقر أو ضائقة، وله عيال يتضوّرون جوعاً، وأسباب الرزق ممهدة بين يديه، فيعرض عنها ويقول: «إنّه صابر وإنّ الصبر مفتاح الفرج».

يصاب المرء بمرض مؤلم، ويكون له علاج أو دواء ناجع أو مخفف، فيتقاعد المريض عن تناول ذلك العلاج، ويقول عن نفسه: «إنّه صابر، وإنّ الصبر سلاح المؤمن».

يعتدي معتد عليك، أو يغتصب بعض حقك، ويكون في مكنتك كفّ أذاه باحدى الطرق والوسائل، لكنك لا تفعل بل تذل وتخضع، وتدّعي أنّك صابر، وأنّ الله مع الصابرين، وغير ذلك كثير من أحوال الناس وأطوارهم التي تتكرر مشاهدها تحت مواقع أبصارنا من وقت إلى آخر.

كلّ أولئك ليس من الصبر في قليل ولا كثير، ولا ينبغي أن يُقرَّظ صاحبه عليه، وإنّ استنكار ذلك وبعده عن الأخلاق ، ومنافاته للخلال الفاضلة، أمرٌ ظاهر لا يحتاج إلى استدلال، بل يكاد يكون الشعور باستنكاره أمراً بديهيّاً.

وقد مني المسلمون في أخريات أيّامهم بشيء كثير من هذا الذي يسمّونه صبراً وتوكّلاً، فساءت حالهم، ووهت عزائمهم، وكلَّت هممهم، فصاروا أُكلَة لآكل، وغرضاً لنابل.

***

**اللجوء إلى الله:**

قوله عليه السلام : «**وَأَلْـجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْف حَرِيز، وَمَانِع عَزِيز**».

إنّ في هذا التصميم جمام النفس في الدنيا، وراحة المنقلب غداً، فإنّ العقل مهما استند إلى ملجأ لا يخاف انهياره، استقبلته الطمأنينة في اتجاهه، فلا يخشى خوراً ولايحاذر ذلاً إن كان صادقاً في إلتجائه، (لا يسر حسواً في ارتغاء) فيفضحه الكذب في قوله، والخيانة في عمله.

فهذه الطمأنينة لا تبارحه في حياته كلّها لأنّه استند إلى كهف حريز، ومانع عزيز لا تدانيه سطوة عدوّ أو غلبة مناجز، وهو متى وحّد اتجاهه نحوه سبحانه، وعلم أن لا مَنجى منه إلاّ إليه توحَّد فكره، وانحسر عن المناحي المتفرقة فلا يذهب شعاعاً، وينصرف عن الأباطيل جمعاء إلى الذي يوحّده في العبادة والالتجاء والآمال والأعمال، فلذلك حسن أن يتوكّل عليه، ويَلْتجِئ في كلّ أموره إليه.

**التوكل على الله:**

نصّ القانون الإسلامي على التوكل في جميع الأمور على الله، وهو السبب لتحقيق الرضا والتسليم، وأثره ترك الجشع والعدوان، فهو من مكارم الأخلاق.

التوكل هو إظهار العجز والانقطاع إلى من يتكل عليه، فإذا أظهر

الإنسان عجزه عن فعل من الأفعال لإنسان مثله، وانقطع إليه كان متوكّلا عليه، ولا ريب في أنّه يسعى له في قضاء فعله إذا كان ذلك الفعل تحت قدرته، وكانت صفات الإنسانية كاملة في ذلك الإنسان، وإن لم يكن تحت قدرته يعتذر إليه، ولم يكن ذلك الاتكال مصادفاً لمحلّه.

أما التوكل على الله سبحانه القادر على كلّ شيء، المنزه عن ظلم عباده لاستغنائه عنهم وقدرته عليهم، فإنّ العقل السليم حاكم برجحانه، وإنّ التوكل على الله ـ وإن لم يرد به نصّ من الله في كتابه الكريم ـ فهو لازم على الإنسان، لأنّ وظيفة العبد الاتكال على مولاه في تدبير أُموره، فالانسان يتوجه بحسب إرادته ورغبته إلى ما يرتضيه من الأعمال، ويسعى بمقدار قدرته، وهو متوكّل على الله في نجاح سعيه وإتمام عمله، فإن كان صلاحه في إتمامه أقدره الله عليه، وإلاّ رجع عنه بعد أن كان تحت قدرته وفي قبضته بحسب ما يراه.

وربما أنّه يرى أن لا يمنعه منه أحد، فإذا رجع عنه قد يظهر له بلا مهلة عدم حسن ذلك الفعل، ويمكن ظهوره بعد زمان طويل كما يمكن استمرار جهله بحسنه وعدمه، فالعارف بالله المؤمن به لايتوكّل على انسان مثله في قضاء عمل له، نعم له أن يطلب منه قضاءه وهو متوكّل على الله بأن يقدره عليه بتوسط ذلك الإنسان أو غيره من العباد، وهذا الذي ينطبق عليه نص القانون الإسلامي، ويساعد عليه الوجدان والنص، قال سبحانه: ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ [الاسراء: ٢].

هذه الآية صريحة بالنهي منه سبحانه لعباده عن الاتكال والاعتماد

في شيء من أمورهم على أحد من العباد إذ لايمكن أن يقضي أحد حاجة أحد إلاّ بالاقدار والتوفيق من الله سبحانه، فالذي يحسن أن يتخذه الإنسان وكيلا ومعتمداً هو الله، يقول سبحانه:﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] أي من يعتمد على الله في أموره فالله يكفيه ولا يلجئه إلى أحد سواه، وقال سبحانه ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْـمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم : ١٢].

إنّ هذه الآية الشريفة لمن تدبّرها وعرف المراد منها نعمة نفسية، وحياة قلبية، يكفيانه في الحياة الدنيوية، وفيها الكفاية في باب التوكل تعطيك معنى التوكل بجوهره، وتعرب لك عن لبابه لأنّها بكل صراحة نصها: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْـمُتَوَكِّلُونَ﴾ [ابراهيم : ١٢].

ولم يكن نصها وعلى الله فليتوكل العباد أو الانسان أو العقلاء، فالمتوكلون جمع، واحده متوكل، وهو هنا بمعنى المتيقن، فهو عبارة عن المتوكل على الله عن يقين ثابت، وهو التوكل على الله حق توكله، وذلك بأن يجزم بأن كل رزق وعطاء ونعمة وسعادة من الله سبحانه، ثم يسعى في الطلب على الوجه الجميل بحيث يخاف من الله وحده ، ولا يطمع في أحد سواه. وربما يتوهم البسطاء أن التوكل على الله هو عبارة عن ترك التكسب والسعي في أمر المعاش، وهذا توهم فاسد، وتفسير قد منع الشارع منه.

## مراتب التوكل:

ومِنَ التدبر في الآيات الربانية، والآثار الوجدانية، نعلم بأن

التوكل له مراتب، فأضعفه ما كان توكلا بسيطاً لا يقين معه، وأرقى منه ما كان معه يقين يتخلله الشك في موارد التوكل، والمرتبة العليا هي التوكل على الله عن يقين ثابت بحيث لا يعترضه الشك في موارد التوكل، وهذا القسم هو المراد من هذه الآية.

ولا ينافي هذا القسم فضلا عما تقدّمه أن يكون لمن توكل على الله في أموره حتى التوكل سعي تام، وحركة عقلائية، وأسباب عادية للتوصل إلى مطلوبه، لأنّ الله سبحانه أمر بالسعي وجعل لكل شيء سبباً، فإذا كان كذلك في أحواله كان جارياً على ما هو تكليفه وتحت قدرته، ونحن وكل مؤمن عرف حقيقة الايمان لا نرتاب بأن التوكل على الله من كمال الايمان، وفيه ما فيه من التسليم والرضا، وهو السبب في ارتياح النفس واطمئنانها وتجردها عن البغي والجشع.

وهيهات هيهات بعد تحقق هذه المرتبة الأخلاقية أن ينازع الإنسان من فوقه بالمعصية، أو من يساويه ومن دونه بالغلبة، وفي ذلك سلامة الإنسان في أكوانه من العبث والفساد، والظلم والالحاد، وبذلك ينال السعادة في الدارين.

***

## الاخلاص في المسألة:

قوله عليه السلام: «وَأَخْلِصْ فِي الْـمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْـعَطَاءَ وَالْـحِرْمَانَ».

هذا من ولائد ما قدّمنا شرحه من صدق الالتجاء، فإنّ الإنسان

إذا كان غير خائن فيما يلفظه من قول، أو يرتكبه من عمل، أو يتظاهر به من عقيدة، فلا مناص له إلاّ الصدق والاخلاص، لأنّه جد عليم أنّه لا ينجيه إلاّ ذلك، وأن المولى سبحانه لا تنطلي عنده اكذوبة خائن ولا غشّ مخادع، على انّه لا تنقطع آماله من ربه الغني، فهو كلّ حين بين مسألة لمنح عطاء، أو منع خطر مخبت لأنّ بيده جلّت قدرته لا بيد غيره العطاء والمنع.

***

### استخارة الله:

قوله عليه السلام: «وَأَكْثِرِ الإِسْتِخَارَةَ».

هذا من توابع ما سبق من صدق الالتجاء والاخلاص في القول والعمل، فإنّ تلكم المراتب لا يبارحها طلب الخير من الله سبحانه بعد اليقين والعقيدة الجازمة بأنه لا منيل للخير سواه، ولا منال له في غير ساحة قدسه، إن أريد من الاستخارة طلب الخير كما هو ظاهر من متعارف الأخبار والاحاديث، ومتفاهم الكثير من العلماء الفطاحل.

وإن أريد بها ما هو المتداول بين الناس من استكشاف الخير والشر بكيفيات مأثورة بالحصى، والبنادق، وآي القرآن الكريم، والقرعة، فهو أيضاً من مظاهر طلب الخير ومصاديقه، وإن كان إطلاق اللفظ وشموله عليها على الاطلاق ممنوعاً.

**فلسفة الاستخارة:**

من المعلوم أنّ عالم الدنيا وهو الذي يعبّر عنه عند أرباب العلوم العقلية بعالم الشهود، دار تزاحم وتمانع، والتضارب واقع على الدوام بين الأسباب المقتضية لمسبباتها، فإنّ سبباً قد يقتضي شيئاً ويمانعه آخر فيدفعه عن مقتضاه.

ألا ترى انّ الأرض الصالحة للزرع إذا كفّرت فيها الحبة، وسقيت على نظام قانون الري، تكون سبباً لنبات تلك الحبة، وبلوغها إلى غايتها المتوخاة التي هي الاثمار، فإذا صادفها برد شديد يمانعها في مقتضاه فيميت الزرع.

والإنسان في جميع حركاته وسكناته يطلب ما هو الأصلح له في دنياه وآخرته، وبما أن الدافع له إلى طلب شيء أو إلى الهرب منه ليس إلاّ إحرازه السبب المرجح للطلب أو الهرب، فإذا أحرز ذلك حسب ما تصل إليه فكرته، وأحرز وجود الشرائط وفقدان الموانع، لا يتوقف في الحركة بل يجري على مقتضى إحرازه.

وقد يقع بين سببين متساويين بالاضافة إلى الايجاب والسلب في حيرة توجب الوقفة، وحيث أنّه محجوب عن الاحاطة بجميع المصالح النفس الأمرية، وخارج عن وسعه ترجيح ما هو الراجح في نفس الأمر فيقف عن الحركة.

والشارع الحكيم من لطفه على عبده يريد جريه على العمل، وإخراجه عن الحيرة، جعل له طريقاً إلى كشف ما هو الراجح في نفس

الأمر، والأصلح بحاله في الواقع، وذلك الطريق هو الاستخارة التي هي استرشاد واستهداء ممن لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة إلى ما فيه الرشد والصلاح. ومن هذا الباب أيضاً أمرهم بالمشورة، فإنّ فيها تتعاضد العقول إلى معرفة الأصلح، وعند وقوفها عن إحرازه أمرهم بالرجوع إلى خالق العقول وجاعل الألباب بالاستخارة، والأحاديث في أمر الاستخارة مستفيضة متكاثرة.

فقد أثر عن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام انّه كان يقول: «إذا استخرتُ الله في أمر لا أُبالي على أيّ جنبي وقعت»[(١)]. وعنه عليه السلام انّه قال: «يقول الله عزّ وجلّ: من شقاء عبدي أن يعمل الأعمال ولا يستخيرني»[(٢)].

وقال عليه السلام: «من دخل في أمر بغير استخارة ثم ابتلي لم يؤجر»[(٣)].

وقال عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله من أكرم الخلق على الله تعالى؟ «قال: أكثرهم ذكراً لله وأعملهم بطاعته، قلت: فمن أبغض الخلق إلى الله تعالى؟ قال: من يتّهم الله، قلت: وأحد يتّهم الله؟ قال: نعم، من استخار الله فجاءته الخيرة بما يكره فسخط، فذلك يتّهم الله تعالى»[(٤)].

---

(١) البحار ٩١ : ٢٢٣ ضمن حديث ٣.

(٢) البحار ٩١ : ٢٢٢ ح١.

(٣) المحاسن ٢ : ٤٣٢ ح٤؛ عن البحار ٩١ : ٢٢٣ ح٢.

(٤) المحاسن ٢ : ٤٣٢ ح٥؛ عن البحار ٩١ : ٢٢٣ ح٢.

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله انّه قال لعلي عليه السلام لما بعثه إلى اليمن والياً، فكان من جملة ما أوصاه أن قال له: «يا علي ما حار من استخار، ولا ندم من استشار»[1].

## طرق الاستخارة:

وللإستخارة عدة طرق ووجوه:

الطريق الأول: الاستخارة بالقرآن، قال العلامة المجلسي رحمه الله ـ في مفاتيح الغيب ـ: «إنّه المشهور وهو الدعاء بطلب الخيرة من الله تعالى، وفتح القرآن، والنظر إلى أول الصفحة اليمنى والعمل بها، فإن كانت آية رحمة، أو أمر بخير فهي جيدة، وان كانت آية غضب، أو نهي عن شر، أو أمر بعقوبة فهي ردية، وإن كانت ذا وجهين فهي متوسطة».

ويدلّ على جواز الاستخارة بهذا النحو ما رواه الشيخ في «التهذيب» عن اليسع بن عبد الله القمي قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: اني أريد الشيء فأستخير الله فيه، فلا يوثق فيه الرأي أفعله أو أدعه، فقال عليه السلام: أنظر إذا قمت إلى الصلاة ـ فإنّ الشيطان أبعد ما يكون من الإنسان إذا قام إلى الصلاة ـ أي شيء يقع في قلبك فخذ به، وافتح المصحف فانظر إلى أول ما ترى فيه فخذ به»[2].

---

(١) البحار ٩١ : ٢٢٥ ح٥.

(٢) التهذيب ٣ : ٣١ ح٦ باب ١٣.

ـ والظاهر ـ ان المراد بأوّل ما يراه أول الصفحة اليمنى، لوقوع النظر عليه غالباً ابتداءاً، ولأنّه أمر مضبوط تحسن الاحالة عليه، ولو أريد أول ما يقع عليه النظر من أي موضع كان لم يكن إحالة على أمر مضبوط، إذ ربما يقع النظر على آيتين تدلّ إحداهما على الخير والأُخرى على الشر، أو أكثر من آيتين.

ومما يؤيد جواز الاستخارة بالقرآن، ما عن السيد ابن طاووس رحمه الله في كتاب «فتح الأبواب» انّه قال: ذكر الشيخ الإمام المستغفري الخطيب في سمرقند في دعواته، إذا أردت أن تتفأل بكتاب الله عزّ وجلّ فاقرأ سورة الاخلاص ثلاث مرات، ثم صلّى على النبي وآله ثلاثاً، ثم قل: «اللهم انّي تفألت بكتابك، وتوكلت عليك، فأرني في كتابك ما هو المكتوم في سرّك المكنون في غيبك» ثم افتح الجامع ـ يعني القرآن ـ وخذ الفأل من الخط الأول في الجانب الأول من غير أن تعد الأوراق أو الخطوط، كذا ورد مسنداً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله [1].

الطريق الثاني: الاستخارة بالسبحة؛ ما نقله العلامة المجلسي رحمه الله في «مفاتيح الغيب» عن والده، عن شيخنا البهائي انّه كان يقول: «سمعنا مذاكرة عن مشايخنا عن صاحب الأمر ـ صلوات الله عليه ـ في الاستخارة بالسبحة انه يأخذها ويصلي على النبي صلى الله عليه وآله ثلاث مرات، ويقبض على السبحة، ويعد إثنتين إثنتين، فإن بقيت واحدة فهو إفعل، وإن بقيت إثنتان فهو لا تفعل».

---

(١) فتح الابواب : ١٥٦ الباب السادس؛ عن البحار ٩١ : ٢٤١ ح١.

الطريق الثالث: الاستخارة بالرقاع؛ وهذه أضبط الاستخارات، وأحسنها وأشهرها، وصورتها ما رواه الكليني في «الكافي»، والشيخ في «التهذيب» بأسانيد معتبرة عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أردت أمراً فخذ ست رقاع، واكتب في ثلاث منها: بسم الله الرحمن الرحيم خيرة من الله العزيز الحكيم لفلان ابن فلانة إفعله. وفي ثلاث منها: بسم الله الرحمن الرحيم، خيرة من الله العزيز الحكيم لفلان ابن فلانة لا تفعله. ثم ضعها تحت مصلاك، ثم صلِّ ركعتين، فإذا فرغت فاسجد سجدة وقل فيها مائة مرة: «استخير الله برحمته خيرة في عافية» ثم استوي جالساً وقل: «أللهم خر لي واختر لي في جميع أموري في يسر منك وعافية» ثم اضرب بيدك إلى الرقاع فشوشها وأخرج واحدة واحدة، فإن خرج ثلاث متواليات لا تفعل فلا تفعله، وإن خرجت واحدة إفعل والأخرى لا تفعل، فأخرج من الرقاع إلى خمس فانظر أكثرها فاعمل به، ودع السادسة لا تحتاج إليها»[1].

***

**العلم النافع:**

قوله عليه السلام: «وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ الْـقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي عِلْم لَا يَنْفَعُ، ولا يُنتفع بِعِلْم لا يَحِقّ تَعلّمه».

(١) التهذيب ٣ : ١٨١ ح٦، الكافي ٣ : ٤٧ ح٣.

العلم النافع هو ما أعقب تفقّهاً في الدين، أو تهذيباً للنفس، أو سجاحة في الخُلُق، أو دماثة في الضرائب، أو عظة بالغة، أو عبرة زاجرة، وهناك علوم لم تمنع عنها الشريعة، ولعلّ في غضون مأثوراتها ترغيباً في تعلّمها، أو أنّ لها صلة بغير واحد من الأحكام الدينية، كغير واحد من الرياضيات من حساب، وهندسة، والعلوم الفلكية والجغرافية الطبيعية.

وهناك علوم جمة باقية على إباحتها، وهي مجلبة للفضل والكمال لمن تطلَّبها إذا لم تكن ملهية عن الدينيات.

وعلوم محظور تعلمها، وهي التي لا خير فيها كما في قوله عليه السلام، لأنّ في تعلمها صدّ عن سلوك سبيل الله، والعلم المؤدي إليه، وتلك هي العلوم التي نهت الشريعة عن تعلمها كالسحر والكهانة والنجوم ونحوها مما لا يكون فيها سبيل إلى المقاصد الحقيقيّة التامة.

**العلوم المحرّمة:**

والذي يلوح من سرّ نهي الحكمة النبوية عن تعلم هذه العلوم أمران:

أحدهما: إشتغال متعلّمها بها، واعتماد كثير من الخلق السامعين لأحكامها فيما يرجون ويخافون، فما يسنده إلى الكواكب والأوقات، والاشتغال بالفزع إليه وإلى ملاحظة الكواكب عن الفزع إلى الله تعالى، والغفلة عن الرجوع إليه فيما يهم من الأحوال، وهذا يضاد مطلوب الشارع الأقدس، لأنّ غرضه ليس إلاّ دوام التفات الخلق إلى الله سبحانه، وتذكرهم لمعبودهم بدوام حاجتهم إليه.

الثاني: انّ أحكام هذه العلوم إخبارات عن أمور ستكون، وهي تشبه الاطلاع على الأُمور الغيبية، وأكثر الخلق من العوام والنساء والصبيان لا يميزون بينها وبين علم الغيب والاخبار به، فكان تعلم تلك الأحكام والحكم بها سبباً لضلال كثير من الخلق، وموجباً لاعتقاداتهم في المعجزات ـ إذ الاخبار عن الكائنات منها ـ .

والشك في عظمة بارئهم، ويشككهم في صدق عموم قوله تعالى ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ الْـغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾ [النمل : ٦٥]، ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْـغَيْبِ لايَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْـغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان : ٣٤].

فصاحب هذه العلوم إذا حكم لنفسه بأنه يصيب كذا في وقت كذا، فقد ادعى أنّ نفسه تعلم ما تكسب غداً، وبأي أرض تموت، وذلك عين التكذيب للقرآن، وهذان الوجهان المقتضيان لتحريم هذه العلوم.

وصفوة القول: أن كل علم لا يحق تعلمه ـ أي لا يثبت في الشريعة تعلمه وجوباً ولا ندباً ـ فهو علم لا ينتفع به في طريق الآخرة فلا خير فيه، لأنّ الخير الحقيقي هو المنفعة الباقية عند الله، فما لا منفعة فيه لا خير فيه، ولذلك استعاذ الرسول صلى الله عليه وآله منه فقال صلى الله عليه وآله: «وأعوذ بك من علم لا ينفع»(١) فينتج أن كل علم لا يحق تعلمه فلا خير فيه.

---

(١) البحار ٨٦ : ١٨ ح١٥.

## العلوم الواجبة:

فالواجب اذاً تحصيله من العلوم كما هو أشرفها وأحسنها، هو العلم الإلهي المعرّف لأصول الدين، وعلم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات، وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها إجمالاً إلاّ أنّها في كيفية الأخذ مختلفة.

فعلم الأخلاق: يجب أخذه عيناً على كل أحد على ما بينته الشريعة، وأوضحه علماء الأخلاق.

وعلم الفقه: يجب أخذ بعضه عيناً أما بالدليل أو التقليد من مجتهد حي، والتارك للطرفين غير معذور عند الله عزّ وجلّ، ولذا ورد الحث الاكيد على التفقه في الدين.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «عليكم بالتفقه في دين الله، ولا تكونوا أعراباً فإنّه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر إليه يوم القيامة ولم يوزن له عمل»[1].

وقال ـ صلوات الله عليه ـ : «ليت السياط على رؤوس أصحابي حتّى يتفقهوا في الحلال والحرام»[2].

(١) الكافي ١ : ٣١ ح٧؛ البحار ٧ : ٢٢٣ ح١٤٠ عن المحاسن.
(٢) المحاسن ١ : ٣٥٨ ح١٦٧؛ عنه البحار ١ : ٢١٣ ح١٢.

وقال: «إن الكذاب بأن يخبرك بخبر السماء والأرض والمشرق والمغرب فإذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء»[1].

وأما أُصول العقائد فيجب أخذها من الشرع والعقل، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله، والحاكم العدل الذي تطابق أحكامه الواقع، ولولاه لما عرف الشرع، ولذا ورد أنّه «ما أدّى العبد فرائض الله حتّى عقل عنه»[2].

ولا يبلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما يبلغ العاقل، فهما متعاضدان ومتظاهران، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى ما هو حجة قاطعة، وأحكامه للواقع مطابقة، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج.

وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينهما إنما هو لقصور في العقل، أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه، فإنّ كل عقل ليس يدرك كل شيء ، وكلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتاً منه ، فالمناط هو العقل الصحيح ، وأصح العقول وأقواها ، وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلى دركه.

---

(١) الكافي ٢ : ٣٤٠ ح٨؛ عنه البحار ٧٢ : ٢٤٨ ح١١.

(٢) الكافي ١ : ١٢ ضمن حديث ١١.

ثم ما اجتمعت الأُمّة المختارة عليه من أُصول العقائد هو أن الواجب سبحانه موجود، وأنّه واحد في الألوهية، وبسيط عن شوائب التركيب، ومنزه عن الجسمية وعوارضها، وأن وجوده وصفاته عين ذاته، وأنّه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما، وأنّه حي قديم، أزلي قادر، مريد عالم بجميع الأشياء، وعلمه بها بعد إيجادها كعلمه بها قبله، ولا يزداد باحداثها علماً، وإن قدرته عامة بالنسبة إلى جميع الممكنات، وأنّه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، وبالجملة مستجمع لجميع الصفات الكمالية وليس كمثله شيء.

وان القرآن كلامه، ومحمّد صلى الله عليه وآله رسوله، وما أتى به من أمور النشأة الأخرى من الجنة والحساب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان، والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت، فيجب حينئذ على كلّ مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك، ويتشبث به، ويجرّد باطنه له بحيث لو أورد عليه ما ينقضه لم يقبله، ولم يعرضه شك وريب.

ثم ان المكلّفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقيناً، كتصديق أهل البيت ـ صلوات الله عليهم ـ إذ يقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»(1).

وبعضهم على يقين دون ذلك، وأقل هؤلاء رتبة أن تصل مرتبة

---

(1) البحار ٦٩ : ٢٠٩ ح٢٢.

يقينهم إلى طمأنينة لا اضطراب فيها، وبعضهم على مجرد تصديق ظني يتزلزل من الشبهات والقاء النقيض، وإلى هذه الاختلافات أشار الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام بقوله:

«إنّ المؤمنين على منازل: منهم على واحدة، ومنهم على اثنين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ستة، ومنهم على سبع، فلو وهبت لصاحب الواحدة إثنان لم يقو، ولصاحب الاثنين ثلاث لم يقو، وقس على ذلك»[1].

والإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله: «إن للايمان حالات ودرجات، وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه»[2].

ولا ريب في أنّ تحصيل ما يطمئنّ به القلب في العقائد الواجبة أخذه مما لابد منه لكل مكلف، ومجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة الأخروي، والوصول إلى مراتب المؤمنين، ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح.

***

(١) الكافي ٢ : ٤٥ ح٣؛ عنه البحار ٦٩ : ١٦٧ ح٦.

(٢) الكافي ٢ : ٣٤ ضمن حديث ١؛ عنه البحار ٦٩ : ٢٣ ح٦.

# الفصل الخامس
# عوامل في بناء شخصية الإنسان

«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي لَـمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْـهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ.

وَإِنَّمَا قَلْبُ الْـحَدَثِ كَالأَرْضِ الْـخَالِيَةِ مَا أُلْـقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ».

***

قال الشيخ الجليل ابن ميثم رحمه الله في شرح هذه الفقرات:

في هذا الفصل مقاصد: الأول أنّه اشار عليه السلام إلى بعض العلل الحاملة له على هذه الوصية، وهي كونه قد بلغ سناً عالياً، وأخذ ازدياداً في الضعف، وذلك أنّه كان عليه السلام قد جاوز الستين، فلزم من ذلك خوفه لأحد الخصال المذكورة، وعدّ من تلك الخصال ثلاث:

الأُولى: أن يُعجّل به أجله إلى الآخرة قبل أن يوصل إليه ما في نفسه من الحكمة الأدبية والمعاني النفسانية.

الثانية: أن ينقص في رأيه، وذلك أن القوى النفسانية تضعف عند علوّ السن لضعف الأرواح الحاملة لها، فينقص بسبب ذلك تصرف العقل وتحصيله للآراء الصالحة.

الثالثة: أن يسبقه إليه بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا، فإنّ الصبي إذا لم يؤخذ بالآداب في حداثته، ولم تروّض قواه لمطاوعة العقل وموافقته، كان بصدد أن تميل به القوى الحيوانية إلى مشتهياتها، وينجذب في قياد هواه إلى الاستعمال بها، فيفتنه ويصرفه عن الوجهة الحقيقية وما ينبغي له، فيكون حينئذ كالصعب النفور من الابل، ووجه التشبيه أنّه يعسر حمله على الحق وجذبه إليه بعد ذلك، كما يعسر قود الجمل الصعب النفور.

ثم نبّه عليه السلام على وجوب المبادرة إليه بالأدب وزرعه في قلبه ـ أي بقلب الصبي ـ فقال عليه السلام: «وإنما قلب الحَدِث كالأرض الخالية ما أُلقي

فيها من شيء قبلته»، وذلك أن قلب الحدث لما كان خالياً من الانتقاش بالعقائد وغيرها، مع كونه قابلا لما يلقى إليه من خير أو شر فينتقش به، أشبه الأرض الخالية من النبات والزرع القابلة لما يلقى فيها من البذر، وكل قلب كان كذلك فيجب أن يسبق إليه ببذر الآداب وغرس الحكمة، فلذلك يجب أن يبادره قبل أن يقسو قلبه عن الانقياد للحق، والاشتغال بالأمور الباطلة»[1].

## التربية منذ الطفولة:

ليس لدى الطفل إلاّ المدركات الحسية التي تناسب القوة الشهوية والغضبية، فهو في هذه الحال بمنزلة الحيوان، يهوى المحسوسات إذا تخيّل فيها نفعاً، وينفر إذا تخيّل ضرراً، فقوّته العاقلة بمنزلة جوهرة نفيسة خالية من النقش قابلة لما يرسم فيها من حسن أو قبيح، فهو أمانة في يد أبويه، أو من وكلت إليه تربيته، فعليه أن يحفظه من موارد التلف.

فإن نقش فيهاالمعلومات الحقة المفيدة، وطبّعه على الأخلاق الفاضلة، وجنبه الأباطيل والرذائل، وعوّده خير الأعمال أثابه الله على حفظ تلك الأمانة، والعمل الصالح الذي كان به كمال ذلك الطفل، ذلك الكمال الذي أفاده وأفاد أسرته ومعاشريه بل أمته وبني الإنسان، وإلاّ كان ضاراً لنفسه بعدوله عن حفظ ما ائتُمِنَ عليه، ضاراً لتلك الأمانة ولأسرتها ولأُمّتها.

(١) شرح نهج البلاغة (ابن ميثم) ٥ : ١٥ الفصل الرابع.

يرشد إلى هذا قول الرسول صلى الله عليه وآله: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه»(١) والمرء كما هو مسؤول عن إصلاح نفسه وإفسادها، مسؤول عن إصلاح نفس من وكلت إليه تربيته وإفسادها.

يجب أن يعلّم الطفل من المعلومات النافعة شيئاً فشيئاً على المقدار الذي يصل إليه عقله، كما يجب الاحتراس من تعليمه شيئاً أعلى من مداركه، ولا يلقى إليه شيء من المعلومات الباطلة، والأقاصيص الكاذبة، فإنّ ذلك مجلبة فساد الأخلاق وباطل الآمال، فمن الأشياء الموجبة لسوء تربية النشء قراءة الأقاصيص والروايات المملوءة بالأباطيل، فانها تؤصّل فيه الأماني الكاذبة فوق ما تجلبه من الخوف والكذب، واتباع هوى النفس، وليس ذلك بمقصود في مبحثنا هذا لأنّه من مباحث علم النفس.

## غرس الفضيلة في الطفل:

ولنذهب إلى القول في طريق إنماء القوّة الحِكَميّة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة فيه، وهو خلو من هذه أو من أضدادها، فإنّه أسهل وأنسب بطريقنا، وأنفذ للوصول إلى الكمال المطلوب.

### ١ ـ وجوب التبكير في غرس الفضيلة:

إذ إلقاء بذر في مغرس خال لا يحوج إلى عناء، كالعناء الذي ينشأ

---

(١) البحار ٦١ : ١٨٦ ح٥٢.

عن إلقائه في أرض مملوءة بالحشائش الفاسدة، والجذور المتلفة لنماء ذلك البذر، فإنّه يستدعي قبل الالقاء تعباً عظيماً في تنقية ذلك المغرس من تلك الحشائش والجذور العائقة عن إنبات البذر نباتاً طيباً يثمر ثمراً حسناً.

٢ ـ أثر القدوة:

يجب أن يُعوَّد الطفل الصدق في كل أقواله، ومن أقوم السبل إلى ذلك نشأته بين أسرة لا تقول إلاّ حقاً، فلا يُرَغَّب ترغيباً كاذباً ممن هو بينهم لأنهم بذلك يجرونه إلى الكذب، وإذا درج عليه مرة درج أخرى وهكذا حتّى يكون خُلُقاً راسخاً يصعب علاجه.

فالطفل قابل لما يودع في نفسه من حَسَن أو قبيح، ألا ترى أنّه ينبت على مثال كافله ومربيه، وأخلاق مربيه تصل إلى قرارة نفسه من حيث لا يشعر، فإنّه يراه أعظم منه لكونه قائماً بشأنه، صاحب أمره ونهيه، فيحاكيه محاكاة المفضول للفاضل.

ولذا ترى الأبناء يتشبهون بآبائهم في حركاتهم وسكناتهم، فيجب أن يكون القائم بتربيته ممن عرفوا بمحاسن الأخلاق، والتمسك بالتقوى جهد الاستطاعة، ومن ثم حظرت الشريعة أن يعهد في تعليمهم إلى معلم فاسق.

٣ ـ التشجيع على الفضيلة:

ويحسن بالمربين تشجيع الطفل على الفضيلة بالإحسان إليه إذا

قال صدقاً، وترك معاقبته إذا أجرم، وأن ينهى عن الكذب ويأمر بالصدق في كل أقواله، ويكافئ عليه بما يعده حسناً، وعن ترك النميمة لكبير الأسرة فيما يحصل داخل المنزل من أحد أفراد أسرته، ويعالج في ذلك بالقضاء عليها قبل نموها.

وأن يُعوَّد العطف والخير على من معه، وأن يستحسن منه ما هو حسن ويكافئ عليه، ويستقبح منه ما هو قبيح بالنصح وإظهار الاستياء منه، فإن رأى أن النصح كاف في الردع والزجر، فلا يعدل عنه إلى العقوبة لأنها تولد في القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصراحة والحرية المطلوبة في المقال والأفعال.

ويجب حثّه على التمسك بأذيال تقوى الله، فيعوّد القيام بامتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه قدر استطاعته، حتّى إذا جاء دور التكليف وجده مألوفاً، فلا يصعب على مربيه في بدء أمره تهذيبه، وحمله على الأخلاق الفاضلة متى كان القائم بتربيته حكيماً عالماً بطبائع النفوس ووجوه إصلاحها.

ولقد أتى على علماء التربية حين من الدهر كانوا يعتقدون أن المربي بيده كل شيء، وأن المربية قادرة لا يعجزها شيء، لأنّه قد ملك عقائدهم أن الطفل يولد صفحة بيضاء يخط المربي فيها ما يشاء، وعجينة لينة هينة يصورها كما يريد ويبغي، لا يصدّه عن ذلك صادّ، ولا يحجبه حجاب.

من هذا ما قاله إراسم الروتردامي:

«إن الفطرة اذاوهبت لك إبناً فانما تسلمك كتلة فجة، ومن شأنك أن تعطي هذه المادة القابلة للتهيئة والتشكل بكل شيء أحسن صورة تريدها، فأنت إن أهملتها حصلت منها بهيمة، وإن عنيت بتربيتها حصلت منها، ـ إن صح القول ـ مَلَكاً كريماً».

يمكننا أن نفهم الآن أن التربية في استطاعتها أن تمد يدها إلى الطفل لتخرج غرائزه الصالحة من أكمامها، وتكشف عنها غطاءها، وتحفظها من كل ما يعوق نموّها، وتحوطها بشيء من الرعاية حتّى يستطيع الطفل بعد نضوج جسمه، وتسوية خلقه، وتهذيب عقله أن يزج بنفسه في المجال العام لحضارة الإنسان ورقيه، وذلك عمل إيجابي تقوم به التربية.

الغرائز الكامنة في الطفل ليست كلها من ذلك النوع الشريف الذي يتخذ أساساً لكل رفعة وكمال، بل بجانب تلك الغرائز الشريفة غرائز أخرى لها خِسَّتها وحقارتها، لأنها دعامة كل مبتذل وخسيس يلمح في الطفل، كالجبن والكذب والكسل، وغير ذلك من كل رذيلة تفيض بها الاثرة الإنسانية.

فالتربية أمام تلك الغرائز الدنية تحصد شوكتها، وتغيّر وجهتها، وتحسن استخدامها، فللتربية إذاً عملان:

١ ـ إيجابي: وهو إحياء الغرائز الشريفة ورعايتها حق رعايتها.

٢ ـ سلبي: وهو إضعاف سلطان الغرائز الدنية، وتصريفها في طريق غير طريقها.

وغير خاف أن هذين العملين ضروريان، ولا يغني أحدهما عن الآخر، وكل منهما شرط في الثاني، فالشيئان المتساويان لا ترجح كفة أحدهما إلاّ إذا خفت كفة الآخر.

لهذا كان لزاماً أن يبدأ العملان في وقت واحد، وأن يسيرا جنباً لجنب دون أن يتقاعد أحدهما، أو يتباطأ أو يخلد إلى الأرض، أو يثاقل حتّى ينشأ عنهما إنسان كامل.

## الموانع أمام التربية:

نرى التربية وهي قائمة بعمليها: الايجابي والسلبي ذات يد غير مبسوطة إلاّ إلى حد معين، وذات قوة لا تظهر إلاّ بقدر معلوم، إذ يحجبها عن القدرة، المطلقة والارادة الحرة في اختيار سبيل غير ذي عوج حدود كامنة خافية، ومظاهر سافرة واضحة، هذه المظاهر وتلك الحدود تقعد بالتربية عن السير في طريقها سيراً حراً.

أما الحدود الكامنة: فانها تُعرف من غرائز الطفل التي خُلِقَت معه ومصدرها الوراثة.

وأما المظاهر السافرة: فانها تتجلى في بيئة الطفل الكفيلة بتحديدها وتعيينها فمصدرها البيئة، يطلع الجنين ويشرق وجهه، فتطلع معه مواهبه الباطنة وتشرق، واياه خواصه الذاتية التي ورثها عن آبائه السالفين.

يولد فتولد معه تلك الغرائز الكامنة، وينمو فتنمو معه دون أن يبدأ المربي أول خلقها، أو يكون له أثر في نشأتها وتكوينها، فالطفل إذ ذاك صورة آبائه الصادقة، وتاريخ أجداده الصامت الناطق، تهدي سطوره القارئة إلى ما تحلى به أسلافه من مزايا، وما توطن في نفوسهم من خواص، وما درجت عليه عقولهم من ميول، وبرزت فيه هممهم من شؤون، وما استقر فيهم من عادات ذات خلق سوي أو غير سوي.

وما أشبهه في ذلك بالغصن تعرف به شجرته والأثر يدل على مؤثره، فالطفل صورة مصغرة لحياة سابقة قطعت دهوراً، وأفنت أعواماً.

لم يصل العلم إلى معرفة ما تجري عليه سنة التوارث من ضوابط، وما تسير على ضوئه من قوانين، وغاية ما في استطاعتنا أن نحفظ لتلك المواهب خلالها، ونعد لها عدتها باعتبارها قوة هائلة، ذات سلطان قاهر، وحياة بارزة تحدد من موقف المربي أمامها، فلا يدور بخلده حينئذ أن يحصل من الطفل على ما ترمي إليه إرادته، ويشير إليه رأيه.

ولكن الذي يستطيع الوصول إليه من الطفل ما يوحي إليه به استعداد ذلك الطفل، وتدل عليه غرائزه، وتولي وجهها شطر خواصه التي ركبت فيه، وانتقلت إليه في طريق طويل من أجيال عمّرت آلافاً من السنين.

نقف أمام الطفل فإذا به لغز مظلم، وعقدة وثيقة محكمة لا يجسر أحد بادئ ذي بدء أن يحلها، ويعرف ما انحنت عليه من مواهب الطفل التي استقرت فيه، لأنّ سماءه لا تطلع فيها غرائز أسرة واحدة بل غرائز

أسر كثيرة.

فالطفل له أبوان لكل واحد منهما أبوان، والأربعة لكل واحد منهم أبوان وهكذا... وكل أب وأم من أسرة تختلف عن الأسرة الثانية في خواصها وغرائزها.

فالطفل إذاً مجال تجري فيه غرائز أسر عديدة مختلفة، وصفحة ترقم فيها خواصها المتباينة.

من ذلك يمكننا أن نفهم التباين الذي يقع بين الأخوة الأشقاء والأخوات الشقيقات في الأخلاق والعادات، وقوة الفكرة وحصافة الرأي، إلى غير ذلك مما يرجع تكوينه إلى أسر سابقة، وينسب ظهوره إلى الوراثات المتعاقبة.

### أثر البيئة:

لقد عرفنا أن تأثير المربي في تلك الغرائز تأثير محدود فهو محكوم لها، خاضع لأمرها، نازل على إرادتها، لهذا كانت التربية أمراً غير ذي بال لو أن العامل الوحيد في نمو الطفل وتكوينه يرجع إلى الوراثة وحدها، ولكن العالم الفرنسي «لامرك» دلّنا بنظريته على أن هناك عاملاً آخر لا يقل خطراً عن الأول ذلك هو عامل المخالطة، وهي ما نسميها البيئة.

فكل مخلوق قُدِّر له أن يتأثر نموه بما يخالطه ويشاركه في الوطن وما حواه، ومن شواهدهم على ذلك ما جاء في احدى المجلات إذ قالت: «النبات المعروف بسنّ الأسد ينبت بين نباتين عاليين من نبات المروج بأوراق قائمة، على حين أنّه اذا نبت وحده هنالك نامت أوراقه الوردية الشكل على الأرض.

وبعض أنواع المسك والنبات المعروف بقدم الديك إذا نبت على الشاطئ الجاف يكون له أوراق ذات فلقتين فقط، وإذا نبت في الماء نبتت له من أحد جانبيه أوراق قائمة عريضة ذات فلقتين تطفو على سطح الماء، وفي جانبه الآخر أوراق دقيقة على شكل خيوط تحت الماء».

على هذه السنة تدرج نفس الطفل، وتشق سفينته طريقها في الحياة. لذلك كان لزاماً أن نعرف البيئة التي يلقى الطفل بين أناسها، إذ كل شيء في الحياة يدع في نفسه أثراً يختلف قوة وضعفاً على حسب قوة مصدره.

غير أننا لا نستطيع أن ننتقي بيئة خَيِّرة لا يزورها الفساد، ولا تمر بها عواصف الشر، وبخاصة المدن حيث يكثر الازدحام، ويطغى سيل الحضارة، فالطفل في بيئته أمام عوامل لا تحصى، كامنة له في كل مرصد، مقتنصة إياه في كل مكان، تدخل عينه فتقيدها، وتنفث في أسماعه فتملكها، وتصل إلى قرارة نفسه فتأسرها وتغويها، وتساور فؤاده مساورة السموم القاتلة، لا يمتنع عنها بحيلة، ولا يفر منها بوسيلة، فهو مضطر إلى أن يختلط بالتلاميذ في مدرسته، وبالناس في طريقه، وأن ينظر

ما يوضع على الجدران من إعلانات وصور، إلى غير ذلك مما يقحم الطفل ولجات الشر ، ويحله ورطات الفساد، ويجعل واجب المربي شاقاً غير يسير، ينحني عجزاً أمام تلك القوة الهائلة قوة المخالطة « البيئة».

### تنازع الوراثة والبيئة وأثر المربي:

فالوراثة والبيئة إذ ذاك يتنازعان الطفل، بقوة خارجة على الجملة عن دائرة المربي، إلاّ أننا إذا لحظنا أن المربي نفسه من ضمن البيئة التي لها تلك القوة فإنّه يستطيع بجانبها أن يفعل شيئاً في نفس الطفل، ويؤثر فيها تأثيراً ما.

لذلك كان من الضروري انتقاء المربين واصطفاؤهم أخياراً بررة صالحين، لينقضوا لمؤثرات البيئة الضارة غزلها، ويميتوا ما عسى أن يظهر من ضروب الاستعداد السيء، أو يوجهوها وجهة صالحة، وأن تقوم رقابتهم على دعائم من اليقظة الصادقة والاحساس الحي، حتّى يكونوا في التأثير أورى قدحاً، وأعلى كعباً، وأرجح وزناً، وبذلك يصلحون أبواباً فتحت إلى تهذيبه وأسباباً ذللا إلى كماله.

### أثر الوالدين:

لا نكون بعد هذا متجانفين لغلو إذا قلنا: إن التبعة الكبرى منصبة على الوالدين، لأنهما أكثر الناس اختلاطاً بالطفل، وهو أخشع

لهما، وأعظم استكانة لأمرهما، واستسلاماً لطاعتهما، يهوي إليهما فؤاده، وتسكن لجوارهما نفسه.

فعلى الوالدين والمربين أن يضعوا أمام عينهم أنهم قدوة طيبة، ومثل مشكور، يحتذيه أبناؤهم، وأن يخلعوا قناع الخسَّة، ويلبسوا لباس الكمال الذي يملأ القلوب جلالاً، والعيون جمالاً، وأن يتنازلوا عن كثير مما يشتهون نفياً للرذيلة أن يراها الطفل، وإبعاداً للنقيصة أن يدنو منها.

## العوامل الثلاثة في بناء الشخصية:

نستخلص من هذا أنّه يعمل على تنمية الطفل تنمية صالحة، بأيد مترادفة تجتاز به عن كل أمر يكسر الفقرة، ويوهن الهمَّة، ويدنيه إلى البهيمة إلى حيث ينشر الخُلُق القيّم عليه جناحه، ويسيل له جداول نعيمه، يعمل على ذلك ثلاثة أمور:

١ ـ الوراثة.

٢ ـ المخالطة.

٣ ـ المربّون.

تبدأ الثلاثة عملها من حين الولادة بدرجات مختلفات، فقد ينشط أحدها ويتباطأ غيره، ولهذا لا يحمل الوالدان الهجينة[١] وحدهما إذا نما الطفل نزّاعاً إلى الشر، كما لا يُنَسب إلى المربّي وحده ما يحمل الطفل من

(١) الهجينة: بمعنى العار ومنه مستهجَن أي مستعار.

استقامة محترمة، وسلوك حازم، لأنّ للمربي شريكين لهما أثرهما: الوراثة والمخالطة.

## العامل الأول: الوراثة:

الإنسان خاضع لقانون الوراثة كالحيوان والنبات، وقد أثبت العلماء صحة هذا القانون بتجارب كثيرة لا تخفى على المتأمل، ولا يقتصر تأثير الوراثة على حالات الإنسان البدنية، بل يتعدى إلى عقله وأخلاقه، فالانسان يكاد يكون جسماً وعقلاً نتيجة لازمة لما كان عليه أسلافه.

ويظهر تأثير الوراثة واضحاً في زمن الحمل، إذ هو الزمن الذي يوضع فيه أساس القوى الإنسانية. وقد أثبت الأطباء ان انفعالات الحامل من سرور وخوف وحزن وحب وبغض وغيرها تؤثر في جنينها، وأوصوا بادخال السرور على الحامل والعناية بصحتها، وترويح نفسها بالمناظر الجميلة، والبعد عن كل ما يثير انفعالاً سيّئاً في نفسها.

وكثير من المتعلمات فطنّ لقانون الوراثة، وعملن على غرس الأخلاق الحميدة في نفوس أجنّتهنّ وهم في طور التكوين، بارتياحهنّ في أثناء الحمل إلى الفضيلة ونفورهنّ من الرذيلة، فجاء أطفالهنّ على ما شئن أن يكونوا عليه، وعلى ما اتخذن من الوسائل الموصلة إلى غرضهنّ.

ومهما كان الإنسان خاضعاً لقانون الوراثة، ومهما كان ايماننا بهذا القانون، فلا يمكننا أن نقف جامدين أمام تأثير التهذيب والصقل.

ومهما كانت قابلية النفس البشرية للتأثر بالتهذيب، فليس في الامكان مقاومة ما استكن في النفس عن الوراثة والغرائز مقاومة تامة، فقد نرى بعض أبناء الصالحين طالحين، كما نرى بعض أبناء الأشرار أخياراً.

**العامل الثاني: المخالطة:**

إذ هي التي تغيّر في الإنسان كثيراً من أخلاقه وعاداته من حيث يدري ولا يدري، ومن حيث يريد ولا يريد، وأثرها فينا لا يستطيع انكاره منكر، بل إنك لتجد أثرها في الجماد والحيوان، وهما دون الإنسان قبولاً للتأثر.

فالماء يطيب ريحه، ويعذب في الفم مذاقه إذا جاور الأزهار، ويخبث ريحه ويشتد غصصه إذا جاور الجيف، والحصان الشرود إذا قرن بآخر ذلول صار ذلولاً سهل القياد.

وإن العوامل التي تتخذ في التربية لتجعل الشرير خيراً، والفاسد صالحاً، من وعد ووعيد، وتحذير وترغيب، وثواب وعقاب، قد لا تأتي في الغالب على ما في نفس الإنسان، ولا تنتقل به من حال إلى حال، أما المخالطة فانها لا تحصل بدون أن يكون لها أثر ظاهر في حال الإنسان الخلقية والاعتقادية والفكرية.

وكل أنواع التربية تعرض وتزول كالمدرسة والبيت إلاّ المخالطة فانها تربية لا تنقضي إلاّ بالموت، فإنّ حسنت أثمرت ثمراً طيباً، وإن

ساءت كانت شراً وبلاء.

عنى الباحثون وعلماء الأخلاق والدين، والمثقفون في كل أمة وعصر بوصف العشراء والخلطاء، وأرسلوا القول في ذلك شعراً ونثراً، ما شاءت لهم البلاغة ووحي البيان، ولم تفرط الشريعة الإسلامية في شيء من ذلك، والأحاديث الواردة فيها أكثر من أن تعيها أذن واعية، أو يلم بها قلب حافظ أو راوية.

من ذلك قوله ﷺ: «مَثَل الجليس الصالح كمثل الداري إن لم يجدك من عطره يعلقك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل التبن إن لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه»[1].

وقوله: «من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحاً إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه»[2]، ذلك لأنّ للمخالطة أثراً بيناً في تكوين أخلاق الإنسان، وفيما يصدر عنه من أفعال الخير والشر، وفيما يناله من سعادة وشقاء ونعيم الحياة وبؤسها، ولأنّ الإنسان موسوم بسمات من يخالطه ومنسوب إليه فعله.

قال عبد الله بن مسعود: «ما من شيء أدلّ على شيء، ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب».

أجل للمخالطة الصالحة نتائج حسنة إذ يستحي الإنسان في

---

(١) كنز العمال ٩ : ٢٢ ح٢٤٧٣٧ نحوه.

(٢) البحار ٧٧ : ١٦٤ ح٢.

الغالب من رفقائه والمتصلين به، ولا سيما من عرفوا منهم بالترفع من الدنايا وفي هذا ما يبعده عن الشر ويدنيه من الخير، كما يأمن على أخلاقه بمعاشرتهم، ومن آثارها أن يذكره اخوانه بالخير فيفعله، والشر فيجتنبه، وأنّه يكتسب بصحبتهم شرفاً، ويجد منهم عوناً في الملمات، وعضداً في النائبات.

فالمخالطة عامل من عوامل التربية، ومن أجل ذلك يجب على الآباء والمربين أن يعيروا المخالطة عنايتهم كلها، لأنّ أثرها في التربية تنقطع دونه جميع الأسباب.

ولتحقيق الغرض الصالح منها يجب أن يُمنع الأطفال من مخالطة من ساءت أخلاقهم، ولو زمناً قليلا، وأن يمنعوا من الذهاب إلى المجتمعات العامة وحدهم، ولا سيما التي يغشاها ذوو الدناءة والأخلاق السيئة.

وأن يختار لهم آباؤهم وأولياؤهم إذا بعثوهم ليتعلموا في بلد بعيد أُناساً ممن عرفوا بكرم الأخلاق، وصحة الآداب ليشرفوا عليهم، وألاّ يتركوا لهم الحبل على الغارب في اختيار الأصدقاء والخلاّن، فإنّ قلة خبرتهم ونقص تجربتهم تدعوهم في الغالب إلى اختيار من يضرّون ولا ينفعون، ويفسدون ولا يصلحون.

### العامل الثالث: التربية:

المنزل هو أول بيئة يعيش فيها الطفل، وهو أكثر ما يكون قبولاً للتهذيب.

المنزل هو المدرسة الاولى التي يتأدّب الطفل بآدابها ويُعتاد عاداتها، ويقف على كثير من أفكارها وآرائها واعتقاداتها، فإن كانت الأُسرة التي تسكن في المنزل شريفة تنسَّم فيه الطفل نسيم الفضيلة، وإلاّ انغمس في حمأة الرذيلة.

ولا نشك في أن البيئة التي عليها مدار تربية الطفل عندنا الآن موبوءة، فالكذب والبذاءة والخرافات متفشية فيها بحال مروّعة لا تتفق، وتربية الأطفال الذين نعدُّهم للحياة.

والأُسرة الشريفة والدنيئة سواء في تكوين الأخلاق وإن اختلف الأثران، غير أن الأُسرة الدنيئة خير من بعض الوجوه من الأُسرة المهملة، لأنّ الدنيئة كثيراً ما تغرس في نفس الحَدِث مضاء العزيمة ليصل إلى غاية وضيعة، ولكن قد يدركه حسن الطالع فيغسل وزره بالتوبة ويضرب في سبيل الفضيلة، وحينذاك يجد ما نبت في نفسه من قوة العزيمة سلاحاً نافعاً له في الوصول إلى محاسن الأعمال، أما من نشأ في أُسرة مُهمِلة فإنّه يقف أمام مصاعب الحياة مغلول اليدين يذهب مع كل خاطر، ليس له رأي سديد ولا إرادة حازمة.

وغير خاف أن رؤساء المنزل ومعلميه هم الآباء والأُمّهات، فإذا كانوا على بيّنة من المهمة الخطيرة الملقاة على عواتقهم، قادرين على أن يربوا أولادهم تربية حسنة، أمدوا أمتهم برجال نافعين أصحّاء الأجسام، كريمي الأخلاق.

فالناشؤون بحكم غريزة المحاكاة مدفوعون إلى محاكاة آبائهم

وغيرهم من المحتكين بهم، وإذا عرف المربون قيمة هذه الغريزة واستثمروها بأن حفظوا عيون أولادهم من أن تقع إلاّ على كل جميل، وآذانهم من أن تسمع إلاّ كل قول حميد، وصانوهم من مخالطة ذوي النقائص، ومن غشيان مجالس اللهو والمجون نشؤوا نشأة حسنة.

إذا أراد الوالدان مثلا أن ينميا الإحساسات الطيبة في نفس الناشيء، عرضا عليه مواضع الشفقة على الإنسان والحيوان، ووجهاه إلى مواضع الرحمة ومساعدة الضعفاء، واشتركا معه في أعمال البر، وأبعداه عن كل ما يميت هذا الشعور عنده، وبذلك يمهدان له السبيل إلى أرقى الأخلاق.

وإن لم يحسن الآباء تربية أولادهم شبوا على الرذيلة، وضعف الرجاء في إصلاحهم، فإنّ من شب على شيء شاب عليه. وأكبر جناية يجنيها الآباء على أولادهم سوء تربيتهم.

قال سبنسر: «لم يهمل الآباء شيئاً إهمالهم إنعام الفكر في تأديب أطفالهم، وتعويدهم حميد الخصال وجميل الفعال، ولعلّهم ظنوا الأمر هيّناً، وحسبوا أنّهم قادرون بلا فحص ولا بحث على أن يودعوا طبائع صبيانهم ما شاؤا من المناقب، وجهلوا أن علم تهذيب النفس علم صعب المأخذ، عسر الملتمس، من جهل قواعده خاب في تأديب غلامه، وبدهي أن من سار إلى الشيء من غير طريقه لا يصل، ومن دخل الظلام بغير سراج فقد ضلّ».

ويؤخذ من كلام سبنسر أن علم النفس ضروري للآباء

والأُمّهات، وبدونه لا يهتدون إلى الطريقة المثلى في تهذيب أبنائهم، ولتكون على بينة من خطأ الاّ الآباء في تربية أولادهم إذا جهلوا علم النفس.

❊❊❊

## الفصل السادس
## أهمية العلم والتعلّم وعلوم القرآن

«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْر نخيله، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْـوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْـعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّة سَلِيمَة، وَنَفْس صَافِيَة، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الإِسْلامِ وَأَحْكَامِهِ ، وَحَلاَلِهِ وَحَرَامِهِ ، لاَ أُجَاوِزُ ذلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ».

***

**طرق تحصيل العلم:**

قوله عليه السلام: «أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي ـ إلى قوله ـ: فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ».

يبيّن ـ صلوات الله عليه ـ في هذه الفقرات شتّى طرق تحصيل العلم بتلكم الأحوال للإنسان الملمّ بآثار الماضين وأخبارهم وتجاريبهم، وكلّ هذه طرق معقولة عدا ما كان عند الإمام عليه السلام من العلم بالحاضر والغابر، وما كان وما سوف يكون ممّا ثبت في العقيدة حصوله له، ولايعزب علمه عنه.

والنظر الذي يوعز إليه ـ سلام الله عليه ـ في الحقيقة هو النظر بالمنظار الإلهي، وهو محض التنبّه إلى ما جريات الأحوال، وما ترتّب عليها من حسنة وسيّئة، وليس كنظر غير الإمام في الوقائع الغير الملموسة، فإنّها في غيره في حاجة ماسّة إلى القرب الزماني والمكاني، فهو لا يعرفها إلاّ إذا نظر إليها من كثب، أو أخبر عنها المطلّع عليها من أُمم.

فموقفنا من التأريخ موقف عظات وعبر، نطالع أخبار من سبق فكأنّنا معهم، تحزننا المآسي، وتسوؤنا المخازي، وتنغّص عيشنا المجازر البشرية، وتنشّطنا الأفراح، وتبعث في نفوسنا البهجة والحياة الروحية.

فإذا قرأنا حديث مولد النبي صلى الله عليه وآله وما فيه من إرهاصات النبوّة، فإنّا نجد أنفسنا محلقة إلى الملأ الأعلى، لتشاركهم في أفراحهم وسعاداتهم، ثمّ نراها تهبط لتشارك من في الأرض في البشر والهناء، ثمّ

لا تلبث أنفسنا حتّى تجد لها مسارب إلى سكان البحار لتجاريهم في مغداتهم ومراحتهم، ثمّ تطفو على وجه الماء لترى نور النبوّة المشعّ في شرق الأرض وغربها.

وتعكسنا الحالة إذا تلونا في صحيفة التاريخ أسطراً سوداء من مأساة يوم الطف، يوم تطاولت الأيدي الأثيمة إلى سيّدنا السبط المفدّى، فأبدت تلكم القسوة والخزاية التي ما سنح لها الدهر بمثيل.

إذن فالتاريخ ليس سلوةً للمتسلّي، ولا أُلعوبة بيد الصغير؛ بل هو درس من دروس الحياة، نستقي منه كيفية الحياة وأنّها كيف يجب أن تدرج، ثمّ هو يكسح من أمام أرجلنا دياجير الظلام، لينير لنا الطريق اللاحب المهيع الذي سلكه الماضون فنجحوا أو خابوا.

## وجوب الوعظ والارشاد والتعليم:

قوله عليه السلام: «فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْر نخيله ـ إلى قوله: ـ وَنَفْس صَافِيَة».

هاهنا يوعز ـ سلام الله عليه ـ إلى أنّ الإنسان إذا كملت عنده مواد الحكمة ونتائج العلم، يجب عليه أن لا يحتكرها، أو يؤثر بها نفسه فحسب، فيصغّر دائرة المنفعة، ويضيّق منفذ الخير، ولما لهذه من أهمية ومنزلة ومكانة اجتماعية، جاء الحديث عمّن لا تجود نفسه ببثّ الموعظة والعلم عند الحاجة إليها: «إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يُظهر علمه، ومن لم يفعل لعنه الله».

وفي الناس من لا تجود نفسه حتّى على نفسه ـ وهو العالم الذي لا يعمل بعلمه ـ وهنا يتراءى لنا المثل المشهور: «العلم يهتف بالعمل وإلاّ ارتحل» فيرينا أنّ فائدة العلم منوطة بالعمل.

وبدهي أنّ مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلاّ بانتظام الدنيا، ولا يستقيم نظام الدنيا إلاّ بتفهّم عالم المخلوقات بالبحث عن طبائع الموجودات وخواصّها، وذرائع استخدام ما لا غنى عنه في بقاء الإنسان أو كماله، ثمّ استقراء شؤون الاجتماع وما يتبع ذلك من سنن التعاون على أسباب المعيشة وضبطها، وطرق اصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس، وارشادها إلى ما فيه رفعتها في الدنيا وسعادتها في الآخرة.

ومن هذا يتبيّن أنّ الإنسان لا تتمّ له حكمة خلقه، وتسخير هذا الكون له إلاّ بالعلم والعمل، فبهما سعادة الدنيا، وهما طريق الفوز في الأخرى، ولو أنّ شخصاً جمع علوم الأوّلين والآخرين ثمّ لم يكن له أثر يذكر في هذه الحياة وتطوّرها فهو من أهل القبور، بل الأموات خير منه، فالعبرة بآثارالمعرفة وفوائدها لا بالمعرفة نفسها.

***

## علوم القرآن:

قوله عليه السلام: «وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لاَ أُجَاوِزُ ذلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ».

وأن ابتدئك بتعليم كتاب الله عزّ وجلّ وتأويله، إذ أهمّ ما يلزم للمرء تعلُّم القرآن والتدبّر في معانيه، والوقوف على حقائقه ومتشابهاته، وناسخه ومنسوخه، لأنّ فيه قوانين الإسلام ومعرفة الحلال والحرام، وفيه ما تحتاجه الأمّة في شؤون عقائدهم ومعادهم ومعاشهم، بل حتّى ما يعود لصحّتهم.

قال عليه السلام: «إنّ في القرآن علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم»[(١)].

يريد الإمام بكلمته هذه أن يقول:

إنّ في القرآن علم ما يأتي وعلم ما كان، وهو المعبّر عنه بقوله: «حديث الماضي» وفيه علم الحاضر، المعبّر عنه بقوله: «دواء دائكم» وهو علم الطبّ نفسياً وبدنياً ووقائياً، وبقوله: «نظم ما بينكم» وهو سائر العلوم سياسية وثقافية واجتماعية، لأنّ في كلّ من هذه تنظيماً لحياتنا الجماعية.

ولولا ما نعتصم به من نظام في حياتنا لكنّا من غير نوع الإنسان المسيطر على ما دونه من الحيوان والنبات والجماد، والفضل في ذلك للعقل القائم في تهذيب الإنسان على تعاليم القرآن ووصاياه، فليتدبّر قارئي ما أفضي إليه به من التدليل على هذا الحكم.

---

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٥٨ عنه البحار ٩٢ : ٢٣ ح٢٤.

## علم الماضي والمستقبل في القرآن:

أمّا إنّ في القرآن علم ما كان المعبّر عنه في قول الإمام بالحديث عن الماضي، فلا يحتاج إلى تدليل ويكفي لاثباته ما يشير إليه الكتاب الكريم في قصّة ذي القرنين، وقصّة أهل الكهف، وقصص الأنبياء والرسل، فإنّها مشحونة بعلوم الأوّلين. منها ما حقّقه العلم الحديث كبساط الريح، وعرش ملكة سبأ في قصّة سليمان، إذ كان العلم يدرك السرعة التي أوتيها سليمان في الطيران بواسطة الأثير «اللاّسلك».

وأمّا سرعة النقل بحيث يقطع الجرم في مسيره آلاف الأميال ببضع ثوان كما فعل مستشار سليمان في نقل العرش، أمّا هذه السرعة فقد أشار إلى امكانها العلم الحديث في استخدام الذرّة للسلام العالمي، إذ صرّح أحد علماء الذرّة بأنّ في الامكان القريب سير الأجرام بسرعة الضوء.

وهكذا نجد أنّ حديث الماضي في القرآن لا يشعرنا بعلم ما كان فحسب، وإنّما يتعدّاه بالاشارة إلى علم ما يكون، كما في قصّة أهل الكهف من اغفالهم قروناً ثمّ بعثهم أحياء، وفي قصّة موسى وعيسى من فلق البحر وانفجار الصخر عن الماء، واحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص.

وفي قصّة سليمان من تكليم الطير، وغير ذلك ممّا يصل إلى تعليله وتأويله أهل الحضارة بالعلوم والفنون، وفي ذلك ما يثبت صحّة قول الإمام عليه السلام بأنّ في القرآن علم ما يأتي به مستقبل الإنسان.

فخذ مثلا على ذلك علوم الأثير اليوم وفي طليعة فنّ التوجيه للطائرات والصواريخ، في سنة ١٩٤٦ جرى في أمريكا توجيه أوّل طائرة قذفاً باللاّسلكي من نيويورك إلى لندن كما يقذفون الأصوات مركّزة على موجات الأثير بالأجهزة اللاّقطة في المذياع، وذهب في الطائرة بعض المهندسين لا لقيادتها بل للإشراف على ضبط سيرها فقط، وبعد أن أصابت الهدف بهم وهبطت الهوينا على أرض لندن، قدّموا تقريراً لمصادر التوجيه في أنّ القذف أضبط من القيادة، وأنّها لم تحدّ في سيرها عن الخطّة التي رسمت لها قط.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥-٣]، إشارة تكاد تكون صريحة في الدلالة على توجيه القذائف بواسطة الأثير، فكلمة أبابيل مجهولة المعنى، ولعلّها من قبيل ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وغيرها من الأسماء المضافة إلى اسمه تعالى، فيكون المقصود بالطير جماعة من الملائكة تقذف هؤلاء المعتدين على الكعبة والذين هم أصحاب الفيل، تقذفهم بحجارة.

قيل في التفسير: إنّ كلّ حجر مكتوب عليه اسم الذي قذف به، فكان يصيبه فيصعقه ولا يتجاوز إلى غيره، ويفسّرون السجيل بالطين المطبوخ، وأرى أنّه من التسجيل وهو الرقم ليتناسب مع التفسير، بأنّ اسم كلّ مقذوف من العتاة وجد محفوراً على الحجر الذي قُذف به، فيكون المعنى، والله أعلم: إنّ ملائكة أبابيل رمت هؤلاء الطغاة بقذائف

سجّلت عليها أسماء المقذوفين بها لئلاّ تتعدّاهم.

كما نرى اليوم في الحروب القائمة ـ بآلاتها المدمّرة ـ على العلوم الحديثة من أنّها تحكم بتوجيه القذائف لأعدائها بحيث لا تتعدّاهم إلى غيرهم من المسالمين، وكما نرى من ضبط ارسال الصوت في الأثير على موجات خاصّة لا تتعدّاها إلى غيرها من الأمواج الأثيرية، والقرآن الكريم حافل بكثير ممّا يفتح للأجيال المقبلة طرق الكشف والابداع في مجال الحياة لمن أراد أن يستقصي ويتعمّق في البحث عن ذلك.

## فضائل القرآن وخصائصه:

ومن هنا نرى الإمام عليّاً عليه السلام يصف القرآن بأدقّ وصف، يستعرض محاسنه وما اشتمل عليه من درر الفوائد، بقوله في خطبة له:

«ثمّ أنزل عليه ـ أي على النبي صلى الله عليه وآله ـ الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لايضلّ نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوءه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وبنياناً لاتهدم أركانه، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزّاً لا تهزم أنصاره، وحقّاً لاتخذل أعوانه، فهو معدن الايمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانه»(1).

ففي كلامه هذا ـ صلوات الله عليه ـ : نبذ من فضائل القرآن

(1) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٨، عنه البحار ٩٢ : ٢١ ح٢١.

وخصائصه ومناقبه وفوائده.

أوّلها: كونه نوراً لا تطفأ مصابيحه: أمّا انّه نور فلاهتداء الناس به من ظلمات الجهل، كما يهتدى بالنور المحسوس في ظلمة الليل، وأمّا مصابيحه: فاستعارة لطريق الاهتداء، وفنون العلوم التي تضمّنها القرآن.

ثانيها: كونه سراجاً لا يخبو توقّده: أمّا انّه سراج لا يخبو توقّده فالمراد به عدم انقطاع اهتداء الناس به واستضاءتهم بنوره.

والثالثة: أنّه بحر لا يُدرك قعره: وذلك أنّ استعارة البحر له باعتبار اشتماله على النكات البديعة، والأسرار الخفيّة، ودقائق العلوم التي لا يدركها بُعد الهمم، ولا ينالها غوص الفطن، كما لا يدرك الغائص قعر البحر العميق.

الرابعة: كونه منهاجاً لا يضلّ نهجه: أي طريقاً واضحاً مستقيماً إلى الحقّ لا يضلّ سالكه.

والخامسة: كونه شعاعاً لا يظلم ضوءه: أي حقّاً لا يدانيه شكّ وريب، ولا تشوبه ظلمة الباطل فتغطّيه وتستره، كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْـكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة : ٢].

وقال: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْـباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢].

والسادسة: كونه فرقاناً لا يخمد برهانه: أي فارقاً بين الحقّ والباطل، وفاصلا بينهما لا تنتفي براهينه الجلية، وبيّناته التي بها يفرق بينهما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَما هُوَ بِالْـهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٤-١٣] وقال: ﴿هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾ [البقرة : ١٨٥].

والسابعة: كونه بنياناً لا تهدم أركانه: شبّهه عليه السلام ببنيان مرصوص وثيق الأركان فاستعار له لفظه، والجامع انتظام الأجزاء واتّصال بعضها ببعض.

وقوله عليه السلام: لا تهدم أركانه: ترشيح للاستعارة، وفيه اشارة إلى أنّ البنيان الوثيق كما أنّه مأمون من التهافت والهدم والانفراج، فكذلك الكتاب العزيز محفوظ من طرق النقص والخلل والاندراس.

والثامنة: كونه شفاءً لا تخشى أسقامه: يعني أنّه شفاء للأبدان والأرواح، أمّا الأبدان فبالتجربة والعيان، مضافاً إلى الأحاديث الواردة في خواصّ أكثر الآيات المفيدة للاستشفاء والتعويذ بها، مثل ما في «الكافي» في اسناده عن السكوني، عن الإمام الصادق، عن آبائه عليهم السلام قال: «شكى رجل وجعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله في صدره فقال: استشف بالقرآن فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ﴾» [يونس : ٥٧][1].

وعن سلمة بن محرز، قال: سمعت أبا جعفر يقول: «من لم يبرءه

(١) الكافي ٢ : ٦٠٠ ح٧.

الحمد لم يبرءه شيء»[1].

وعن إبراهيم بن مهزم، عن رجل سمع أبا الحسن يقول: «من قرأ آية الكرسي عند منامه لم يخف الفالج إن شاء الله، ومن قرأها في دبر كلّ فريضة لم يضرّه ذو حمة»[2].

وفي «مجمع البيان» من كتاب العياشي باسناده إنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ قال: فقال له جابر: بلى بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله علّمنيها، قال: فعلّمه الحمد أُمّ الكتاب.

ثمّ قال: يا جابر ألا أُخبرك عنها؟ قال: بلى بأبي أنت وأُمّي فأخبرني، فقال: هي شفاء من كلّ داء إلاّ السام ـ والسام الموت ـ[3]، إلى غير هذه الأحاديث المستفاضة ممّا لا حاجة إلى ايرادها هنا بعد أن استوفيناها في المجلّد الثاني من كتابنا «الجواهر الروحية».

وأمّا الأرواح فلأنّه بما تضمنه من فنون العلوم شفاء لأمراض الجهل، فقد ظهر بذلك كونه شفاءً للأبدان من الأوجاع والأسقام، وشفاءً للقلوب من كلّ شك وريب وشبهة، ويصدّق ذلك قوله تعالى في سورة فصّلت آية ٤٤ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ﴾ وفي سورة

---

(١) الكافي ٢ : ٦٢٦ ح٢٢.

(٢) الكافي ٢ : ٦٢١ ح٨.

(٣) مجمع البيان ١ : ٣٦؛ عن تفسير العياشي ١ : ٢٠ ح٩.

بني اسرائيل آية ٨٢: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْـقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلّا خَساراً﴾.

قال الطبرسي: وجه الشفاء فيه من وجوه: منها ما فيه من البيان الذي يزيل عمى الجهل وحيرة الشك، ومنها ما فيه من النظم والتأليف والفصاحة البالغة حدّ الاعجاز الذي يدلّ على صدق النبي صلى الله عليه وآله، فهو من هذه الجهة شفاء من الجهل والشك والعمى في الدين، ويكون شفاءً للقلوب.

ومنها أنّه يتبرّك به وبقراءته، ويستعان به على دفع العلل والأسقام، ويدفع الله به كثيراً من المكاره والمضارّ على ما تقتضيه الحكمة.

ومنها ما فيه من أدلّة التوحيد والعدل وبيان الشرائع، فهو شفاء للناس في دنياهم وآخرتهم، ورحمةً للمؤمنين ـ أي نعمةً لهم ـ وإنّما خصّهم بذلك لأنّهم المنتفعون به، فقد يحصل من ذلك أنّه شفاء لا يخاف أن يعقب سقماً، لأنّ الكمالات النفسانية الحاصلة من قراءته وتفكّره وتدبّر آياته تصير ملكات راسخة لا تتبدّل بأضدادها ولا تتغيّر.

والتاسعة: كونه عزّاً لا تهزم أنصاره: أي لا تغلب ولا تقهر.

والعاشر: كونه حقّاً لا تخذل أعوانه: والمراد بأعوانه وأنصاره هم المسلمون العارفون بحقّه، العاملون بأحكامه.

والحادية عشر: ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «فهو معدن الايمان

وبحبوحته» أمّا أنّه معدن الايمان فلأنّ المعدن عبارةً عن منبت الجوهر من ذهب وفضة ونحوهما، ولما كان الايمان بالله وبرسوله جوهراً نفيساً لا جوهر أنفس منه ولا أعلى عند ذوي العقول، ولما كان يستفاد من القرآن ويستخرج منه جعله معدناً له، وأمّا أنّه بحبوحته ووسطه فلأنّ الايمان بجميع أجزائه وشرائطه ومراسمه يدور عليه، فهو بمنزلة القطب والمركز لدائرة الايمان كما هو ظاهر.

والثانية عشر: أنّه ينابيع العلم وبحوره، أمّا انّه ينابيع العلم: فلأنّ العلوم بجميع أقسامها منه تفيض كالعيون الجارية منها المياه، وأمّا انّه بحوره فلاحتوائه بفنون العلم كاحتواء البحر بمعظم الماء.

والثالثة عشر: أنّه رياض العدل وغدرانه، أمّا كونه رياض العدل فلأنّ الرياض عبارةً عن مجامع النبات والزهر والرياحين التي تبتهج النفوس بخضرتها، وتستلذّ الطباع بحسنها وبهجتها، كما قال تعالى: ﴿حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل : ٦٠] فشبّه التكاليف الشرعية المجعولة عن وجه العدل والحكمة بالزهر والنبات الحسن لايجابها لذّة الأبد، وجعل الكتاب العزيز رياضاً لها لاجتماعها فيه واستنباطها منه.

وأمّا كونه غدران العدل، فلأنّ الغدير عبارةً عن مجمع الماء، فشبّه الأحكام العدلية بالماء لما فيها من حياة الأرواح كما أنّ بالماء حياة الأبدان، وجعله غديراً لجامعيّته لها.

والرابعة عشر: أنّه أثافي الإسلام وبنيانه: والأثافي هي عبارةً عن

الأحجار التي عليها القدر، فجعله عليه السلام أثافياً للإسلام لاستقراره وثباته عليه، مثل استقرار القدر على الأثافي، وبهذا الاعتبار أيضاً جعل الصلاة والزكاة والولاية أثافيه.

***

## الفصل السابع
## في التقوى ومكارم الأخلاق

«واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ وَالاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَالأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِـحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذلِكَ بِتَفَهُّم وَتَعَلُّم، لاَ بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ الْـخُصُومَاتِ.

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذلِكَ بِالاسْتِعَانَةِ بِإِلهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَة أَوْلَـجَتْكَ فِي شُبْهَة، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلاَلَة. فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ

فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أنت لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْـعَشْوَاءِ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالإِمْسَاكُ عَنْ ذلِكَ أَمْثَلُ».

***

إنّ مسألة التقوى لم يفتأ الإمام عليه السلام يكرّر الوصية بها في مواعظه وارشاداته البالغة، كما يتّضح ذلك بجلاء إذا ما عطفت نظرة واحدة على هذه الوصيّة الخاصّة، وبقية وصاياه ومواعظه عامّة، ومنشأ ذلك: هو أنّ التقوى أساس التعبّد، وأصل الطاعة، وبها تؤتى الأعمال على أتمّ الوجوه.

### حقيقة التقوى:

ولقد كان من أهمّ ما دعا إليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بعد الدعوة إلى الايمان والإسلام، الدعوة إلى التقوى، وجعلها معيار التفاضل بين المسلمين حيث يقول: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى»[1].

---

(١) الاختصاص : ٣٤١؛ عنه البحار ٢٢ : ٣٤٨ ح٦٤.

وبقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣].

وقضى ﷺ كلّ أيّامه وهو ينصح المؤمنين بالتزامها والتزوّد منها، حيث يقول تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الالْبابِ﴾ [البقرة : ١٩٧] وجاء القرآن مليئاً بالآيات التي تدعو إلى التقوى ـ كما سبق لنا أن أشرنا إلى ذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب ـ وأخبرنا جلّ وعلا بأنّ جميع الأعمال التعبدية، لم تشرع إلاّ لتكون وسائل إلى التقوى، بما تطبعه في النفس من ملكة مراقبة الله، فتكون تقيّة نقيّة، راضية مرضية.

ولقد حسبها بعض الناس درجة في الصلاح لا تنال إلاّ بالتفرّغ للصلوات، وملازمة المساجد، والانقطاع عن الدنيا، والزهد في كلّ ما فيها من الملذّات، ممّا يكون دليله في الظاهر الفقر والمسكنة، ولبس مرقوع الثياب، وهذا خطأ لا يقرّه الإسلام.

فالتقوى في اللغة مشتقّة من اتّقى فلاناً ـ أي حذره وخافه ـ فتقوى الله مخافته وتجنّب كلّ ما يغضبه.

وهي أثر الايمان الكامل بالله، وهي النتيجة الطبيعية التي يصل إليها كلّ من يؤمن بأنّ الله الذي خلقه وأبدع كلّ دقيقة في جسمه، قادر على تعذيبه عاجلا وآجلا، إذا هو أقدم على معصية واستهان بأوامره، كما يوقن بعلمه تعالى بكلّ شيء يصدر منه، بحيث يتصوّره مشرفاً عليه

حتّى في خلواته، ورقيباً على جميع حركاته وسكناته، فيحمله هذا على محاسبة نفسه عن كلّ فعل، فلا يقدم على أيّ أمر فيه معصية خالقه أو الاضرار بمصالح عباده، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١].

وذكر الله العصاة بعلمه بكلّ ما يصدر منهم، وتوعّدهم بعذابه حيث قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق ١٥-١٣] وأمرنا أن نتخيّر في أعمالنا ما ينفعنا في الحياة الأُخرى حيث قال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر : ١٨].

### خمسُ خصالٍ للمتقين:

وأخبرنا الله جلّ وعلا بأنّه قد أعدّ الجنّة في الآخرة للمتّقين، ووصفهم لنا بأعمالهم المنبعثة عن قوّة ايمانهم بقلوبهم إشارةً إلى أنّ التقوى هي في الأُمور التي يشعر بها الإنسان في نفسه، فيدرك مبلغ قربه من ربّه ورضائه عنه، ولو لم تدلّ على ذلك مظاهره حيث يقول تعالى:

﴿وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦-١٣٣].

وهذا صريح في أنّ التقوى ليست بكثرة الصلاة والصوم وأمثالهما من العبادات الظاهرة، وليست هي بالتقشّف والدروشة، وإنّما تتحقّق بخمس خصال هي:

١ ـ حبّ البذل والانفاق في سبيل الله في حالتي الشدّة والرخاء.

٢ ـ ضبط النفس ومقاومة هواها فيما يغضب مولاها.

٣ ـ الأخذ بمبدأ التسامح والعفو عند القدرة.

٤ ـ الاحسان إلى المسيء.

٥ ـ مراقبة الله ودوام الخوف منه والرجوع إليه من أثر المعاصي بالندم والاستغفار، وعدم الاصرار على فعل السيّئات.

فالتقوى بهذا الاعتبار من الأُمور التي لا تمنع المسلم في هذه الحياة من العمل للدنيا، ولا تحرمه من التمتّع بملذّاتها المشروعة، ولا تفرض عليه مقاومة نفسه إلى حدّ المستحيل في ترك المعاصي كلياً، بل إنّما تدعوه فقط إلى مراقبة الله، والخوف منه والثقة به، والرجوع إليه بطلب الرحمة والغفران في كلّ وقت لا سيّما عند كلّ زلّة ومعصية.

ومن أجل هذا حرص الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله على أن يمكّن في قلوب أتباعه خوف الله، واليقين بقدرته على كلّ شيء إلى حدّ ينتفي

معه الخوف من غيره تعالى، وحصر الأمل فيه جلّ وعلا دون سواه، باعتباره هو وحده صاحب السلطان المطلق، القادر على وقاية كلّ من يريد وقايته في كلّ مكروه، وينصر من يريد نصرته بما يملك من قوى خفيّة وظاهرة، حيث يقول تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢].

## حق التقوى:

وحقّ التقوى هو خوف الله أكثر من كلّ ما سواه، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

وحقّ التقوى هو أن يؤثر الإنسان عفو الله وغفرانه وثوابه في الآخرة عن كلّ شيء في الدنيا، بل يتحمّل في سبيل ذلك مرّ العذاب، ولذلك امتدح الله في كتابه أُولئك السحرة الذين آمنوا بالله ايماناً لم يبالوا معه بالجهر بعقيدتهم، برغم ما توعّدهم به فرعون من أنواع العذاب حيث:

﴿قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ [طه : ٧٠-٧٣].

## نتيجة التقوى:

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى ما يترتّب على التقوى وخوف الله، من مجانبة النفس للشهوات الممقوتة، وما يكون جزاءها على ذلك في الآخرة بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْـهَوى فَإِنَّ الْـجَنَّةَ هِيَ الْـمَأْوى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، ﴿وَأُزْلِفَتِ الْـجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْـغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق : ٣١-٣٣].

ولم يكتف الله بهذا في حضّ الناس على التقوى، بل إنّه تعالى أكّد لهم تخليص المتّقين في الدنيا من كلّ ما يعترضهم من مشاكل الحياة، وتيسير سبيل الرزق لهم من حيث لا يأملون، حيث يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق : ٣-٤].

ذلك لأنّ التقوى معناه دوام ذكر الله تعالى ومراقبته في جميع الأحوال وحصر الأمل فيه، وهذا من شأنه أن يمنع الإنسان عن الاقدام على كلّ أمر يعصى الله به، ويضرّ أحداً من خلقه، ويجعله كريم الخلق والعادات، وكلّ هذا ممّا يسبّب عون الله للإنسان وتأييده في كلّ موقف، وشموله برحمته وحسن رعايته، وخوف الله يقتضي تجريد قلب الإنسان من خوف غيره، ويعود هذا عليه بأعظم الفوائد في هذه الحياة.

قرأت في كتاب: «الرعاية لحقوق الله»: وقد روي في الحديث: إنّ المنادي ينادي يوم القيامة: ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْـيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] فترفع الخلائق رؤوسهم يقولون: نحن عباد الله عزّ وجلّ، ثمّ ينادي الثانية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف:٦٩] فينكس الكفار رؤوسهم ويبقى الموحّدون رافعي رؤوسهم.

ثمّ ينادي الثالثة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] فينكس أهل الكبائر رؤوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال الكريم عنهم الخوف والحزن كما وعدهم، لأنّه أكرم الأكرمين لايخف وليّه ولا يسلمه عند الهلكة.

***

**اتخاذ القدوة الصالحة:**

قوله عليه السلام: «**وَالأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبائِكَ، وَالصَّالِـحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ**».

أمره عليه السلام أن يتّخذ من سلفه الصالح قدوة يتّجه معهم حيثما اتّجهوا، وفيه واضح دلالة على أنّ من سبقوه من سلفه الطاهر، هم بمنزلة يصحّ أن يأمر مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ولده البارّ أن يقفو أثرهم، ويتّبع خطاهم في السلوك المرضيّ عند الله تعالى ولا غرو في ذلك.

فإنّ أعظم من يقتدى به من أُولئك الأطهار، هو رسول الله صلى الله عليه وآله

وأمير المؤمنين نفسه، وسروات المجد من هاشم، كشيخ الأمّة وأبي الأئمّة وسيّد الأبطح أبي طالب ـ سلام الله عليه ـ .

***

### الاستعانة بالله تعالى:

قوله عليه السلام : «وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذلِكَ بِالاسْتِعَانَةِ بِإِلهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ».

أمره عليه السلام أن يبدأ قبل كلّ شيء بالاستعانة بربّه، بأن يطلب المعونة والمساعدة على اتمام عمل لا يستطيع المستعين الاستقلال بعمله وحده.

والاستعانة بالله كلية من كلّيات العقيدة الإسلامية، عميقة الأصل ظاهرة الأثر، فلا عبادة إلاّ لله، ولا اتّجاه لغير الله، وما من قوّة في الكون إلاّ قوّته، فالله وحده يعبد، والله وحده يستعان، يقول السبزواري في أرجوزته:

أزمّة الأمور طرّاً بيده  والكلّ مستمدّة من مدده

وكما أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره؛ لأنّ السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلاّ له دون غيره فلا يشاركه فيها أحد، كذلك أمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضاً، وهذا يحتاج إلى البيان؛ لأنّه أمرنا أيضاً في آيات أُخرى بالتعاون ﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى﴾ [المائدة: ٢] فما

معنى حصر الاستعانة به مع ذلك؟

الجواب: انّ كلّ عمل يعمله الإنسان تتوقّف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدّية إليه، وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه.

وقد مكّن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوّة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك، ونبذل في اتقان أعمالنا كلّ ما نستطيع من حول وقوّة، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك، ونفوّض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كلّ شيء، ونلجأ إليه وحده، ونطلب المعونة المتمّمة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكلّ البشر على السواء إلاّ مسبّب الأسباب وربّ الأرباب.

والاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب إلى الله ، وتعلّق من النفس به، وذلك من مخّ العبادة، فإذا توجّه العبد بها إلى غير الله تعالى كان ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التي كانت ذائعة في زمن التنزيل وقبله.

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة من الإمام عليه السلام إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة:

أحدهما: أن نعمل الأعمال النافعة، ونجتهد في اتقانها ما استطعنا،

لأنّ طلب المعونة لا يكون إلاّ على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفّه حقّه ، أو يخشى أن لا ينجح فيه ، فيطلب المعونة على اتمامه وكماله ، فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه.

ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده، يطلب المعونة من غيره على رفعه، ولكن بعد استفراغ القوّة في الاستقلال به، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية، وركن من أركان السعادة الأُخروية.

وثانيهما: تخصيص الاستعانة بالله وحده فيما وراء ذلك، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص.

وهنا مفرق الطريق في التحرّر الإنساني المطلق من القوى المخلوقة جميعاً، قوى الإنسان أو قوى الطبيعة ـ أي التحرّر من عبودية النظم ومن عبودية الأوهام ـ وإذا كان الله وحده هو المستعان فقد تخلّص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، فيكون المؤمن مع الناس حرّاً خالصاً وسيّداً كريماً لا سلطان لأحد عليه، ومع الله عبداً خاضعاً مخبتاً.

وأيضاً أنّ عبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيّته، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيّته، أمّا الأوّل فظاهر؛ لأنّه هو الإله الحقّ فلا يعبد بحقّ سواه، وأمّا الثاني فلأنّه هو المربّي للعباد الذي وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم الصورية

والمعنوية.

ومن هنا تعلم أنّ ايراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم، واسم الربّ الأكرم في القرآن المجيد إنّما هو لترتّبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر على اللف.

والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكّل على الله وتحلّ محلّه، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة، ولذلك جمع القرآن بينهما في مثل قوله تعالى: ﴿وَلله غَيْبُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣].

فهذه الاستعانة هي ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة، فإنّ من معنى العبادة الشعور بأنّ السلطة الغيبيّة التي هي وراء الأسباب العامة الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة هي لله وحده، كما تنطق به الآية التي استشهدنا بها آنفاً على مقارنة العبادة بالتوكل.

فمن كان موحّداً خالصاً لا يستعين بغير الله تعالى قط، فما كان من أنواع المعونة داخلا في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلباً من الله تعالى، ولكنّه يحتاج في تحقّق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبي، وما كان غير داخل فيها يتوجّه في طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب.

وبهذا البيان تعلم أنّه لا منافاة بين التوحيد والتوكّل من ناحية، وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالى فيهما من ناحية، بل الكمال

والأدب في الجمع بينهما، فالسيّد المالك إذا نصب لعبيده وخدمه مائدة يأكلون منها غدواً وعشياً، وجعل لهم خَدَماً يقومون بأمرها لا يكون طلب الطعام منه إلاّ بالاختلاف إلى المائدة، وإنّما ينبغي أن لا يغفلوا بها وبخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذي أنشأها بماله، وسخّر أُولئك الخدم للآكلين عليها، ولا عن حمده وشكره.

هذا مثال مائدة الكون بأسبابه ومسبّباته، والعبد إذا احتاج شيئاً من الأشياء التي لم يجعلها سيّده مبذولة لجميع عبيده في كلّ وقت، طلبه منه دون سواه، فإن أظهر الحاجة إلى غيره كان ذلك من قلّة ثقته بمولاه، وجعل ذلك الغير في مرتبته أو أجدر منه بالفضل.

هذا في العبيد مع السادة الذين لهم نظراء وأنداد، فكيف إذا كان العبد الذي يتوجّه إلى مولاه لا يجد من يتوجّه إليه سواه إلاّ أمثاله من العبيد المحتاجين إلى المولى مثله، لأنّه هو السيّد الصمد الذي ليس له كفؤاً أحد؟

ثمّ انّ لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الربّ تعالى الاعانة على شيء له فيه كسب ليعينه على القيام به، وفي هذا تكريم للإنسان يجعل عمله أصلا في كلّ ما يحتاج إليه لا تمام تربية نفسه وتزكيتها، وإرشاد له إلى أنّ ترك العمل والكسب ليس من سنّة الفطرة ولا من هدي الشريعة، فمن تركه كان كسولا مذموماً لا متوكّلا محموداً، وبتذكره من جهة أُخرى بضعفه لكيلا يغترّ فيتوهّم أنّه مستغن بكسبه عن عناية ربّه فيكون من الهالكين في عاقبة أمره.

وصفوة القول إنّ الذي استعرضناه، هو الذي يقتضيه محض الايمان بالله، إذ الاستعانة بالله شعبة من شعب الايمان به وفرع من فروعه.

***

## الفصل الثامن
## الاعتراف بالجهل وطلب العلم

«فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْـمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْـحَيَاةِ، وَأَنَّ الْـخَالِقَ هُوَ الْـمُمِيتُ، وَأَنَّ الْـمُفْنِيَ هُوَ الْـمُعِيدُ، وَأَنَّ الْـمُبْتَلِيَ هُوَ الْـمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالابْتِلاءِ، وَالْـجَزَاءِ فِي الْـمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لاَ تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلا ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذلِكَ!».

***

**التوحيد في كل الحالات:**

قوله عليه السلام: «فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْـمَوْتِ هُوَ

مَالِكُ الْـحَيَاةِ، وَأَنَّ الْـخَالِقَ هُوَ الْـمُمِيتُ، وَأَنَّ الْـمُفْنِيَ هُوَ الْـمُعِيدُ، وَأَنَّ الْـمُبْتَلِيَ هُوَ الْـمُعَافِي».

يرمز ـ صلوات الله عليه ـ بهذا القول إلى التوحيد فيما ينوب الإنسان من أحوال متفاوتة، وعوارض متباينة، ويعلم بذلك أنّه في كلّ حال تحت قبضة المولى سبحانه وقدرته مسيطرة عليه، فلا يمكنه الحيدان عن سلطانه، ولا المهرب من بطشه.

فإذا شيئت له الحياة فبمشيئته، وإذا تقرّرت له الوفاة فتحت نفوذه وقهره، وهو الذي يدير الأمر في الحالين ويدبّره، وإنّ الذي يباشر تكوينه منذ بدأ الخليقة هو الذي يعيد كيانه بعد فناء حياته وبلاء جثمانه، فهو الذي أنعم عليه بنعمة الخلقة أوّلاً وسوف يعيده إلى النعيم الخالد أو العذاب الواصب.

وقيّد خيرة الإنسان ما يرتئيه لمستقبله الكشّاف من خير وشر، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها﴾ [الأسراء : ٧] وإنّ الذي يمتحنه ليظهر مدى صبره المتأكّد، وايمانه الراسخ هو الذي يمنحه العافية والنجاة. والبلاء على ما يقال منحة ومحنة، فقد يراد التشديد عليه لاكبار مقامه وعلوّ رتبته، فيثاب عليه ويظهر فضله ومقدار صبره، وقد يرام منه الشدّة فحسب من غير انتهاء إلى مثوبة فهو نقمة وخذلان نعوذ بالله منهما، وقديماً ما قيل «التكليف بلاء» لما فيه من المشقّة للبدن، والمخالفة للنفس.

***

### سير الدنيا يتطابق مع الحكمة الإلهية:

قوله عليه السلام: «وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالابْتِلاءِ، وَالْـجَزَاءِ فِي الْـمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ».

يريد عليه السلام أنّ الدنيا وكلّ ماجرياتها مطابق للصالح الأتمّ، وإن كان الإنسان لجهله لا يعرف كلّ تلكم المصالح، فمن العبث السير الحثيث وراء إبقاء ما يرتئيه ويحسبه صالحاً، والانهماك دونه بحيث يلهيه عن الانقطاع إلى بارئه، وهو جدّ عليم بأنّ الذي يعلم حقائق الأحوال وصوالح الأعمال ليس إلاّ المولى سبحانه.

وإنّ ممّا يتوقّف عليه استقرار الدنيا هو الاعتقاد بأنّ ما يقع فيها من الأعمال فالصالح منها منته إلى المثوبة الإلهية، وأمّا الطالح فما له إلاّ العقوبة الأُخروية، أو ما يصيب الإنسان في حياته من العلل والأوصاب التي يقصد بها التأديب والتهذيب، وهذا النوع من الناس أحسن حالا ممّن تدّخر عقوبته ليوم الحساب، فإنّ ذلك ممّا لا قبل لأيّ ابن أُنثى له فإنّه الخزى والهوان.

***

### الدعوة إلى التعلّم والاعتراف بالجهل:

قوله عليه السلام: «فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ،

وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذلِكَ».

فأمّا قوله هذا: فلعلّ فيه ايعازاً إلى الطبيعي من أحوال الإنسان من التدرّج في العلوم، وإنّه بطبعه الأوّلي خلوٌّ منها، ثمّ إنّ الحنكة والتجاريب والسمع الصادق توقفه على الحقائق الراهنة وما عزب عنه منها، من غير نظر إلى شخصية الإمام المجتبى عليه السلام التي هي شرع سواء في مباشرة العلوم حتّى في عالم الأجنة، فهو من سادة من بعث في المهد نبيّاً، وفاز بشرف النبوّة صبيّاً.

وليس عهد عيسى ويحيى عليهما السلام عنّا ببعيد، ولا لما أوتياه من رفعة المقام مزيد على ما أُوتي الإمام السبط عليه السلام، إذاً فما هو إلاّ الاشارة والايعاز إلى الطبيعي من أحوال الإنسان وتدرّجه في العلوم، ليصل إلى معرفة الواجب عليه، الباعث على القيام باللاّزم له من شرائع دينه وتوابع دنياه، فيخرج من ظلمة الجهل إلى نور الهدى.

من أجل ذلك فرض الإسلام على الأُمّة التي تعتنقه أن تكون أُمّة متعلّمة ترتفع فيها نسبة المثقّفين، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين.

ذلك لأنّ حقائق هذا الدين ـ من أصول وفروع ـ ليست طقوساً تنقل بالوراثة، أو تعاويذ تشيع بالايحاء، وتنتشر بالايهام، كلاّ إنّها حقائق تُستخرج من كتاب حكيم ومن سنّة واعية، وسبيل استخراجها لايتوقّف على القراءة المجرّدة، بل لابدّ من أُمّة تتوفّر فيها الأفهام الذكية، والأساليب العالية، والآداب الكريمة.

ولا شكّ أنّ مدارسة مناهج الإسلام تخلق في أيّ أُمّة تعنى بها جوّاً من الفقه التشريعي القائم على الأوامر والنواهي ـ أي بالحقوق والواجبات ـ وجوّاً من الآداب الاجتماعية الدقيقة المتعلّقة بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجوّاً من البحث والاجتهاد الصحيح لمدّ رواق الإسلام على ما تفد به الأعصار من أقضية شتى، وشؤون متجدّدة.

فإذا قلّت هذه العناصر في بيئة مّا اضمحلّ أمر الإسلام وذبلت أغصانه، كما تبلى الشجرة الباسقة في أرض ذَهَبَ خصبها، وجفّ ماؤها.

وهناك بعد ذلك التفكير في الكون الذي أطرد الأمر به في سورة القرآن، واعتبر الأساس الأوّل لاقامة ايمان ثابت وطيد، إنّ هذا التفكير هو الذي فتق الأذهان عن روائع الحضارة الحديثة، ويسرّ للدنيا هذه الكشوف الجليلة لأسرار الوجود، وسخّر للناس ما لم يكونوا يحلمون به.

ثمّ هناك أيضاً التوصية باتّباع الحقّ وحده والبحث عنه مهما خفي، واستنكار الظنون العائمة، والنهي عن الجري وراءها، ووضع رقابة محكمة على السمع والبصر والفؤاد، إنّ هذا كفيل بايجاد مجتمع بعيد عن الخرافات، منزّه عن الأوهام والمساخر، لا مجتمع يفيض بالشعوذة وتتركّز فيه الأراجيف والترهات، وتحكمه تقاليد غامضة ما أنزل الله بها من سلطان.

إنّ العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقراً له إلاّ عند أصحاب المعارف الناضجة، والألباب الحصيفة.

ولأمر ما يقول الله تعالى عنه: ﴿هذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْـبابِ﴾ [إبراهيم : ٥٢]. ويقول مصوّراً أحاديث أهل جهنّم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك : ١٠].

ويقول فيمن طمست مشاعرهم، وماتت مواهبهم، واستغلقت أذهانهم: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٧١].

إنّ الله شرّف الحياة بالإسلام بعدما بلغت رشدها، ونمت قواها، واستعدّت لأن تتلقّى منه أزكى التعاليم وأرقاها، فكان مجيئه ملائماً لتطوّر الحياة نحو الكمال، بل كان هو شوطاً واسعاً في الخطو بها نحو الرقي المادي والأدبي.

وأنت إذا نظرت إلى الصلاة ـ وهي العبادة الأُولى في الإسلام ـ وجدت أداءها والأذان لها عملا عقلياً بحتاً، فالدعوة إلى الصلاة كلمات تقرع العقل، وتوقظ القلب، تكبير لله وشهادة بتوحيده، وحثّ على الفلاح، وليست جرساً يرسل رنينه في الفضاء، ويخاطب المشاعر المبهمة، والصلاة نفسها آيات تتلى من كتاب جامع لعزائم الخير ودلائل الرشد، ومدى قبولها مقرون بصحو الفكر في اقامتها، وتدبّر العقل لمعانيها.

والحقّ أنّه على قدر ذكاء الشخص واستنارته واستقامة فطرته يكون رسوخ قدمه في الإسلام، وهيهات أن يسبق في هذا الدين بليد الرأي سقيم الوجدان.

إنّ أوّل ما نزل من آيات القرآن قول الله لنبيّه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْـقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ٥-١].

وهذه أوّل صيحة تسمو بقدر القلم، وتنوّه بقيمة العلم، وتعلن الحرب على الأُمّية الغافلة، وتجعل اللبنة الأُولى في بناء كلّ رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلّم.

وسما الله عزّ وجلّ بدرجات العلماء حتّى قرنهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدانيّته، والاقرار بعدالته: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْـمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْـعِلْمِ قائِماً بِالْـقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْـعَزِيزُ الْـحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ولا غرو فأنّى للعقول الكليلة، والمعارف الضعيفة أن تدرك جلال الكبير المتعال، وأنّى لمن يعيش على هامش الحياة ـ بجهله وظلمته ـ أن يعرف الحقّ عن ربّ الحياة، أو يلمح طرفاً من صفاته العظمى وآياته الكبرى، لذلك أعزّ الله العلماء وآثرهم بكرامته وفضله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقول الله عزّ وجلّ للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيّه للفصل بين العباد: إنّي لم أجعل علمي وحلمي فيكم

إلاّ وأنا أُريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أُبالي»[1].

أُنظر إلى قوله سبحانه وتعالى: «علمي وحلمي» وأمعن النظر فيه يتّضح لك من إضافته إليه عزّ وجلّ، أنّه ليس المراد به علم أكثر أهل زماننا المجرّد عن العمل به والاخلاص.

وفي عطف الحلم على العلم ما يشير إلى أنّه علم لم يستبد به النزق ولم تسخّره الشهوات، إنّ المعرفة الجيّدة أسبق عند الله من العمل المضطرب، ومن العبادة الجافّة المشوبة بالجهل والقصور.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فضل العلم خير من فضل العبادة»[2].

وقال: «قليل العلم خير من كثير العبادة»[3].

وقال: «أفضل العبادة الفقه»[4].

وقال: «يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خيرٌ لك من أن تصلّي مائة ركعة، ولأن تغدو فتَعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلّي ألف ركعة».

والسرّ في هذا الحكم أنّ عبادة الجهّال ـ كصداقتهم ـ قليلة الجدوى، وهم يضرّون أنفسهم من حيث يريدون نفعها، ويؤذون

---

(١) البحار ٢ : ٢٥ ح٨٦.
(٢) البحار ٧٧ : ٨٧ ضمن حديث ٣.
(٣) البحار ١ : ١٨٥ ح١٠٤.
(٤) البحار ١ : ١٦٧ ح١١.

أصدقاءهم من حيث يبغون راحتهم، وجهلة العبّاد يستمسكون بالدين استمساكاً شديداً، ويتعصّبون له ظاهراً، ولكنّهم في ساعة رعونة وغباء يقفون منه الموقف الذي يلحق به الأذى والمعرّة، ويجرِ عليه المتاعب الجمّة، أمّا أُولو العلم فإنّ بصيرتهم الذكيّة تحكّم مسلكهم وتلهمهم الرشد، فلو قلّ عملهم كثر ما يصحبه من سداد وبصر.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد»(١)، وذلك لأنّ الشيطان يبدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربّه لا يتوجّه لها ولا يعرفها.

ولمّا كان ضيق الأُفق لا يدع للإيمان امتداداً، ولا للإحسان منفذاً، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْـعالِـمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٣]، وبيّن أنّ الضمير الدافع إلى الخير، الوازع عن الشر، المراقب له، الحريص على مرضاته، هو ضمير العالم المستنير الخبير بربّه. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الالْـبابِ﴾ [الزمر : ٩].

## كل أنواع العلم مطلوبة:

والعلم الذي يُقبل المسلم عليه، ويستفتح أبوابه بقوّة، ويرحل

---

(١) البحار ١ : ١٧٧ ح٤٨.

لطلبه من أقصى المشارق والمغارب، ليس علماً معيّناً محدود البداية والنهاية، فكلّ ما يوسّع مفاتيح النظر، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان، وكلّ ما يوثق صلة الإنسان بالوجود، ويفتح له آماداً أبعد من الكشف والادراك، وكلّ ما يتيح له السيادة في العالم، والتحكّم في قواه، والافادة من ذخائره المكنونة، ذلك كلّه علم ينبغي التطلّع له والتضلّع فيه، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه، وهذا الشمول دلّت عليه الآيات والسنن.

فأمّاالأحاديث المشيرة إلى التزوّدمن المعارف أيّاًكانت فكثيرة، منها قول رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنّة»[1].

وقال: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى، أو يردّه عن ردى»[2].

فالسياق في هذه السُنَن يوجّه إلى أيّ علم يُطلب، وتعلّم الخير وكلما يقي من الضرر، وما يقرّب من النفع، إنّ الإسلام رفع منازل العلماء وقدّر جهودهم، وكرّم ثمارهم إلى حدّ بعيد.

***

(١) البحار ١ : ١٦٤ ح٢.

(٢) احياء العلوم ١ : ٨٠ / في العقل.

## الفصل التاسع
## الاعتصام بالله وإخلاص العبادة له

«فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ. وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ نبيّنا ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ».

***

الاعتصام بالله سبحانه بعد رسوخ الإيمان بأنّه واحد لا شريك له ولا مفزع منه إلاّ إليه ـ بطبع الحال ـ يجعل اتّجاه الإنسان في كلّ شؤونه واحداً، فلا يبغي عند أي أحد فوزاً وفلجاً، ولا يعتقد النجاح إلاّ به ولا النجاة إلاّ بالاتّصال بهيمنته وقدسه، ولا الانفلات من إصابة الفتن والأضرار إلاّ بكلاءته، فهذا من أعظم المواد الداعية إلى التوحيد.

***

## نِعمة الخلق والرزق والاستواء:

قوله عليه السلام: «خَلَقَكَ، وَرَزَقَكَ، وَسَوَّاكَ».

هذه المواد الثلاثة كاقامة البرهنة على ما قدّمه من الاعتصام بالله سبحانه، فهو يوعز إلى أنّ سلوك طريقة التوحيد كما شرحناه ليس تعبّداً محضاً، فإنّه معلّل بنعم وآلاء لا تُحصى، والإنسان مغمور بها في حلّه ومرتحله، وإنّ من أعظمها بل هو أعظمها خلق الإنسان وإنقاذه من حيز العدم، وإفاضة الوجود عليه مشفوعاً بالعلم والمعرفة.

ومن هاتيك النعم نعمة الرزق، شرع سواء في ذلك الرزق الذي به حياة القلب من المعارف الإلهية، والرزق الذي به حياة البدن ونحوه.

ومن تلكم النعم العالية ما أشار إليه عليه السلام: نعمة التسوية في الخلق، وهو مانشاهده في خلق الإنسان على أحسن تقويم، وله الحواس الخمس التي لا غنية له عنها، والعناصر التي ركّب منها بدن الإنسان، وفيه المتباينات والمتقاربات حتّى عاد الإنسان المثل الأعلى من بداعة في الصنع، وإتقان في التنسيق، وإحكام في التلفيق، فسبحان الله أحسن الخالقين.

إنّ أصحاب الإمام السجاد عليّ بن الحسين أو الإمام الباقر محمّد بن علي ـ سلام الله عليهما ـ سألوه: أليس الله يقول: يا عبادي أُدعوني استجب لكم؟ قال: صدق الله العظيم، بلى هو قائل ذلك، قالوا: فما بالنا ندعوه ليل نهار فلا يستجيب لنا؟ قال: لأنّكم تدعون من لاتعرفون، قالوا: وكيف نعرفه؟ قال: اعرفوا نفوسكم تعرفوه ثمّ ادعوه يستجب لكم، قالوا: وكيف نعرف نفوسنا؟ قال: فكّروا في أعينكم كيف

تبصر، وفي آذانكم كيف تسمع، ثمّ في قلوبكم كيف تفكّر، فإذا عرفتم ذلك شعرتم بعظمة الله في نفوسكم، فدعوتموه فاستجاب لكم.

***

## الإخلاص في العبادة:

قوله عليه السلام: «وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ».

وبما أنّ حاجة الحيّ إلى ما ذكرناه من التسوية مسيسة، بحيث لو اختلف شيء منها بزيادة أو نقيصة اختلّ نظام حياته، فمن واجبه إذن شكر المولى سبحانه على جميع ما قلناه بوضع كلّ منها في موضعه المعدّ له، فيكون له تعبّده إذ لا يستحقّ العبادة بما اكتنفته من مظاهر الجلال والجمال والكمال سواه.

ويكون إليه رغبته لأنّه لا مطمع له لكشف الكروب والمحن غيره، ويكون منه خشيته لأنّه لا منجاة من مقبلة الأخطار في الدنيا والآخرة عداه، ولقد قيل: «رأس الحكمة مخافة الله».

بدأ عليه السلام في إصلاح النفس الإنسانية بملازمة التوحيد، ثمّ انعطف على ما هو أوصل الطرق إلى الحقيقة الراهنة من طريق السمع، فقال: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ نبينا ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً».

***

إنّ المدقّق في موادّ شريعة الرسول محمّد صلى الله عليه وآله جد عليم، بأنّه ليس فيها إلاّ كلّ ما يمدّ حياة العلم والعمل، ويكبح المعاثر عن طريق الدين

والهدى والمعرفة والصلاح، وهي حافلة بمناجح البشر في سائر أحواله وأطواره، كافلة بالمعارف الإلهية جمعاء.

فليس في الكتب السماوية قبل القرآن ـ إن بقي شيء منها غير محرّف ـ ما يتعرّض لجملة منها، وفي المحرّف منها أشياء هي للخرافة أقرب منها إلى الحقائق، أليس من الحري أن تكون شريعة محمّد صلى الله عليه وآله متبوعة للبشر كافة، ويتّخذ الصادع بها رائداً وقائداً كما ذكر عليه السلام ؟

***

قوله عليه السلام : «فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ». هذا تأكيد منه عليه السلام لما قدّمه من النصح الكافل لسعادة الإنسان فيما عنّ له من الأمر، من الاعتصام بحبل الله سبحانه والرجوع إلى قول المشرّع الأعظم صلى الله عليه وآله، اللاّزمين لمن يتحرّى الحياة الخالدة، وجمام النفس فيها.

على أنّ ما ذكره عليه السلام من النصح الأبوي الذي لا يبارح ما بين الوالد والولد من العلائق الودية، ولا سيّما إذا كان ملقي العظة إماماً معصوماً كمولانا أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّه لا يدع في النفوس منها منزعاً، ولا يترك لقائل مقالا، وهب أنّ الإمامة شرع سواء في الوالد والولد كالعصمة لكن لأمير المؤمنين عليه السلام فضله الظاهر على بقيّة الأئمة عليهم السلام ، فهو ـ سلام الله عليه ـ أنظر إليهم منهم بأنفسهم، وإن جدّوا فيما نظروا ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

❊❊❊

# الفصل العاشر
## دلائل التوحيد وواجبات الموحّدين

«وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتَهُ، وَلكِنَّهُ إِلهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لاَ يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بِلاَ أَوَّلِيَّة، وَآخِرٌ بَعْدَ الأَشْيَاءِ بِلاَ نِهَايَة. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْب أَوْ بَصَر.

فَإِذَا عَرَفْتَ ذلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَن، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيح».

***

## تعدّد الطرق إلى الله:

لأهل العلم في الدلالة على توحيد الله تعالى شأنه مسالك وطرق بعضها واضح وبعضها خفي، وما خفي منها فإنّما هو لابتنائه على أُمور ومسائل قد تكون دقيقة في نفسها ، وقد تكون دقيقة باعتبار أنّ الأفهام لم تمارسها ولم تألف الدنوّ إليها، والاقتراب منها، ولا الحوم حولها.

نرى الله تعالى في كتابه يقيم الدليل على توحيده بأنّه لو كان إله غيره لفسدت السماوات والأرض. ونرى أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام يستدلّ على توحيد الله بأنّه لو كان غيره لأتتنا رسله، ولرأينا آثار ملكه وسلطانه. ونجد أرسطاطاليس من فلاسفة اليونان يستدلّ على توحيد الله ووحدته بوحدة العالم الموجود منه. ونجد صاحب الأسفار من فلاسفة المسلمين يستدلّ على وحدته تعالى بوجوب وجوده، وإمكان وجود غيره.

وآخر يقول: بأنّ واجب الوجود واحد، ويجب في الإله أن يكون واحداً، لاستحالة أن يكون الإله غير واجب الوجود. إلى غير ذلك من المسالك والمناهج التي ترى أنّ بعضها أوضح وأنور من بعض.

والله تعالى لا يريد أن يفرض القول بوحدانيّته فرضاً بلا دليل وبلا برهان، بل يريد أن يكون الايمان بوحدانيّته والتصديق بألوهيّته دون غيره بالدليل الواضح، والبرهان الجلي بصورة لا تزعزعه الشبه، ولا تزلزله التشكيكات.

وانّ مسألة التوحيد مسألة شغلت بال العالم قديماً وحديثاً، ولا تزال محلّ النقض والابرام بين الموحّدين من المسلمين وبين غيرهم، بل بين المسلمين أنفسهم، فإنّ كثيراً من الفرق الإسلامية كالمجسمة، والمشبهة، والغالية، نبوا وابتعدوا عن القول بالتوحيد، بل ربّما انغمس في دنس الشرك من يرى نفسه موحّداً من حيث لا يعلم.

ففي الحديث : «ولو أنّ أحداً قال لشيء فعله الله أو فعله رسوله صلى الله عليه وآله ألا فعل خلاف ذلك، أو وجد ذلك في نفسه عدّ مشركاً، ثمّ تلى قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ » [النساء : ٦٥][(١)].

ولعلّ إلى هؤلاء يشير الله سبحانه بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ٢٢-٢٤].

فهؤلاء لا يجوز أن يكونوا ممّن دخل في الشرك صريحاً بل ممّن دخل فيه من حيث لا يعلم، وانغمس في حمأته من حيث لا يشعر، أتي من قبل غفلته وإهماله وتفريطه في أمر دينه ولذلك لم يكن معذوراً.

ومن هنا يتبيّن لك أنّ الشرك ذو شعب متعدّدة، وأطراف

---

(١) راجع تفسير العياشي ١ : ٢٥٥ ح١٨٢، وتفسير الميزان ٤ : ٤١٣.

مترامية، وإنّ غير المتحفّظ لا يأمن من الولوج فيه، والدخول في بعض شعبه وأطرافه.

ونحن إذ نتقدّم للكتابة فيه إنّما نتقدّم لنبرئ النفوس منه ونطهّرها من رجسه، ونحيد بها عن الانغماس في حمأته، وعن الدنوّ والاقتراب من مدارجه وموالجه، والله هو المسؤول للاعانة على توضيح ذلك وإفهامه.

قد تفنّن المفسّرون في التعبير عن الدليل المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء : ٢٢].

قال البيضاوي في تفسيره: «﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ﴾ غير الله، وصفت ـ بإلاّ ـ لما تعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها، ودلالته على ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه. والمراد ملازمته لكونها مطلقاً أو معه حملا لها على غير، كما استثني بغير حملا عليها.

ولا يجوز الرفع على البدل لأنّه متفرّع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير موجب، ﴿لَفَسَدَتا﴾ لبطلتا، لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنّها إن توافقت في المراد تطاردت عليه القدر، وإن تخالفت فيه تعاوقت عنه»(١).

وقال الزمخشري في كشّافه عند ذكر الآية: «وصفت آلهة بإلاّ كما توصف بغير لو قيل آلهة غير الله. قال: فإن قلت: ما منعك من الرفع

(١) تفسير البيضاوي ٢ : ٦٧ سورة الأنبياء.

على البدل ـ قلت: ـ لأنّ لو بمنزلة إنْ في أنّ الكلام معه موجب، والبدل لا يسوغ إلاّ في الكلام غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾ [هود : ٨١]، وذلك لأنّ أعمّ العام يصحّ نفيه ولا يصحّ إيجابه، والمعنى: لو كان يتولاّهما ويدبّر أمرهما آلهة شتّى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا.

وفيه دلالة على أمرين، أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبّرهما إلاّ واحد، والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلاّ إيّاه وحده لقوله: ﴿إلاّ الله﴾.

قال: (فإن قلت): لم وجب الأمران «قلت»: لعلمنا أنّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف، قال: وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمر بن سعيد الأشدق: كان والله أعزّ علي من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول[1].

وقال صاحب مجمع البيان عند ذكر الآية: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ ومعناه لو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله لفسدتا وما استقامتا، وفسد من فيهما ولم ينتظم أمرهم، وهذا هو دليل التمانع الذي بنى عليه المتكلّمون مسألة التوحيد، قال:

وتقرير ذلك أنّه لو كان مع الله سبحانه إله آخر لكانا قديمين،

---

(١) الكشّاف ٣ : ١٠٩و١١٠ تفسير سورة الأنبياء.

والقدم من أخصّ الصفات، فالاشتراك فيه يوجب التماثل، فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيين، ومن حقّ كلّ قادرين أن يصحّ كون أحدهما مريداً لضدّ ما يريده الآخر من إماتة وإحياء، أو تحريك وتسكين، أو إفقار وإغناء ونحو ذلك.

فإذا فرضنا ذلك فلا يخلو امّا أن يحصل مرادهما وذلك محال، وامّا أن لا يحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين، وامّا أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول قادراً، فإذاً لا يجوز أن يكون الإله إلاّ واحداً.

قال: ولو قيل إنّهما لا يتمانعان لأنّ ما يريده أحدهما يكون حكمة فيريده الآخر بعينه ـ والجواب ـ إنّ كلامنا في صحّة التمانع لا في وقوع التمانع، وصحّة التمانع يكفي في الدلالة، لأنّه يدلّ على أنّه لابدّ من أن يكون أحدهما متناهي المقدور فلا يجوز أن يكون إلهاً. انتهى موضع الحاجة[1].

وأقول: إنّ الآية ظاهرة بلزوم الفساد للتعدّد، والتمانع جائز وليس بلازم، فالفساد الآني من قبل التمانع جائز فكيف يكون لازماً، والقول الصحيح ما أفاده البيضاوي، من أنّ التعدّد ملزوم أحد أمرين: أمّا الاتّفاق وأمّا الاختلاف، وبالاتّفاق تكون المطاردة، وبالاختلاف تكون المعاوقة والممانعة، وفي كلّ منهما الفساد وهو لازم على كلا الحالين فتدبّر.

---

(١) مجمع البيان، تفسير سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

وتنبّه إلى أنّ المفسّرين لا يريدون الاستدلال على التوحيد بالآية، إنّما يريدون الاستدلال بالبرهان العقلي الذي أشارت إليه الآية، وإنّ كثيراً من الآيات تنبّه إلى البراهين العقلية، وتشير إليها ليؤخذ بها ويعتمد عليها.

وكأنّ الله سبحانه يريد أن يدعم الحقّ ويثبته، ويجعله محكماً قارّاً باقامة الأدلّة والبراهين عليه من ناحيتي العقل والنقل، يريد أن يستعمل الإنسان عقله ويسترشده ـ وهو رسوله الباطني ـ كما يسترشد الأنبياء والرسل، ويجتمع به كما يجتمع بهم في مهمّات مسائله ومعاضل أحكامه.

لا يريد الله أن يفرض على الإنسان فيما يرجع إلى أُصول دينه وحقائق عقيدته الأمر فرضاً، ويجبره على العلم والاعتقاد إجباراً، علماً منه سبحانه أنّ الاعتقاد من الأفعال القلبية، والقلب لا يجبر على شيء من فعله، يريد الله بالانسان أن يمشي على بيّنة ويسير على ضوء، ولا يحكم إلاّ بدليل وبرهان، وذلك شأن الدين الحقّ وهو الهادي إليه.

إنّ محلّ الشاهد، وموضع القصد من هذا الكلام، الجملة الأُولى من كلام علي أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّما أتينا بهذه الفقرة لما فيها من الارتباط بهذا القصد من توجيه القلب وأخذه بالموعظة، ليحرص على الاستفادة منه، وهو كلام واضح في الدلالة على توحيد الله تعالى.

أجل لو كان لله سبحانه شريك لوجب في ذلك الشريك أن يكون عالماً حكيماً، إذ لا يجوز في الإله المستحقّ للعبودية أن يكون جاهلاً

سفيهاً، فإنّ الجاهل السفيه يستحقّ الطرد والإبعاد والاهانة والتحقير، إذاً لابدّ أن يكون عالماً حكيماً، والعلم والحكمة تقتضي أن يبعث للناس رسولا يدعوهم إليه ويدلّهم عليه، وإلاّ لانتفى عنه العلم، وبطلت الحكمة، ولو بعث رسلا لأتتنا ودلّتنا وأرشدتنا.

وحيث أنّه لم يأتنا عن غير الله رسول فلا رسول، وإذ لا رسول لغير الله فلا مرسل غير الله ولا إله سوى الله.

وهذا معنى قوله عليه السلام: «لو كان لربّك شريك لأتتنا رسله»، فإنّ إتيان الرسل لازم، وانتفاء اللازم يستدعي انتفاء الملزوم.

وفي اصطلاح المنطقيين؛ قياس استثنائي يلزم من وضع المقدّم وضع التالي، ومن ارتفاع التالي ارتفاع المقدّم، مثل قولهم ـ لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجوداً، لكن النهار ليس بموجود فالشمس ليست بطالعة ـ وهذا مثله عيناً، لو كان لله شريك لأتتنا رسله، وهو قياس منطقي صحيح.

ومثله قوله عليه السلام: «ولرأيت آثار ملكه وسلطانه» فإنّه لو كان لله شريك لكان عالماً حكيماً قادراً، ولو كان كذلك لكان له ملك وسلطان، ولو كان له ملك وسلطان لرأينا آثار ملكه وسلطانه، ولّما انتفت هذه اللوازم كلّها انتفى ملزومها، وإلاّ لوجب الملزوم بلا لازمه وهو محال.

وكذلك قوله عليه السلام: «ولعرفت أفعاله وصفاته»، فإنّه لو كان لله شريك لكان له أفعال وصفات، قضاء لحقّ العلم والحكمة والقدرة، ولو كانت لعرفناها لوجوب ظهورها ، ولكن لا نعرف خالقاً غير الله

ولا مدبّراً لهذا الكون سوى الله، وانتفاء المعرفة عن غير أفعال الله يدلّ على انتفاء غير الله، وذلك أن تصنع من كلّ من الدليلين الأخيرين قياساً استثنائياً منطقياً كما ذكرنا.

فتقول: لو كان لله شريك لرأينا آثار ملكه، ولكن لم نرَ له أثراً فليس له من شريك، وتقول: لو كان لله شريك لعرفنا أفعاله وصفاته، ولكن لم نعرف لغيره فعلا ـ أي من الأفعال المختصّة بالله سبحانه مثل الخلق، والرزق والاماتة، والاحياء ـ ولا صفة ـ مثل القدم ووجوب الوجود وأمثالهما ممّا هو مختصّ بالله سبحانه ـ ، فليس له شريك.

وهذه أقيسة منطقية صحيحة، تكلّمنا بها على منهاج الفلاسفة وطريقتهم في اثبات الأشياء ونفيها، نظراً لما نرى في أهل العصر وفي مدارسهم من شيوع الفلسفة والتدرّج إليها والاقبال عليها.

***

قوله عليه السلام: «وَلكِنَّهُ إِلهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ».

لقد استفاضت الآيات القرآنية بالنصّ على التوحيد، ويكاد أن يكون القسم الأوفر من بين الآيات، ويكفيك منها أمره تعالى نبيّ الرحمة أن يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، ﴿هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

***

قوله عليه السلام: «لاَ يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ».

إمكان المضادة في الملك فرع الكفاءة والمقدرة بين الإلهين المتصوّر

تقارنهما، وإذ قامت عندنا البراهين القاطعة على نفي الشريك فليس هناك من يضادّه أو ينازعه في الملك.

***

قوله عليه السلام: «وَلاَ يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ».

فهو سرمدي لما تقدّم من أنّه واجب الوجود، فلا يجوز أن يمدّ إليه العدم يداً لا قبلا ولا بعداً.

***

قوله عليه السلام: «أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ أَوَّلِيَّة، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ نِهَايَة».

لأنّه لو كان مع الأوّلية فهو مسبوق بالعدم، ولو كان ملحوقاً بالآخرية فهو متبوع بالعدم أيضاً، وهو ينافي وجوب وجوده.

***

قوله عليه السلام: «عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْب أَوْ بَصَر».

لأنّ المثبت بالقلب يستدعي أن يكون محاطاً به، والادراك بالبصر يستلزم كون المرئي جسماً، ومقام الربّ سبحانه فوق كلّ هذه التصوّرات.

***

قوله عليه السلام: «فَإِذَا عَرَفْتَ ذلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ

طَاعَتِهِ، وَالْـخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَن، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلاَّ عَنْ قَبِيح».

أخذ عليه السلام يعدّد وجوه حاجة ولده المحبوب إلى المولى سبحانه، وما يجب أن يكون مثله على مثله من الحال، من الطاعة والتحلّي بالصفات الفاضلة ومكارم الأخلاق، ومن أهمّها معرفة أداء الواجب نحو خالقه ونحو المخلوق، فإنّ أداء الواجب بالغ الخطورة، عظيم الشأن، يتطلّب من العزيمة أن تكون على أتّمها، إذ في أداء الواجب مجاهدة للنفس الأمّارة بالسوء أيّ مجاهدة، ومغالبة لها أيّ مغالبة، فمن لم يرزق جلد العزيمة ومضاؤها فلن يستطيع مع أداء الواجب صبراً.

وأداء الواجب على وجه الدقّة كلمة تحمل بين جنبيها جمعاً من الفضائل فهي على الحقيقة أم الفضيلة الولود، أليس من الواجب أن تعرف حقوقك فتطلبها من وجوهها، وتعرف حقوق غيرك عليك فتؤدّيها على وجوهها، وماذا بعد ذلك من الفضائل لا يتّصل بنسب إلى حقّ لك أو حقّ عليك.

وإنّ الأمم لترقى شؤونها الاجتماعية، ومدنيّتها الخلقية بمقدار رقي هذه الفضيلة ـ فضيلة أداء الواجب ـ في نفوس أُناسها، فإنّه إن طويت الضلوع على هذه الفضيلة فقد ضعف الخلاف بين الفرد والفرد، ومتى تمّ ذلك فقد قويت الأواصر بين الطبقة وأُختها، ومتى التقت طبقات الأُمة لا عادي ولا معدوّ عليه ، فهي واصلة إلى غايتها التي لا غاية وراءها في مدنيّة الخلق والاجتماع، وما حاجة الأُمة حينئذ إلى

التقاضي والتشاكي، وما يذهب في هذين السبيلين من جهود الأفراد، بل ما حاجة الأمة حينئذ إلى ما يأكل جمهور الجماعات والحكومات من معالجة العلل الاجتماعية والنفسية، لقد منع من كلّ ذلك أن أدّى كلّ فرد واجبه، فرجع لا يظلم أحداً، ولا يشكو من أحد، وذلك هو المثل الأعلى الذي يتوخّاه علي عليه السلام لحياة الأمم.

## أهم الواجبات:

من أجل ذلك وجب أن نبيّن للناس ما هو واجب لهم، وما هو واجب عليهم، رضواأم غضبوا، كرهواأم أحبّوا: «ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بيّنة».

### ١ ـ المعرفة بالله:

إنّ أوّل ما ينبغي أن يبتدئ به المرء، هو أن يعلم أنّ لهذا العالم صانعاً، وطريقة ذلك أن يتأمّل الموجودات كلّها ليتبيّن أنّ لكلّ واحد منها سبباً بطريق الاستقراء، ثمّ ينظر إلى تلك الأسباب المباشرة، ألها أسباب أيضاً أم ليست لها أسباب، حتّى إذا وجد لها أسباباً تأمّل ونظر الأسباب ذاهبة إلى ما لا نهاية له، أم هي واقفة عند نهاية، أم بعض الموجودات أسباب لبعض على سبيل الدور، فإنّه يجد القول بأنّها ذاهبة إلى غير نهاية محالا؛ لأنّه يقتضي التسلسل وهو محال.

ويجد القول بأنّ بعضها سبب لبعض على التعاقب محالا أيضاً،

لأنّه يلزم من ذلك أن يكون الشيء سبباً لنفسه، فبقي أن تكون الأسباب متناهية، وأقلّ ما يتناهى إليه الكثير هو الواحد، فسبب الأسباب موجدها وهو واحد، ولا يجوز أن يكون ذات السبب وذات المسبّب واحداً، فسبب أسباب العالم منفرد بذاته عمّا دونه.

ولما لم يقدر الإنسان على معرفة شيء سوى ما شاهده بحواسه، وفهمه بعقله ممّا شاهده، لم يجداً بدّاً من وصف البارئ الذي هو سبب الأسباب، والتعبير عنه بما وجد السبيل إليه من الألفاظ والأوصاف، فلمّا أراد التعبير عنه والوصف له، وعلم انّه جلّ وعلا لا يحدّه شيء من جميع الأوصاف التي شاهدها وعلمها، لتفرّده بذاته ولأنّه منزّه عن كلّ ما أحسّه وعرفه، لم يجد طريقاً أحسن من أن ينظر في الموجودات التي لديه، فإذا تأمّلها وجدها صنفين فاضلا وخسيساً، ووجد الأليق والأجدر بسبب الأسباب الواحد الحقّ أنْ يُطلق عليه أفضل الصنفين.

فمثلاً إذا رأى الموجود والمعدوم، وعلم انّ الموجود أفضل من المعدوم أطلق عليه الوجود، وإذا رأى الحيّ وغير الحي، وعلم انّ الحيّ أفضل من غير الحيّ أطلق عليه الأفضل وقال: إنّه حي، وإذا رأى العليم وغير العليم أضاف إليه العلم.

وكذلك جميع الأوصاف على أنّ الواجب على كلّ من يصف الباري بصفة مّا أن يخطر بباله مع تلك الصفة أنّه بذاته منزّه عن أن يشبه تلك الصفة، وأنّه لا يتهيّأ لأحد إحاطة العلم به كما هو مستحقّ له، على أنّ كلّ واحد يشعر بفطرته أنّ هناك في الوجود قوّة عظيمة، هي

مصدر عجائبه وابداعه ونظامه الدقيق، وهذا الشعور النفسي قد أخذ يعظم في النفس باتّساع نطاق التفكير والاختبار، والتوسّع في المبادئ العلمية والعملية.

وإنّ من الفِكَر البَدَهية المقرّرة، فكرة وجود ذات عليّة قدسية كاملة مبدعة لحياتنا، ملهمة للخير والشر على أحكم نظام وأدقه، ولقد يشعر الإنسان في أعماق نفسه بشوق عظيم نحو ذلك المصدر الكريم والينبوع الصافي.

والعلوم البشرية تقوي هذه الفكرة، فكرة وجود الإله الأعظم والمعبود بحقّ سبحانه تقدّس في علاه، وليس هناك ما ينفي مبدأها لأنّها تكشف لنا الغطاء عن الأسباب التي تدهشنا في هذا الكون العجيب، فقانون الجاذبية العام الذي كشفه «إسحاق نيوتن» أبان لنا سرّ التوازن في النظام الشمسي، ذلك التوازن المحكم بتقدير العزيز العليم.

وإذا كان الإنسان مرتبطاً بهذا العالم كأعظم مخلوق وجد على ظهر البسيطة، وأشرف كائن فيها، فليس غريباً أن تكون على واجبات للذات العلية القدسية التي أوجدته من العدم، وشرّفته بالعقل والسلطان القوي.

٢ ـ الاعتراف بجميل صنعه:

ومن التقديس لله تعالى الاعتراف بعظمته، وإحكام السنن التي يجري عليها هذا الكون العجيب، وهذا يأتي بتهذيب العقل وترويض الوجدان على البرّ والخير، وتجنّب الرذائل والشرور التي هي من عمل

الشيطان، وكلّ من يدرك أنّ الله سبحانه هو مصدر كلّ القوى الطبيعية ونظّمها وسنّنها، يشعر بالعجز عن الاعتراف بجميله سبحانه اعترافاً وافياً.

٣ ـ الطاعة:

والطاعة لأمر الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه الكرام هي من الواجبات المقدّسة التي تنفع المرء في معاشه ومعاده.

٤ ـ التأمل في الكون:

ويدخل في باب الواجبات الدينية من حيث تقديس الذات العلية، تأمّل هذا الكون العظيم، وتدبّر آيات الله البيّنات، والتبصّر في بدائع العقول البشرية التي أحكمها الله، فأبرزت عجائب الآراء والمخترعات.

**حقّ الله على عباده:**

ممّا تقدّم يتّضح أنّ الله هو الكمال والخير، وأنّا مدينون له بحياتنا وكلّ ما نتمتّع به من النعم، فإذا لم نشعر قلوبنا شكره على ما أسبغ علينا من آلائه كنّا قد أتينا أشنع أنواع الجحود.

فأوّل واجباتنا إذن أن نمجّده، وأن نهمل أُولئك الضالّين الذين يعتقدون إمكان وجود الناقص من غير أن يكون الكامل موجوداً، أو أنّ

الله تعالى ترك الخلق بعد أن أوجده: ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ [الأسراء : ٤٣].

**واجبات العباد:**

نعم الواجب على العبد:

١ ـ معرفة الله تعالى معرفة يصحّ بها الاعتقاد.

فيكون على بصيرة من ربّه، ويعرف معنى كلمة التوحيد التي جاء الأنبياء من لدن آدم إلى خاتمهم محمّد صلى الله عليه وآله بالتبشير بها، وايقاظ العقل البشري للايمان بقوّتها وآثارها في الكون، وأنّ كلّ ما عداها زيغ وبهتان مبين.

٢ ـ أوامر الدين ونواهيه.

إنّ لكلّ دين من الأديان تكاليف وواجبات تكفل حفظ مظهره، وتبسط سلطانه في الناس، وإنّ أوامر الدين الإسلامي من صلاة وصيام وحجّ وزكاة وما إلى ذلك ما هي إلاّ أعلام خفاقة تهوي إليها النفوس، وتنتظم القلوب فتلبسها ثوب الدين، وتعصمها من الشرور، فتكون جنود الله في الأرض تعبده وتأخذ نفسها بمرضاته.

وإذا كان كلّ من ينتسب إلى عظيم أو زعيم يحمل شارته، ويفاخر الناس بنبالته، فما أجدر المسلم أن يكون سمات الإسلام أظهر شيء

لديه، ثمّ هي طهارة للنفوس وتهيئة لها للكمال، فالصلاة تغسل أدران الشيطان من نفس الإنسان، وتعوّده الخير والتواضع، وتحول بينه وبين المحظورات، «إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي».

وكذلك بقية التكاليف تذكّر الإنسان بعظمة ربّه، وترسم أمام ناظريه الحلال والحرام، فيعرف ما يأخذ وما يدع، وليس هناك دين من غير عمل، فالمسلمون القائمون باسم الإسلام دون العمل بأوامره منعوا أنفسهم موارد السعادة، ومكنوا لغريزة النفس الجامحة أن تتغلّب على عقولهم، إذ لا تجد من جنود الدين الروحية حاجزاً، وحرمت قائداً حكيماً يهديها سواء السبيل.

٣ ـ مجاهدة النفس، ويا لله من مجاهدة النفوس، ولن يقدر على ذلك إلاّ أُولو العزم وذوي النفوس المسلمة حقّاً، ومن أجل ذلك عدّها النبي ﷺ أكبر عند الله من خدمة الإسلام بحدّ السيف البتّار، فقال بعد أن عاد من إحدى غزواته : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1]. ومغالبة النفس إنّما تصدر عن قوّة الارادة والاخلاص لله.

٤ ـ من الحتم على المسلم أن يحوط دينه بعنايته، ويرد هجمات العدو عنه، وهذه جيوش المبشرين من أُوربيين وأمريكان تغزو دين الإسلام باسم الإنسانية والعلم ومعالجة المرض، فيتّخذون سذاجة

(١) راجع الكافي ٥ : ١٢ ح٣.

الطفل سبيلا إلى محو دينه، وادخال العقائد المسيحية عليه بصنوف الحيل وألوان الاغراء.

ويستضعفون المرضى المساكين الذين استسلموا بسبب قسوة المرض، فلا يعالجونهم إلاّ أن يسقوهم مع الدواء التثليث، ولا يعملون المبضع في جسم المريض إلاّ بعد أن يأخذوا منه صكّاً بردّته عن الإسلام، ويكونوا له من الظالمين. والمسلم الكامل يغلي مرجل دمه بالدفاع عن حوزة الإسلام، ويحلّه محلّ النفس والعرض، فإذا أصاب الإسلام مكروه استوفز كما يستوفز الليث الهصور، حتّى يدفع عن نفسه ما يوصم به من أخلاق الثعالب، ولو كان في ذلك إزهاق روحه.

٥ ـ الأُخوّة الإسلامية، وحمية الدين لمناصرة المسلمين، وإن بعدت ديارهم وتباينت أوطانهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠].

والرسول الكريم ﷺ كأنّه كان ينظر بنور الله إلى تاريخ المسلمين في مستقبلهم إلى أن تقوم الساعة، فخاف عليهم أن يكون بأسهم بينهم شديداً، وأن تكون قلوبهم شتّى، وكان يوجس خيفةً كلّما جرّ الحديث مع أصحابه إلى الرابطة الإسلامية، فيوصيهم بالاتّحاد وتآلف القلوب، ويخشى أن يهدم الناس بعضهم بعضاً، فيسقطوا في الهوة جميعاً، وذلك بأن يحرص الناس أن يكونوا عبيداً لمنافعهم، وأُسراء لشهواتهم، فمتى توافر لهم ذلك لا يعنيهم هلاك الناس جميعاً.

فقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه

كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1] فهذا هو دستور المسلم في العلاقة بأبناء ملّته.

ولا يضير من ينصر الإسلام تخاذل المسلمين اليوم، فليضع حجراً في سبيل تدعيم القلوب، وهنالك يقتدي المخلصون به، وتصلح النفوس فيعود للإسلام عزّه، وللمؤمنين كرامتهم، وتُصان هيبة الإسلام.

٦ ـ أنّ الإسلام دين الإنسانية كلّها فهذا من مفاخره، فبينما يعني أبناء كلّ دين بمراعاة حقوق أهل ملّتهم ويتعصّبون لهم، ويهدرون حقوق الآخرين، إذا بالاسلام يرعى حقوق الناس كافة، ولا يكتفي بذلك، بل يأمر بالاحسان والمواساة لخلق الله عامة حتّى الحيوان.

قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله: «في كلّ ذات كبد رطبة أجر»[2]، ليعلّم المسلمين العطف على كلّ ما خلق الله، وإذا كان الحيوان مكفول الرعاية من كلّ مسلم فما بالانسان الذي يسكن الدنيا ويعمرها.

لذلك شعر الناس في أزمان التاريخ بمروءة الإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجاً، حتّى العدو الذي في قتله صلاح العالم، والحيوان عند ذبحه ـ الذي جعل الله لحمه متاعاً للانسان ـ ينبغي الاحسان في القضاء عليهما.

قال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إنّ الله كتب الاحسان على كلّ شيء فإذا

---

(١) صحيح ابن حبان ٢ : ٢٩١ ح٥٣٣.

(٢) صحيح ابن حبان ١٣ : ١٩٧ ضمن حديث ٥٨٨٢.

قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»[1].

أروني ماذا بقي من مفاخر الدنيا لم يتضمّنها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ونصف قرن، وماذا يبتغي العالم بعد هذه الشريعة السمحة الرحيمة التي أسعدت المهتدين. هذه هي الأُصول التي لا يجمل بالمسلم أن يغفل عنها، فهي تراث أجداده ومعقل عزّه، والتي نصر الله بها الإسلام على الدين كلّه.

***

(١) البحار ٦٥ : ٣١٦ ح٧.

# الفصل الحادي عشر
# قيمة الدنيا وشأنها

«يا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْم سَفْر نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَجَناباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ الْـمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْء مِنْ ذلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ وَأَدْنَاهُمْ أَلى مَحَلَّتِهِمْ. وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْم كَانُوا بِمَنْزِل خَصِيب، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِل جَدِيب، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ

مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ».

***

نحن الآن تجاه مثل رائع عن الدنيا وحالها، وتعبير ملمّ بما للدنيا من صفات وخواص، يبيّنها لنا عليّ أمير المؤمنين عليه السلام فيجيد في البيان، ويوضحها فيبلغ في الايضاح، ويصوّرها لنا على علاتها بأحسن تصوير، فكأنّه عليه السلام يمثّل لنا شيئاً محسوساً يقطن زاوية من زوايا حياتنا، فعلينا أن نتباعد عنه ونتحاشاه كي لا يمسّنا منه أذى.

ولم يكفه ذلك، بل تعدّاه إلى التعبير عن حال ساكنيها والخائضين غمارها، فهم على نوعين إثنين:

## أنواع أهل الدنيا:

١ ـ النوع الأوّل منهم هم القوم الذين لم يرتاحوا إلى المنزل الجديد الذي لا ينالون من ورائه معيشة يسدّدون بها جوعهم، ولا هم بمقرب من ا لماء ليرووا بها غلتهم، فهم كالجالس على روق الظبي لا يكاد يستقرّ حتّى يأخذ بالتمايل يمنة ويسرة ليقع على الأرض، لتشج جبهته أو ليقضي آخر نفس من أنفاس حياته في عذاب شديد من الأوجاع المحيطة به.

أو كمن كان وسط بحر هائج قد ثار به الغضب، فتحوّل وجهه

من ابتسامة منبسطة إلى تقطيب ممضّ، ومن هدوء وسكينة إلى هياج واحتدام، فذلك الرجل لا يدري هل سيوصله الماء إلى الساحل لينعم باللذة وطيب العيش، أم سوف يلفه الماء بعين طياته ليجعله طعمة لأسماكه التي لعلّ بعضها من لا عهد له بالشبع منذ أمد بعيد.

لا يتحمّل الإنسان وعثاء الطريق، وجشوبة المطعم، وفراق الأصدقاء والرفاق، ولا يمكن أن ينوء بعبء المصاعب التي يواجهها في قطع طريقه البعيد المدى، إلاّ لأنّه قد بنى من الآمال الوطيدة بيتاً مشيّداً في الجانب الآخر الذي سيحلّ فيه عمّا قريب، وقد لا يبعد عنه إلاّ أن يغذو عيره في السير، وما هي بضع خطوات حتّى تترائى له معالم المدينة الجديدة التي يقبل عليها.

ويقيني قوي بأنّ الإنسان لا تدعوه إلى السفر إلاّ دواعي الأمل الوطيد، أمّا إذا لم يكن من ذلك شيء فأحرى به إذا فعل ذلك أن يسمّى مجنوناً أو قد خالطه شيء من الجنون، لأنّ فعله لغير غاية، وكلّ فعل لم ينط بغاية لم يكن ممّا تأتي به العقلية الإنسانية، فهل ترى أنّ أُولئك القوم الذين قصدوا إلى منزل خصيب من منزل جديب، هل ترى أنّهم يحسّون بشيء من المتاعب، فيه شيء ممّا يمضّ النفس ويضجرها، كلاّ أنّهم ليس يرون شيئاً أحبّ إليهم من ذلك.

تحمّل متاعب، وقطع مسافة بعيدة، واغبرار وجه، واحتمال عطش أو جوع، ثمّ بعد ذلك الراحة والاطمئنان والري والشبع، إنّ ذلك حقّاً من السعادة العظمى التي طالما حلم بها كلّ ابن أُنثى.

فما أجمل العيش لو نال كلّ إنسان بغيته بعد طوال الطريق ووعثه، وما أطيبه لو عبر تلك البحار المزبدة الغضوبة فوصل إلى الشاطئ ليجد حبيبته واقفة على الساحل بانتظار قدومه، وقد تركت مخدعها فيجتمعان وتلتصق روحاهما حتّى لتكاد أن تجعل روحه مع روحها روحاً واحدة ونفساً واحدة تنبض بالعاطفة والحنان، فيمشيان معاً جنباً إلى جنب، والحبّ والمعاطفة تمشي أمامهما تبن لهم السبيل.

ما أحلى العيش لو بحث الإنسان عن بغيته وطلبته في كلّ مكان، وتحمّل من أجلها المتاعب والمشاق فوجدها.

ما أحلى الحياة لو كانت تدوم ولم يؤل أمرها إلى الزوال ولكن ذلك لم يكن، كلّ هذه التمنّيات وهذه الآمال العذاب الضاربة في الأرض إلى الأعماق والشاخصة إلى الآفاق تسايرها أينما سارت.

كلّ هذه يكون مصدرها كلام سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

٢ ـ وأمّا النوع الثاني من أهل الدنيا: فهم على العكس من النوع الأوّل، كما يصوّرهم لنا الإمام عليه السلام أيضاً ويصفهم بالمغرورين، فهم يرحلون من منزل خصيب إلى آخر جديب، فليس شيء أكره إليهم ولا أفضع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه إلى ما يهجمون عليه ويصيرون إليه. ولو أنّهم جعلوا نفوسهم سخيّة، وأكفّهم نديّة، وفي ثروتهم متّسعاً لاسعاف المنكوبين، وردّ لهفة المعوزين لوجدوا منزلهم خصيباً، وماءهم عذباً.

❊❊❊

## الفصل الثاني عشر
## اجعل نفسكَ ميزاناً

«يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الالْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

***

في رسائل الإمام علي عليه السلام، وفي عهوده ووصاياه، وفي خطبه وسائر أقواله روائع خالدة، تناولها من الإنسان جواهراً وغاية، ومن

الكون معنىً وشكلا، ومن أحوال زمانه وأحداث عصره، ودفعها عقله الحكيم إلى خياله وقلبه حقائق علميّة خالصة، فإذا بها لا تمرّ على خياله الخصب وعاطفته الحارّة، إلاّ لتتحرّك وتنمو وتنبعث وفيها امتدادات ونبض وخفوق، فما هي إلاّ حياة من الحياة.

وإنّها لتراث عظيم للإنسانية، بوصفها دستوراً جليلا في الأخلاق الخاصة والعامة، لا تسمو عليه دساتير الأنبياء والمفكّرين والحكماء في مختلف العصور والأمكنة.

ونلفت نظر القرّاء بصورة خاصة إلى فصول هذه الوصية، إلى ما يبدو فيها من الآثار العلوية، من دعوة إلى السلم والمؤاخاة، والتصافي في سبيل الانطلاق إلى الميادين الإنسانية الرحبة، وفي سبيل إكرام الحياة واحترام الأحياء، وأنّه ليجدر بمثيري الحروب اليوم، ومسبّبي ويلات الشعوب والأفراد، أن يسمعوا كلمات جبّار الفكر العربي، عليّ بن أبي طالب عليه السلام ويعوها، ويطأطؤا رؤوسهم لصاحبها العظيم، واليك بعض روائعه في هذا الفصل:

***

### المساواة في الحب:

قوله عليه السلام: «يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَـهَا».

يريد صلوات الله عليه أن يكون ولده المحبوب، على أقسط حال

مع من يألف معه ويكتنف به، فإنّ أوسط ما يلمّ به الإنسان في حلّه ومرتحله هو نفسه، فإذا جعل نفسه ميزاناً بينه وبين غيره، فبطبع الحال أنّه لا يروقه إلاّ الخير والصالح العام لمن أشير إليهم.

وهنالك مغاز شريفة أخلاقية ألمع إليها عليه السلام من انتهاء ذلك إلى الغاية القصوى من مكارم الأخلاق، لأنّ الإنسان إذا علم منه الملأ أنّه يحبّ لأُمّته ما يحبّه لنفسه، فإنّ هناك مجلبة الحبّ الصميم، ومدعاة الاخاء المتواصل.

هل يستطيع إنسان أن يعمل بهذا الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه»[1]؟ ومن الذي ينظر إلى نفسه بالعين التي ينظر بها إلى غيره، ويساوي بين أعزّ الناس عليه، وبين من لا يمتّ إليه بصلة؟

إنّ الحبّ لا يصنع باليد، ولا يهبط على القلب من السماء، بل له بواعث وأسباب خاصة لا تتّصل بالارادة والاختيار، إنّ كثيراً من الأغنياء ينفقون من أموالهم على الخير ولا يحبون أن يموت أحد من الجوع، ولكن لم تبلغ بهم الرحمة والإنسانية أن يحبوا لغيرهم ما يحبّونه لأنفسهم، بل هم يبذلون الأُلوف لا لشيء إلاّ ليقال عنهم أغنياء، يقدرون على ما يعجز عنه الناس.

إذن مهما كان قصد الغني شريفاً، ومهما رغب في الخير، فإنّه لايحبّ لأحد ما يحبّ لنفسه، والذي يعمل بهذه النصيحة من حيث

---

(١) البحار ٧٢ : ٢٥٧ ح٢٠.

يشعر أو لا يشعر، هو الفقير الذي لا تصلح حاله إلاّ بصلاح المجتمع، ولا يستطيع أن يتعلّم ويتطبّب ويعمل إلاّ إذا كان كلّ من العلم والطب والعمل مضموناً لكلّ فرد على السواء ودون استثناء، وعلى هذا فمعنى الحديث هو النهي عن الاستغلال والطمع، والأمر بالتعاون والتعاضد على تحقيق العدالة الاجتماعية.

إنّ الله لا يأمر بالحبّ ولا ينهى عن البغض، وإنّما يأمر الإنسان أن يكون في عون أخيه الإنسان، وبرّه ومناصرته التي تبعث على الحبّ، وينهى عن خذلانه واستعباده والاعتداء على حرّيته الذي يوجب البغض.

***

### الاحسان للآخرين:

قوله عليه السلام: «وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ».

هذه جمل شريفة لدات ما تقدّم به ـ سلام الله عليه ـ من مكارم الأخلاق، وموجبات الفضائل، ومقوّمات عالم الاجتماع، فهي كما أسلفناه ممّا تقمع جذور الظلم، وتكسح جذومه، وتقيم قوائم الاحسان، وترسّخ قواعده، وتسدّد الأمت والأود ممّا يستقبحه الإنسان من نفسه ومن كل أحد.

وأمر عليه السلام أن يتّخذ ولده البار نفسه مقياساً لما يرتضيه لأي إنسان من المحتم أن يعاشره، ويرعى الصلة بين نفسه وبينه.

***

## لا تقل ما لا تعلم:

قوله عليه السلام: «وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ».

هذا أيضاً تعليم راق للإنسان الكامل، فإنّه ـ سلام الله عليه ـ كان يربأ بمن سمع قيله ووعى عظته، أن يكون مهذاراً يلهج بما لا يعنيه فتفضحه فيما يقول أُكذوبته، ويقعد به عن مرتقى الكمال مينه(١).

وقد أدمج عليه السلام في هذا النصح الأبوي عظة أُخرى، فأشار إليه بما هو مزيج نفسيّته الكريمة من التنازل عن الخيلاء، ومساقط الكبر بالاعتراف بقلّة ما عنده من العلم، ولا سيّما إذا اتّخذ من العلم الربوبي مقياساً لما عنده من المعارف، وتتمّة هذه النصيحة هي قوله عليه السلام: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ» التي هي لدة صويحباتها من نواميس عالم الاجتماع ومن متمّمات الأُلفة وموجبات الأخاء، لا سيّما إذا عرف المجتمع غير خادش للعواطف الإنسانية، أو مضيع للحقوق البشرية، فهم يصافونه في السرّ والعلانية، ويلقون إليه من أفلاذ أكبادهم ما يغالون به ولا يرخصون، فهو حبيب كلّ من يعرفه بهذه الصفة، وكذلك في كلّ

(١) المين: الكذب / لسان العرب.

من يتحلّى بما هنالك من ضرائب حميدة، وطقوس تروق الجامعة في الحلّ والمرتحل.

***

### الاعجاب ضد الصواب:

قوله عليه السلام: «وَاعْلَمْ أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الأَلْبَابِ».

أشار ـ سلام الله عليه ـ إلى وخامة العجب المضادّة لكمال النفس.

فأمّا المعجب بما لديه يجعجع به الحال عن تحرّي مراقي السعادة والتقدّم، بحسبان أنّ ما عنده واف لما ينبغي أن يتحرّاه من مناهج الأُمور، فيبقى عاطلا لا يجد وسيلة إلى التقدّم، ويكون منتهى أمره الخسران، ومقتبل مصيره الفشل.

وهاهنا يستيقن المعجب بعقليّته المُقْعِدَةُ إيّاه عن النهضة إلى السعادة: «إنّ الاعجاب ضدّ الصواب، وآفة الألباب» لملازمته الخمود في العقل، والخمول للنظر في صالح النفس، وأي سقوط في الضرائب أحطّ من هذا، وأي تدهور هو أوضع منه، ولو أنصف المرء لتجلّى لديه أنّ من أوّل السفه تسريب العجب إلى نفسه المحتفّة بالنقائص.

ثمّ هي لا تفتأ من نطفة إلى جيفة، والمبدأ والمنتهى، وهو في الطريق ما بين هذا وذاك يحمل القذارات والجيف، وأمّا إذا اخترمته المنية

ـ فأمّا إلى جنّة وأمّا إلى نار ـ ويا حبّذا لو كان منصرم أمره إلى السعادة الرابحة إن تركته تعاسة الحال، وبذاءة المنطق أن يكون مصيره إلى ما يرام، فمن واجبه أن يكون نصب عينه في كلّ حين نصح لقمان لابنه ﴿لا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ [الاسراء : ٣٧].

## أقسام العُجب:

وهو باعتبار ما يتعلّق به على أقسام:

منها عجب الشخص بقوته وصحّته، ومنها عجبه بجماله وهيبته، ومنها عجبه بذكائه وفهمه، ومنها عجبه برأيه وفكره، ومنها عجبه بعقله.

فالعجب بهذه الخمسة يرجع إلى العجب بالنفس بلا واسطة بعيدة.

ومنها عجب الشخص بعلمه، ومنها عجبه بتعبّده لله وشكره، ومنها عجبه بولده وأُسرته، ومنها عجبه بماله ونعمته، ومنها عجبه بنفوذه وسلطته، ومنها عجبه بحسبه ونسبه.

والعجب بهذه الستة يرجع إلى العجب بالنفس إلاّ أنّه بواسطة بعيدة، ومفاسد العجب بجميع أقسامه كثيرة، وضرره عظيم.

١ ـ عجب الشخص بقوّته وصحّته:

العجب بالقوّة يسبّب ضرراً على المعجب بها، لا يختصّ بالصحّة

والقوّة بل يعمّ غيرهما، لأنّ الشخص بعد إعجابه بهما تراوده نفسه على مقابلة ذوي القوّة والنشاط على الفتك بمن ناوأه، تراوده نفسه على السير منفرداً في المهامه والفلوات، تراوده نفسه على حمل ما يثقل كاهله.

فإن حمل ما يعجزه يؤثر ضرراً في قوّته وصحّته، وإن انفرد بسيره في معارض الخطر قادته جرأته إلى الهلكة بعد ذلك إن قدرت سلامته، وإلاّ أهلك نفسه من أوّل مرّة، وإن قابل أهل القوّة والنشاط وفتك بهم عرض نفسه لأُمور أقلّها عداوة من قابله إذا صادفته السلامة، وإلاّ فأمّا ضرر في المال أو الجسم أو إتلاف نفسه.

٢ ـ عجب الشخص بجماله وهيبته:

العجب بالجمال يسبّب ضرراً لا يلحق بالجمال إلاّ بتوسّط الاضرار بالجسم، لأنّ الجمال من كيفيات خلقة الإنسان لا من حقيقة جسمه، فهو أشبه بالأعراض اللاّحقة للأجسام، فالضرر المسبّب عن إعجاب الشخص بجماله، يرجع إلى جسمه أو ماله أو اتلاف نفسه، لأنّه يجرّه إلى التكبّر والتيه والخيلاء، وضرر هذا معلوم لديك، أو يجرّه إلى التطاول على فتاة لا يخطر بباله النظر إليها فضلا عن الاقتران بها لولا إعجابه بجماله، وبهذا يتضرّر في ماله أو جسمه أو اعتباره، وربّما أدّى إلى هلاك نفسه.

٣ ـ عجب الشخص بفهمه وذكائه:

العجب بالفهم يختصّ ضرره بالمعارف غالباً، لأنّ المعجب بفهمه

يتّكل عليه، ويعرض عن اشغال نفسه باكتساب المعارف من أهلها، ورشف العذب من مناهلها. فالاعجاب بالفهم سدّ حائل بين ذلك المعجب بفهمه وبين ما يمكنه التوصّل إليه من العلوم والمعارف بحسب استعداده، فلا تثبت له قدم في دائرة المعارف والكمال، وهذا ضرر عظيم.

وربّما أنتج إعجابه بفهمه ضرراً مالياً، إذا كانت مهنته التجارة ولم يقف على مراد مراسله، أو مالياً واعتبارياً إذا كان من أهل الوظائف والنفوذ ولم يتدبّر الحقيقة فيما يلزمه فهمه، ولولا إعجابه بفهمه انكشفت له الحقيقة بنفسه أو غيره.

٤ ـ عجب الشخص برأيه وفكره:

العجب بالرأي مفسد له، وليس لمعجب برأيه رأي، يتولّد من العجب بالرأي والفكر ضرر كثير يعمّ موارد الضرر، فإذا تصوّر مخاصمة من هو فوقه لا يستشير قريباً أو بعيداً مع إعجابه برأيه، فيتضرّر في ماله وجسمه واعتباره وأُسرته، وكذلك حاله لو حلّت بساحته أزمة مالية أو نكبة سماوية، فالمتدبّر وإن كان سديد الرأي يستشير من يعتقد نصحهم وحسن رأيهم فيما تحسن فيه الاستشارة، ولا يعول على رأيه وإن جرّبه في الشدائد، والمعجب برأيه يرتّب الآثار على ما يراه ولايتصوّر عيوب ما ارتضاه، ويحول العجب بينه وبين الحقيقة ويقع في الضرر العظيم، وربّما أهلك نفسه باعجابه برأيه.

٥ ـ عجب الشخص بعقله:

العجب بالعقل مرض منتشر في غالب النوع الإنساني، وقلّ من

يرى امتياز غيره عليه بالعقل، وبذلك اختلفت المسالك والمذاهب مع اتّحاد الحقيقة المطلوبة عندالعقلاء بحكم العقل عليهم، فالضررالحاصل من قبل الاعجاب بالعقل في الدين والدنياتكثرت شعابه، وارتضاه أربابه بعد الغفلة عن السبب وقناعة كلّ فرد بعقله، سبحان الواهب فلو انعكست هذه الآية ورضي كلّ فرد بنعمته، وزاحم غيره في توسعة العقل المكسوب، لكان الإنسان في راحة تامّة ونعمة عامّة في دنياه وآخرته.

٦ ـ عجب الشخص بعلمه:

العجب بالعلم داء العلم وقاتله، وطالما ابتلي أهل العلم بالعجب بعلمهم في كلّ قرن وزمن، والمعجب بعلمه جاهل في حقيقة الأمر وواقعه، محروم من الافادة والاستفادة العلمية، وربّما جرّه إعجابه بعلمه إلى تكبّره على من هم بمنزلة أساتذته فضلا عمّن يماثله، وذلك هو الخسران المبين.

ولا يخفى حال المعجب بعلمه على الألمعي الفطن لدى الاحتكاك، وإن تعدّدت العلوم واختلفت موضوعاتها، وكم معجب بعلمه قاده إعجابه إلى الجهالة وحيرة الضلالة، وهذا هو الضرر الذي لا يتنازع فيه اثنان.

٧ ـ عجب الشخص بتعبّده لله وشكره:

العجب بالعبادة محبط لها، وضرره خاصّ بها، فالعجب بالعبادة يدعها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف؛ لأنّ العبد مهما اجتهد في

خدمة مولاه كان عليه عند العقلاء أن يظهر تقصيره في خدمته وعدم قيامه بوظيفته، وبذلك يكون محموداً عند العقلاء، مقرّباً عند مولاه، وإذا تظاهر بعكس ذلك ذمّه العقلاء، وكان ممقوتاً عند مولاه، على أنّ غاية نعمة ذلك المولى على عبده قيامه بنفقته واسترقاقه بثمن رقبته.

وأين هذه النعمة من نعمة ايجاده واخراجه من كتم العدم من ظلمات ثلاث، بشكله الجميل وتركيبه الجليل، من شرايين وأعصاب تداخلت أسلاكها، وتنوّع جنس افرازها في ذلك الهيكل، لانتاج مظاهر المحسوسات من السمع والبصر، والشم، والذوق، والمد، والقبض في لمس الملموسات، فضلا عن خصائص مدارك النطق والقوّة الروحية والعقلية من المجرّدات، فتبارك الله أحسن الخالقين.

أنعم سبحانه بما لا تدركه العقول من نعمه، وبما أدركته وأتمّ إنعامه بامتداد الفيوضات، أرضية وسماوية، إتماماً لانتظام الإنسان في كونه الأوّل.

فالطاعة والشكر والعبادة لله سبحانه إنّما هي من نعمه وتوفيقه لعبده، والعقل حاكم بلزوم شكر العبد لمولاه على شكره له، لأنّ توفيقه للشكر نعمة تستوجب الشكر عليها.

فيا صاحب العبادة والشكر، كيف تعجب بعبادتك وشكرك وترى نفسك أنّك أحسنت مع الله سبحانه صنعاً كأنّك تمنّ على الله بطاعتك له، أغفلت عن قوله سبحانه مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وآله:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [الحجرات : ١٧].

وهل غاب عن سمعك قول عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام في حال طاعته وعبادته لله، وهو ساجد في صلاة الليل يتململ تململ السليم، خوفاً ورجاءً في سجوده بين ركعات صلاة الليل وهذا قوله:

«الهي وعزّتك وجلالك لو أنّي منذ بدعت فطرتي من أوّل الدهر، عبدتك دوام خلود ربوبيّتك بكلّ شعرة في كلّ طرفة عين سرمد الأبد بحمد الخلائق أجمعين، لكنت مقصّراً في أداء حقّ شكر خفيّ نعمة من نعمك عليّ، ولو أنّي كربت معادن حديد الدنيا بأنيابي، وحرثت أراضيها بأشفار عيني، وبكيت من خشيتك مثل بحور السماوات دماً وصديداً، لكان ذلك قليلا في كثير ما يجب من حقّك عليّ، ولو أنّك الهي بعد ذلك عذّبتني بعذاب الخلائق أجمعين، وعظمت للنار خلقي وجسمي، وملأت طبقات جهنّم منّي حتّى لا يكون في النار معذّب غيري، ولا لجهنّم حطب سواي، لكان ذلك بعدلك عليّ قليلا في كثير ما أستحقّه من عقوبتك، فعفوك عفوك يا كريم»[1].

هذا كلام عليّ بن الحسين المعروف بزين العابدين، أبوه الحسين الشهيد بكربلاء، وجدّه رسول الله شفيع الأُمّة وخاتم النبيين، وجدّه الثاني عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، وقد عبد الله سبحانه حتّى

---

(١) البحار ٩٤ : ٩٠ ح٢.

نهكته العبادة، وهو يصرخ بأنّه ما أدّى حقّ المنعم سبحانه، مع تباعده عن حطام الدنيا ونزاهته عن التلوّث بأقذارها بشهادة من والاه وعاداه، وهو المتولّد من ملوك العرب والعجم حتّى قيل فيه:

وإنّ وليــداً بين كسرى وهاشــم   لأكــرم مــن نيطت عليه التمائم

فأبوه وأجداده من قبل الأب مَن عرفت، ومن قبل الأُم الملوك الأكاسرة، ويكفيهم فخراً قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «ولدت في زمن الملك العادل»[1]، يعني كسرى أنوشروان.

فهل يا صاحب العبادة والشكر تعظم نفسك وتعجب بعبادتك، بعد وقوفك على قول هذا الإمام العابد في طاعته لله سبحانه وهو ساجد، أعاذنا الله وإيّاك من داء العجب بأقسامه، ووفّقنا للقيام بشكره وإنعامه.

٨ ـ عجب الشخص بماله ونعمته:

العجب بالمال لا يختصّ ضرره به، بل يعمّ غير المال، لأنّ من دخله الاعجاب بماله أسرع إلى التكبّر، وفيه ما عرفت من أنواع الضرر مالا واعتباراً وديناً ودنياً، وآخر أمر المعجب بماله خسرانه العظيم.

٩ ـ عجب الشخص بولده وأُسرته:

العجب بالولد والأُسرة يسبّب الضرر غالباً على المعجب بهما إذا انقادوا إليه، وحمله اعجابه بهم على التفوّق والاستطالة والتكبّر والتنمّر حتّى خاض بهم موارد العطب، ومصادر الهلكة، ولا تسأل عمّا يلاقيه من المفاسد والضرر والندامة حيث لا ينفع الندم.

---

(١) البحار ١٥ : ٢٥٠ ح١.

١٠ ـ عجب الشخص بنفوذه وسلطته:

العجب بالنفوذ والسلطة تتولّد منه العجائب، فالبطر والخيلاء والتكبّر والبغي والفساد والتجبّر، كلّ ذلك على من وسعهم تسلّطه ونفوذه، فباستعباد الموالي لعبيدهم يستخدمهم، وبيد الغزاة الأباعد يبتزهم ما لديهم من نعم الله سبحانه عليهم، حتّى يجعلهم كالأنعام ينتفع بنتائجها، فإن أعوز الأمر فبيع أو جزر وهو في خلال ذلك ينصب الاشراك لتوسيع النفوذ والسلطة في جواره، فارهاب وترغيب بعارض كلمع السراب.

فإن علقت مخالبه بضعيف انتهت أيّامه مزّقه كلّ ممزّق بغياًوظلماً، ولم يدرك بأنّ الله قد أهلك من قبله من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعاً، فكان بغيه سبباً لهلاكه في مستقبل أمره لأنّ مراتع البغي وخيمة، وإن تعرّض لمن كان على يده هلاكه كان كالباحث عن حتفه بظلفه، وطالما كان حال أهل العجب والبغي كما قيل فيهم:

صاحب البغي ليس يسلم منه وعلى نفسه بغى كل باغ

١١ ـ عجب الشخص بحسبه ونسبه:

العجب بالحسب والنسب ينتج التكبّر، وفيه ما قد عرفت من الضرر المهلك، ينتج التجرّد عمّا فيه السعادة، لأنّ المعجبين بأحسابهم يتّكلون عليها، فلا يعرفون من الفضائل والكمالات سوى أسمائها، وأجهل الناس بالحقيقة من افتخر بالعظام البالية، وتبجّح[1] بالقرون

(١) تبجّح به: فَخَرَ.

الماضية، واتّكل على الأيام الخالية، ومنتهى الضرر على الحيّ اتّكاله على ميّت، وليس من الكرام من افتخر بالعظام، فعلى أهل الحسب والنسب أن تأبى نفوسهم عن الاتّكال عليها، وأن يقولوا كما قال عبدالله بن جعفر قدس سره:

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الأحساب نتّكل

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

نعم هذا قول ذوي الهمم العالية، والنفوس الكبيرة، وأمّا من تصاغرت نفوسهم، وتدانت شممهم، وتسافلت هممهم، وكانوا في معزل عن كسب الفضائل والكمال، وبُعْد عن الوصول إلى مستوى العلم والعمل، فإنّهم يسلون أنفسهم بما كان لسلفهم من الآثار الخالدة والمزايا الحميدة، ويزاحمون أهل الفضل والكمال بكمال سلفهم، يرون لهم الحياة بمن مات فهو حي وهم الأموات، كما قيل فيهم:

إذا ما الحيّ عاش بعظم ميّت فذاك العظم حي وهو ميت

هذه أقسام العجب، وهذا حال أهله، وكيف كان فهو سمّ ساري أينما حلّ قتل.

وقال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمّد صلى الله عليه وآله: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، واعجاب المرء بنفسه»(1).

وفي الكافي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

(1) البحار ٧٢ : ٣٢١ ح٣٧.

«بينما موسى بن عمران جالس، إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلمّا دنا من موسى خلع البرنس وتقدّم إلى موسى فسلّم عليه، فقال له موسى: من أنت؟ قال: إبليس، قال: أنت هو؟ فلا قرّب الله دارك، قال: إنّي إنّما جئتك لأسلّم عليك لمكانك من الله، فقال له موسى: فما هذا البرنس؟ قال: به اختطف قلوب بني آدم، فقال له موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه، واستكبر عمله، وصغر في عينه ذنبه»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك، العجب العجب»[2].

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «سيّئة تسوؤك خير من حسنة تعجبك»[3].

لأنّ العبد إذا صدرت منه السيئة وساءته فقد ندم عليها وتاب وأناب، وإذا صدرت منه الحسنة وأعجبته فقد منّ على الله سبحانه بإطاعته له، وهذا هو العجب، ولا ريب في كون الحالة الأُولى خير من الثانية، لأنّ الأُولى طاعة والثانية معصية.

وقال ابن مسعود (رضى الله عنه): «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب»[4].

---

(١) البحار ٦٣ : ٢٥٩ ح١٣٤.

(٢) البحار ٧٢ : ٣٢٩ ح١٢.

(٣) البحار ٧٢ : ٣١٦ ح٢٥.

(٤) احياء العلوم ٣ : ٣٤٦ / في ذم العجب وآفاته.

ولا يخفى ما في القنوط والعجب من الهلاك لمن اتّصف بهما أو بأحدهما، لأنّ القنوط من رحمة الله وعفوه ومغفرته، يحمل صاحبه على ارتكاب كلّ معصية والتظاهر بها، والعجب في حدّ ذاته معصية ويجرّ صاحبه إلى المعاصي.

العجب من أفعال القلب ولا ربط له بالجوارح، والقلب في الإنسان هو أعظم ما وجد فيه، وعليه وبه مدار حركة الإنسان.

فالذنوب الصادرة من الجوارح في الإنسان يمكنه التخلّص منها بواسطة القلب، فإنّ التوبة المزيلة لتبعات الذنوب من الأفعال القلبية، وباب التخلّص من تبعات الذنوب مفتوح بواسطة القلب، فإذا صدر الذنب من القلب ـ وهو العضو الرئيسي في جامعة حركة الهيكل الإنساني ـ أشكل زواله، وصعب التخلّص منه.

وهذا في الأُمور الخارجية المشاهدة محسوس لكلّ عاقل، فإنّ رئيس البيت أو المدينة إذا استقام في سيره، واتّصف بالصفات الكاملة كان حال من وسعتهم رئاسته الاقتداء به في صفاته، فإن خالفه منهم أحد أمكنه ردعه ونهيه وكان قوله مؤثراً، وأمّا إذا اتّصف الرئيس بالصفات الخسيسة والأفعال القبيحة، فما ظنّك بمن تبعه وانقاد إليه، ورأى الكمال بحسن الانقياد إليه والتأسّي به، فهو لا ريب في جريه على منواله وتبعية حاله لحاله.

ولا يمكن ذلك الرئيس أن ينهاه عن قبيح يرتكبه، وكيف ينهاه عن قبيح هو يرتكبه، وهل يؤثر نهيه عن شيء هو يفعله، فحال القلب

في رئاسته على بقية الجوارح كذلك، والعجب من أفعاله.

فعلى البصير العاقل أن يعلم أنّ ما يعجبه من قوّته، وجماله، وفهمه، وفكره، وعقله، وعلمه، وتعبّده، وماله، وأُسرته، وسلطته، وحسبه، وغير ذلك ممّا يعجبه، نعم عليه أن يعلم انّ كلّ ما يعجبه عرضة للزوال والفناء، فكم أباد الدهر أهل الحسب، وجعل الملوك عبيداً، وصاحب الولد والأُسرة فرداً، والغني فقيراً، وصاحب العبادة والزهد فاسقاً مارقاً، وصاحب العلم بعد العمل جاهلا ضالاً، والعاقل مجنوناً، والمفكّر حائراً، وصاحب الجمال ذميماً، والقوي ضعيفاً نحيفاً. أليس كلّ ذلك محسوساً ملموساً، فهل بعد هذا يا صاحب العقل تكون معجباً بشيء بقاءه وزواله ليس بيدك بل بيد الله سبحانه.

اللّهمّ خلّصنا من هذا الداء العظيم، ونجّنا من كلّ ما يحبط أعمالنا، وألهمنا السعي وراء الحقيقة، والعمل بما يرضيك، إنّك رؤوف بالعباد وإنّك أرحم الراحمين.

***

### الجدّ في العمل:

قوله عليه السلام: «فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ».

هذا أمر منه عليه السلام بما يضاد ما ذكرناه من ملازمة الاعجاب للفتور في العمل، والسير مع موجبات التقدّم، فإنّ الكدح في اللغة: السعي الشديد، وهو أمّا في القول أو في العمل.

أمّا القول فبأن يكون الإنسان لهجاً بمناجح الأُمور، آمراً لها ناهياً عمّا يضادها ويصدّ عنها، وأمّا في العمل فبأن يكون مجدّاً في السعي وراء صالح الأعمال، ويسدّد بها شأنه، ويحفظ بها كرامته عند الله وعند الناس، فإنّه أحفظ للعزّة، وأبقى للوقار وأدوم للمكانة.

فقد كان أئمة الدين عليهم السلام يمتهنون بالتجارة والعمل، حتّى أنّ الإمام علي عليه السلام مجلت يداه من العمل بالمسحاة، وكذلك الإمام الصادق عليه السلام انّه كان بيده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبّب، فقال له أبو عمر الشيباني: جعلت فداك اعطني أكفك، فقال له عليه السلام: إنّي أُحبّ أن يتأذّى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة[1]، وأمثال هذا مأثور عنهم بطرق متكثرة. وهل لهذا التعليم الراقي ـ أي قوله عليه السلام: «فاسع في كدحك» ـ مستقى إلاّ من معين النبوّة، الذي هو مبدأ تعاليم الإمام عليه السلام إذ يقول صلى الله عليه وآله: «إعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً»[2].

وهذا الذي ذكرناه من معنى نبوي، هو الذي يجب أن يفهم من معنى الكلام، كما جنح إليه غير واحد من الأعلام، لا كما حسبه القاصرون من أنّه أمر بالمسامحة في أُمور الدنيا والزهد في زخارفها، نعم الزهد ممّا حثّ عليه الإسلام، ورغّب فيه، لكن ليس معناه أن لا يملك الإنسان شيئاً، وإنّما هو أن لا يملكه شيء، فيجب أن يكون الزاهد عالماً

---

(١) البحار ٤٧ : ٥٧ ح١٠١.

(٢) البحار ٤٤ : ١٣٩ ضمن حديث ٦.

يضع كلّ شيء في موضعه، لا جاهلا كحاطب ليل يضمّ الدرّة إلى البعرة، فالزهد والحالة هذه ينتهي بصاحبه إلى العطل والبطالة، ويصدّه عن التقدّم والبطولة.

***

قوله عليه السلام: «وَلاَ تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ».

يريد عليه السلام نهيه عن أن يكون حظّه من المال محض السدانة، من غير أن يصرفه في مراضي المولى سبحانه فيتنعّم به الورثة، وقد يؤجرون بصرفه فيما يحب الله ويرضى، وهو مأزور بشحّه عن الانفاق في سبيل الله، فهو يوم القيامة من أشدّ الناس حسرةً.

***

**الخشوع لله:**

قوله عليه السلام: «وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

يريدعليه السلام أن يكون سعيه مشغوفاً بالمراقبة، وأن يكون مزيج عمله مرضاة ربّه، وذلك ملازم للخشوع الذي لا يعدو الإنسان معه أن يكون خاضعاً لعظمة الربّ، خائفاً من بطشه، طامعاً في عطفه، وهذه هي الخصال التي لا تبارح الإنسان العامل في حلّه ومرتحله.

***

## الفصل الثالث عشر
## الاستعداد لما بَعد الموت

«وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَة بَعِيدَة، وَمَشَقَّة شَدِيدَة، وَأَنَّهُ لاَ غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الإِرْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلاَغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْـفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْـقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلاَ تَجِدُهُ.

وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً، الْـمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ

حَالاً مِنَ الْـمُثْقِلِ، وَالْـمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْـمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّة أَوْ عَلَى نَار، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْـمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْـمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ».

***

إنّه عليه السلام ينصحه محبّاً له مؤثراً إيّاه بأن يذكّره بالطريق الذي هو مقبل عليه، ويذكّره ببعد هذا الطريق واعوجاجه والتوائه على سالكه مع قلّة الماء، وقلّة الزاد، وعدم النور.

فعليك يا بني أن تروض نفسك، وتحمل عبئك على غاربك، وأن تلحب[1] لنفسك السبيل لتقطعها سهلة منبسطة، لا تقف دونك رابية، ولا تطمس رجلك في وحل.

فبادر إلى حسن الارتياد وإجادة الطلب، وتعيين الزاد الذي يكفيك مؤونة الطريق، شريطة أن يكون خفيفاً لا ترزح[2] تحت أثقاله، فيكون ذلك الزاد الذي ظننته زاداً وبالا عليك، إذ يقعد بك عن التقدّم في السير شيئاً، أوالجدّ في الحركة قليلا.

---

(١) اللّحب: الطريق الواضح.

(٢) رزح يرزح: سقط من الاعياء هُزالا.

وإن أبيت إلاّ أن تكثر من الزاد فاستعن بمن تجده من ذوي الفاقة والعوز، ممّن له إليك أمسّ الحاجة، فاعطه سؤله، وانجح طلبته، فسيقدّم لك ما قدّمته إليه أضعافاً مضاعفة، في يوم قد أضلّك فيه الفقر والحاجة، وبسط عليك رواقه.

أي بني الصبر الصبر، ثمّ العمل العمل، والقناعة القناعة، فإنّ الصبر من الايمان ولا فائدة في ايمان بلا صبر، وإنّما العمل مجلبة للرزق، وانّه لمؤدٍّ إلى الثواب الجزيل المتّصل، وإنّما القناعة كنز ليس له فناء، وذخر ليس مثله ذخر.

ودونك الاغاثة والاعانة، فبادر إلى اعانة من هو في حاجة إليها، وأكثر من ذلك إن كنت في حال ترتع فيه بسوابغ العيش راغداً، ليكون ذلك ذخراً تدّخره ليوم لا ينفع فيها إلاّ ما أسديته من يد، وما عملته من صنع، وإنّك في حال قد أطبق عليها الفقر وأظلّها بأجنحة سود، أمسّ ما تكون حاجة إلى من يمد إليك يد المعونة، وإذا بذلك الذي استقرضك في حال غناك واستدانك إذ كنت على جانب من اليسار، يتقدّم إليك باليد المسبغة عليه.

أي بني وإيّاك والقبيح، وإيّاك والاساءة إلى الناس، فإنّ في عمل القبيح لشرّاً عظيماً، وإنّ في الاساءة إلى الناس لظلماً لا يطاق، ودونك سبيل المعروف فاسلكه، فاعمل إلى الناس خيراً ترى منهم خيراً، ولا تسيء إليهم فيتحيّنون لك الفرص، ويتربّصون بك طاقتهم وقدرتهم، ليردّوا عن أنفسهم الشرّ إلى حيث صدر منه.

ولتعلم أنّ أمامك عقبة كؤود، ليس من اجتيازها بد، وليس عنها من محيص، فقد تكون عندها مخفاً، وقد تكون مثقلا، وأرى أن لو كنت مخفّاً لكان ذلك خيراً لك من أن تكون مثقلا، فإن كنت عندها مثقلاً فالويل كلّ الويل، والثبور كلّ الثبور، فيكون الندم على الأيّام السالفة التي مضت من غير نفع ولا تقديم زاد.

فيكون الندم الشديد ولات ساعة مندم، أو يجدي الندم شيئاً بعد أن يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة، ويوقع نفسه في مهاوي الهلكة، فهناك يود لو عاد إلى الدنيا فاستدرك من أمره ما فات، وتلافى من أمره ما انقضى، وأبدل شرّه بالخير، وإساءته بالإحسان، ولكنّها كلمة لاتكون، فليس الله بمرجع إيّاه إلى دنياه لعلّه يعمل صالحاً فهي كلمة هو قائلها، وليس إليها من سبيل.

وكيف السبيل إلى ذلك؟! وقد حان الحين ، وآن الأوان ، وقدّم إلى ربّه ليحاسبه حساباً شديداً على كلّ ما أتى من الأمر مهما كان ضئيلاً.

وهل يستطيع الهرب وليس هناك من مهرب، ولا إلى غيره من ملجأ، وكيف ذلك وإنّ هناك لحرساً شديداً، وجنوداً لا عداد لها، فها هو ذا واقف مستخذ ذليل خاضع، مهطع رأسه، شاخص بعينيه، تضيق به نفسه ويضيق بنفسه، ولكنّه معها لا يفارقها حتّى ولو أنهى حسابه، فإمّا عذاب شديد وإمّا نعيم مقيم.

وإنّ هناك لصراطاً دقيقاً غاية في الدقة ، ولابدّ من اجتيازه

فهو مـؤد إمّا إلى جنّـة وإمّا إلى نار ، فلكلّ ما أعطي ، وعلى كلّ ما اقترف.

والويل لمن كان نصيبه النار يهوي إليها ليلبث هناك في قعرها ملوماً مدحوراً، يدعو ربّه فلا يجد من مجيب، وينشده الرحمة فلا يجد إلى سؤله من معط، وليست الساعة ساعة رحمة وإشفاق، فما يعمل معه إلاّ ما أراد لنفسه ولم يعط إلاّ ما رضي به لنفسه.

فإليك أتقدّم يا بني ناصحاً، وإليك أُقدّم عظاتي المعبّرة عن مدى اشتباك وشيجة الحبّ ما بينك وبيني، فإذا كنت مصغياً، ولكلامي واعياً، فارتدّ لنفسك قبل أن تصل مثل حراجة ذلك الموقف، ووطّئ منزلك واجعله سهلا بسيطاً قبل أن تحلّ فيه، فأنت إذا متّ وفارقتك الحياة، وزايلتك روحك، فلست إلاّ جسماً لا حركة فيه ولا نأمة، لا يجلب لنفسه منفعة ولا يدفع عن نفسه ضرّاً.

وإنّ روحك لترقى في السماء وسترى ما قدّمت لذاتها إن إحسان فإحسان، وإن إساءة فإساءة، فانصرف نحو تربيتها، وجدّ في تطهيرها، فإنّ الخطاب الإلهي موجّه إليها ومختصّ بها، ليس إلى شيء غيرها، يقول تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْـمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧و٢٨]، ويقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ [الشمس: ٩و١٠].

فلا تهملها ولا تغفل عنها وانشلها من كلّ ما يشين ويحطّ

بكرامتها فإنّها علوية سماوية، فاكسها حلّة الكمال، واخلع عنها ثوب الخسّة، وصنها عن البذاءة والفحش، فإنّ الله حرّم الجنّة على كلّ فحّاش بذيء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له.

❊❊❊

## الفصل الرابع عشر
## الدعاء والاجابة

«واعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرّضْتَ الْـفَضِيحَةُ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْـجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً ، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْـمَتَابِ، وَبَابَ الاسْتِعْتَابِ؛ فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نَدَاءكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ

كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَالْـتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ.

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْـعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ. وَرُبَّمَا سَالْـتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْـمَالُ لاَ يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ».

***

أمّا الآن فإنّ الإمام عليه السلام ينحو مع ولده عليه السلام نحواً خاصّاً، يريده على أن يسأل الله، ويلحف في السؤال، وأن يستعين الله على كلّ شيء، مهما كان أمره.

وإنّه ليوحي بكلماته هذه القليلة إلى ابنه بأنّ خالقه وبارءه،

والذي بيده خزائن السماوات والأرض، والذي بيده زمام كلّ شيء، وإليه يعود كلّ شيء، قد أفاض عليه نعماً جساماً، لا يستطيع لها عدّاً ولا حساباً، ولا يستطيع هو ومن سواه أن يؤدّوا حقّها من الشكر.

فالله سبحانه قد سهّل على الإنسان، فأذن له في الدعاء بعد أن وعده الاجابة إلى كلّ ما تصبوا إليه نفسه، ما لم يخالف ذلك ما ترتئيه الارادة الإلهيّة، وقد أمر الله الإنسان أن يسأله ليعطيه، فهو يقول:

﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة : ١٨٦]. وأمره أن يسترحمه فيرحمه، فقد يكون سؤال الإنسان واسترحامه موجداً لكثير من المصالح التي لم تكن المشيئة الإلهيّة تسوغها له من دون سؤال واسترحام واستعطاف.

وإنّ الإمام ليوحي إلى ولده بأن اسأل ربّك، وألحف في السؤال، وتوسّل إليه وبالغ في التوسّل، فإنّ الابن إذا طلب إلى أبيه حاجة قد لا ينالها لولا أن يشدد في الطلب، ويكثر من السؤال، وإنّ الباب لا يفتح إلاّ بالقرع ثمّ التشديد في ذلك. فتقرّب إليه زلفى، وأحسن في خطواتك إليه، عسى أن تحظى منه بالمكانة السامية والمنزل الرفيع.

ولا يعظمنّ عليك أن تطرق باب ملكوته، ولا يصعب عليك أن تناله، لأنّه سبحانه لم يجعل بينك وبينه حاجزاً إلاّ نفسه، ولم يحوجك إلى من يأذن لك في البلوغ إليه، لأنّه ليس شحيحاً ولا بخيلاً.

أما آن لك أن تعرف أنّه تعالى كريم أيّ كريم، وسخي أيّ سخي،

يرزق من يشاء بغير حساب، ويرزق من سأله، وقد يرزق من لم يسأله، فتقرّب إليه دون أن تفتقر إلى أحد سواه.

وإنّ الإمام عليه السلام ليشعر ابنه، بأن لو كان له من الإثم شيء فلا ييأس ولا يبتئس، لأنّ الله قد جعل للإنسان سبيلا إلى التوبة عن طريق الانابة والندم الشديد.

وما أكثر ما أراد الإمام عليه السلام أن يقرب ولده من الله ويبعده عن غيره، فهو دائب على وصفه بأحسن الوصف. فها هو يقول لابنه بأنّ الله رحيم بلغ من الرحمة شأوها، فكان في غنىً عن أن يسرع في انتقامه منك، وعقوبته لك على ذنبك، وإنّما استمهلك ريثما عدت إلى نفسك، وثبت إلى رشدك، فعلمت من أمرك ما لم تكن تعلم، فظهر لك أنّك مسيء ، قد أتيت من الأمر شيئاً عظيماً ، هنالك تندم وتود لو أنّ أُمّك لم تلدك، وكنت بين أصابع العدم المجهول.

عند ذاك يكون الله قد صفح عنك، وعفى عمّا اقترفته من إثم، وأتيته من جرم ، وارتكبته من إساءة. ألا يا ولدي ، ولتعلم أنّه لم يفضحك في وقت أنت فيه أقرب إلى الفضيحة، ولم يشدد عليك في الانابة، فقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الزمر : ٥٤]، ولم يناقشك بالجريمة التي اكتسبتها بعد أن أتى عليها الاستغفار، فمحاها من صفحة كتابك.

ولم يترك اليأس والقنوط يتسربان إلى قلبك حيث قال:﴿لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر : ٥٣] وإنّما أبدل سيّئتك بعد التوبة حسنة، وحسب سيّئتك واحدة، وضاعف حسنتك في الأجر إلى عشرة أضعاف، فقال:

﴿مَنْ جاءَ بِالْـحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها﴾ [الأنعام : ١٦٠].

وفتح لك أبواب المتاب واسعة فسيحة، وأرهف سمعه إلى ندائك وهو قريب منك، فإذا أخطرت في نفسك أمراً علمه وإذا ناديته استجاب لك، وإذا نفذت إليه بالمناجاة سمع إلى نجواك، وفسح لك المجال في أن تسأله حاجتك وتفضي إليه بسؤلك، وأن تبثّه ما يكنّه فؤادك، وتشكو إليه ما ترزح تحته من حزن وكمد، ومن هموم وأكدار، فأنت إذا فعلت ذلك أو شيئاً من ذلك كان لك قائداً، وهادياً ودليلا ومعيناً.

سبحانك اللّهمّ فما أنت بعاجز عن إعطاء الكثير، فهلاّ سأل الإنسان ربّه ذات يوم فلم يلبه الله لعجز أو قصور، كلاّ إن أردت أيّها الإنسان أن تبلو ربّك فافعل، سله أن يزيد في عمرك، ويوسع عليك في رزقك، ويعصمك من الشرور والآثام.

تلفه يوكلك أمر خزائنه بأن يوكّل إليك مفاتحها تأخذ من تلك الخزائن ما يكفيك وزيادة، وليس ينظر إليك بالمرصاد، ووالله ما خزائن الله إلاّ ما يسيطر عليه ممّا نعلم وممّا لا نعلم، وما مفاتحها إلاّ تلك المناجاة، وتلك التوسّلات في خشوع وخضوع، فادعه تنفتح لك نعمته، وينهمل عليك وابل رحمته، حتّى ترتوي ويذهب عنك الظمأ، كما تروى الأرض ويفارقها الظمأ.

### شروط الدعاء:

بيد أنّ الدعاء مشروط بأن يكون على وجه الاستكانة والخضوع،

مع الاعتراف بالذلة والنقص، والاضطرار والعجز قلباً ولساناً وهيئة، وإنّه لا فرج له إلاّ من لدن سيّده، ولا خير له إلاّ من عنده قولا وضميراً، فيردد لسانه بأنواع التضرّع والجوار، وتتصرّف يداه نحو السماء في ضروب من الشكل والحركات، ولا يبتهل حتّى يذري دموعه ويشخص بصره، وهل إخلاص العبادة إلاّ هذه الأحوال، فكان الدعاء بهذه الكيفية من أشرف العبادة، وبحسب العبادة يتمّ الشرف الإنساني، ويخلص الغرض الإلهي.

## ضرورة الدعاء:

الدعاء من مستلزمات العبادة، إذ هو الصلة التي تربط بين الإنسان وخالقه، والدعاء فطري في الإنسان، فهو يشعر بحنين إلى الله يفزع إليه عند الشدائد، ويتضرّع إليه في كشف السوء عنه، فهو ضعيف أمام أحداث الحياة، لا يجد مسنداً لضعفه غير الدعاء.

ولذلك اعتنى القرآن بالدعاء وحثّ عليه، جاء في القرآن: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] ففي هذه الآية وصف الله الدعاء بأنّه من العبادة التي يستحقّ من يستكبر عنها غضب الله.

## الدعاء علاج نفسي:

والدعاء علاج نفسي لكثير من أمراض النفس، فالانسان بطبيعته محتاج في مشكلاته لأن يفضي بدخيلة نفسه إلى صديق حميم، يخفّف عنه

بعض ما يشعر به من الهمّ والحزن، وقد أجمع الأطباء النفسيّون على أن علاج التوتّر العصبي والآلام النفسية، إنّما يتوقّف إلى حدّ كبير على الافضاء ـ بسبب التوتّر ومنشأ القلق ـ إلى صديق مخلص، فإنّ كتمانه ممّا يزيد المرض.

فإذا أفضى الإنسان المحزون إلى ربّه ما يعانيه، وطلب منه ما يبتغيه فإنّه يشعر بطمأنينة، ونفحة روحية تنشله ممّا هو فيه من الهمّ والضيق، وذلك مع الايمان والاعتقاد التام، بأنّ الله قريب منه مجيب دعوته، كما أخبر بذلك القرآن: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قيل في سبب نزول هذه الآية: إنّ أعرابياً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله فقال: أقريب ربّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فسكت عنه الرسول، فأنزل الله هذه الآية(١).

## الدعاء في السرّاء والضرّاء:

والدعاء الذي يطلبه الإسلام، هو أن يكون في السراء كما يكون في الضراء لأنّه بذلك أدعى لئن يكون على الدوام متذكّراً ربّه مستجيباً لأوامره، محقّقاً معنى العبودية له، فإنّ الإنسان بطبيعته يلجأ إلى ربّه عند الشدّة، ولكن ما أنْ يكشف الله عنه ما به من ضرّ حتّى ينسى الله ويغتر بقوّته، فيؤدي به إلى الإعراض عن أوامر الله والافساد في الأرض.

---

(١) الدرّ المنثور ١ : ٤٦٩ سورة البقرة.

وقد وصف الله هذه الحالات التي تنتاب كثيراً من الناس، ليحذر المؤمنين من الوقوع في الجحود والنكران له، قال سبحانه: ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذا مَسَّ الإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس : ١٢].

وقال سبحانه ممتنّاً على بعض خلقه الذين يتعرّضون لخطر الغرق ثمّ ينجيهم من فضله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْـبَرِّ وَالْـبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْـفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْـمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْـحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس : ٢٢و٢٣].

فلا يجمل بالإنسان أن يعصي الله بعد أن أنقذه من الهلاك، بل ينبغي أن يجعل ذلك الخطر الذي وقع فيه حافزاً له لطاعة الله، والسير على الطريق الذي رسمه.

### شروط الدعاء:

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «للدعاء شروط أربعة: الأوّل

إحضار النيّة، الثاني إخلاص السريرة، الثالث معرفة المسؤول، الرابع الانصاف في المسألة»[١].

روي أنّ أحد الملوك كان عقيماً لم يولد له، فكان يخرج آخر الليل إلى الصحراء ويدعو الله تعالى ويتضرّع إليه بأن يرزقه ولداً، فبقي على هذه الحال مدّة إلى أن ضجر ذات ليلة، وقال: إلهي أنا لا أدري أقريب أنت فتسمع ثمّ لا تجيب، أم بعيد أنت فلا تسمع، فلمّا رجع إذا بهاتف يهتف به: يا فلان أنا أقرب إليك من حبل الوريد، أسمع صوتك ولكن أريد أن تدعوني بقلب خالص، وسريرة طاهرة.

فالله جلّ وعلا يريد من العبد أن يدعوه بقلب خاشع، وضمير نقي، وبدن خاضع، وجوارح متذلّلة، ويقين واثق بالاجابة، وأن لا يكون قلبه متشاغلا بغير الله. فقد روي أنّ موسى النبي عليه السلام مرّ عند مناجاته برجل ساجد يبكي ويدعو ويتضرّع، فقال موسى: يا ربّ لو كانت حاجة هذا العبد بيدي لقضيتها، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إنّه يدعوني وقلبه مشغول بغنم له، فلو سجد حتّى ينقطع صلبه، وتتفقّأ عيناه لم أستجب له حتّى يتحوّل عمّا أبغض إلى ما أحبّ»[٢].

مرّ إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة، فاجتمع الناس إليه، وقالوا: يا أبا إسحاق ما لنا ندعوا فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنّ قلوبكم ماتت بعشرة أشياء:

---

(١) ارشاد القلوب : ١٤٩ ، الباب السابع والأربعون.

(٢) ارشاد القلوب : ١٤٩ باب ٤٧.

الأوّل: إنّكم عرفتم الله فلم تؤدّوا حقّه.
الثاني: زعمتم أنّكم تحبّون رسول الله ثمّ تركتم سنّته.
الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به.
الرابع: أكلتم نعمة الله ولم تؤدّوا شكرها.
الخامس: قلتم انّ الشيطان عدوّكم ووافقتموه.
السادس: قلتم انّ الجنّة حقّ فلم تعملوا لها.
السابع: قلتم إنّ النار حقّ ولم تهربوا منها.
الثامن: قلتم انّ الموت حقّ فلم تستعدّوا له.
التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم.
العاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم.

فكيف يستجاب لكم وأنتم على مثل هذه الأحوال، إنّما يستجاب لمن كان ذو نيّة صادقة، وضمير طاهر، وقلب نقي وإلاّ ما كان الله ليفتح للعبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الاجابة، وهو يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] وما كان الله ليفتح باب التوبة ويغلق باب المغفرة، لأنّه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ [الشورى : ٢٥].

وما كان الله ليفتح باب الشكر ويغلق باب الزيادة، لأنّه يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : ٧]، وما كان الله ليفتح باب التوكّل ولم يجعل للمتوكّل مخرجاً، فإنّه سبحانه يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ

مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣][(١)].

وجاء عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الدعاء يردّ القضاء المبرم»[(٢)].

وقال: «من سرّه أن يكشف عنه البلاء فليكثر من الدعاء»[(٣)].

روي أنّ تاجراً كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله يسافر من المدينة إلى الشام، ولا يصحب القوافل توكّلاً على الله، فعرض له لصّ في طريقه وصاح به وتعرّض له، فقال له التاجر: خذ المال ودعني، فقال: لا غنى لي عن نفسك.

فقال: إذن دعني أتوضّأ وأُصلّي أربع ركعات، فقال: افعل ما شئت فتوضّأ وصلّى، ثمّ رفع يده إلى السماء وقال: «يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ يا معيد، يا ذا البطش الشديد، يا فعّالا لما يريد، أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كلّ شيء، لا إله إلاّ أنت، يا مغيث أغثني، يا مغيث صلّ على محمّد وآل محمّد أغثني».

فإذا هو بفارس على فرس أشهب عليه ثياب خضر وبيده رمح،

---

(١) راجع روضات الجنات ١ : ١٤٩ رقم ٣٤.

(٢) ارشاد القلوب : ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه.

فشدّ على اللص فطعنه طعنة فقتله، ثمّ قال للتاجر: اعلم انّي ملك من السماء الثالثة حين دعوت سمعنا أبواب السماء قد تفتّحت، فنزل جبرئيل وأمرني بقتله.

واعلم يا عبد الله انّه ما دعا بدعائك هذا مكروب ولا محزون إلاّ وفرّج الله عنه وأغاثه، فرجع التاجر إلى المدينة سالماً فأخبر النبي صلى الله عليه وآله بذلك، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: لقد لقّنك الله أسماءه الحسنى التي إذا دعي بها أجاب، وإذا سئل بها أعطى[1].

***

## فلسفة تأخّر الاجابة:

قوله عليه السلام: «فَلاَ يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْـعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ، وَرُبَّمَا سَالْـتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلا أَوْ آجِلا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْر قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْـمَالُ لاَ يَبْقَى لَكَ وَلاَ تَبْقَى لَهُ».

فالإمام عليه السلام يعلّم ولده بأنّه قد يسأل الله سبحانه فلا يجيبه إلى

---

(١) ارشاد القلوب: ١٥١.

سؤله، أو قد يبطئ عليه في الاجابة لا لأنّه عاجز قاصر عن أن يجيب كلاّ، وإنّما ذلك لأمر ما، فإنّ لله في شؤونه مصالح وحكماً، وإنّ لها لسرّاً غامضاً، وخبراً مكتوماً، لا يطمع في ذلك بفهم أو تأويل، لأنّ الله في شؤونه وإرادته لا يصلح لشيء من الفهم والتأويل.

وإنّه عليه السلام ليعلمه بأنّ من الذنب ما يكون حاجباً يحجب الدعاء عن القبول، فإذا هو يوصيه بأنّه إن أبطأ الله عليك في الاجابة، فلعلّ بين أعمالك عملا نابياً، فارجع إلى صحائف أيّامك وتصفّحها صفحة صفحة، فلعلّك تعثر فيها على ذنب اقترفته وجرم ارتكبته، فطهّر نفسك منه، واعصم نفسك عمّا يجلبه عليك، فعسى أن تصفو نيّتك، ويطهر قلبك، فيستجيب لك إليه فيما تريد.

وهكذا جاء في دعاء علي عليه السلام المعروف بدعاء كميل: «اللّهمّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء»، ومن هنا كان النبي صلى الله عليه وآله يستعيذ بالله، ويقول: «أعوذ بك من الذنوب التي تردّ الدعاء».

وروي أنّ عيسى عليه السلام خرج يستسقي، فلمّا ضجروا قال لهم عيسى: من أصاب منكم ذنباً فليرجع، فرجعوا كلّهمّ ولم يبق معه في المفازة إلاّ واحد، فقال له عيسى عليه السلام: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما علمت من شيء غير أنّي كنت ذات يوم أُصلّي فمرّت بي امرأة، فنظرت إليها بعيني هذه، فلمّا جاوزتني أدخلت إصبعي في عيني فانتزعتها وأتبعت المرأة بها، فقال له عيسى: فادع الله حتّى أؤمّن على دعائك، فدعا فتجلّلت السماء سحاباً، ثمّ صبّت فسقوا.

وخرج سليمان بن داود عليه السلام يستسقي فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: «اللّهمّ إنّا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا» فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم[1].

وأصاب بني اسرائيل قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرّات فما أُجيب، فأوحى الله تعالى إليه: إنّي لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام قد أصرّ على النميمة، فقال موسى: يا ربّ من هو حتّى نخرجه من بيننا، فقال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً، فتابوا بأجمعهم فسقوا[2].

***

(١) البحار ٦٤ : ٢٦٠ ح٩.

(٢) البحار ٧٥ : ٢٦٨ ح١٩؛ المحجة البيضاء ٥ : ٢٧٦.

## الفصل الخامس عشر
## الإكثار من ذكر الموت

«واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لاَ لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لاَ لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لاَ لِلْحَيَاةِ؛ وَأَنَّكَ فِي منزل قُلْعَة، وَدارِ بُلْغَة، وَطَرِيق إِلَى الآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْـمَوْتِ الَّذِي لاَ يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلاَبُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَال سَيِّئَة، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْـمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْـمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلاَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ

نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْض، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَة بِوَاد وَعْث، لَيْسَ لَهَا رَاع يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْـعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْـهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا. رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلاَمُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ!».

***

## خُلقنا للآخرة:

قوله عليه السلام: «إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لاَ لِلدُّنْيَا».

لأنّه لو كان مخلوقاً للدنيا، فإنّ نفعه والانتفاع به منصرم لا محالة، والإنسان إنّما كون لأن يفيد ويستفيد مع الخلود، إمّا بوجود الماثل بين الموجودات، أو بأثره الخالد بين طيّات القلوب من علم ناجع، وأخلاق حميدة، وضرائب جميلة.

وأمّا أنّه خلق للفناء لا للبقاء، فتلك سنّة الله التي جرت في عامة مخلوقاته، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر : ٤٣] ولا يناقض هذا ما ذكر من أنّ مصير الإنسان غير منته إلى النفاد، وإنّما هو انتقال من دار إلى أُخرى، وليس النافد هاهنا منه إلاّ صورته البائدة، وجسمه البالي، على حد قول أبي العلاء المعرّي:

خلـق النـاس للبقـاء فضلّت أُمّــة يحسبـونهــا للنفــاد

إنّمـا ينقلــون من دار أعمــال إلى دار شقــوة أو رشـــاد

وأمّا هو ذاته فلا يعروه النفاد في أثره، بل هو باق ما تسنّم المولى عرش ملكه.

وأمّا أنّه خلق للموت لا للحياة، فإنّ الموت وإن كان مكدراً لهناء الإنسان، ومنغّصاً لشهواته ما خطرت له خاطرة منه، فإنّه جمال الإنسان وجمام نفسه، وساتر عواره، بل فيه سعادته وكماله ما اتّخذ الطريق اللاّحب منهجاً له، ولا تبعد عنك الأحاديث الشريفة التي تصوّر من الموت شيئاً محبباً إلى القلوب، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «تحفة المؤمن الموت»(١)، وقال: «الموت كفّارة لكلّ مسلم»(٢).

وقال: «الموت الموت ألا ولابدّ من الموت، جاء الموت بما فيه، جاء بالروح والراحة، والكرة المباركة إلى جنّة عالية لأهل دار الخلود، الذين

(١) دعوات الراوندي : ٢٣٥ ح٦٤٨.

(٢) دعوات الراوندي : ٢٣٥ ح٦٤٩.

كان لها سعيهم، وفيها رغبتهم»[1]، إلى أمثالها من الكثير الطيب، غير أنّه غير عازب عن فكرة الإنسان النابه، أنّ المراد من مفاد هذه المأثورات من سلك الطريق الجدد في دينه، أو تنكب العيث والعبث في سلوكه، وإلاّ فليس من المعقول أن يرتكب الإنسان مظاهر الخلاعة والمجون، ثمّ ينتهي أمره إلى نعومة الخاطر ورغد العيش، فليس ذلك بمقربة من العدل الإلهي.

## أسباب الخوف من الموت وعلاجه:

نذكر هنا أسباب الخوف من الموت مع العلاج الناجع لكلّ سبب، وأشهر هذه الأسباب خمسة:

١ ـ عدم معرفة حقيقة الموت:

ليس الموت بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها ـ وهي الأعضاء التي يسمّى مجموعها بدناً ـ ، كما يترك الصانع استعمال آلاته، والنفس جوهر ليس بجسم ولا عرض ولا قابل للفساد، وهذا الجوهر مفارق لجوهر البدن مباين له كلّ المباينة بذاته وخواصه وأفعاله وآثاره، فإذا فارق البدن بقي البقاء الذي يخصّه، وتخلص من علائق الطبيعة، ولا سبيل إلى فنائه وعدمه، فإنّ الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر، ولا تبطل ذاته، وإنّما تبطل الاعراض والنسب والاضافات التي بينه وبين

(١) البحار ٦ : ١٢٦ ح٤.

الأجسام بأضدادها، فأمّا الجوهر فلا ضدّ له، وكلّ شيء فإنّما فساده من ضدّه.

وإن تأمّلنا الجوهر الجسماني الذي هو أخسّ من ذلك الجوهر الكريم واستقرينا حاله، وجدناه غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر، وإنّما يستحيل من حالة إلى أُخرى، وتستحيل خواصّه وأعراضه التي كانت له في الحالة الأُولى إلى خواص وأعراض تناسب الحالة الأُخرى.

فأمّا الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل إلى عدمه وبطلانه، مثال ذلك الماء، فإنّه يستحيل بخاراً وهواءً، وكذلك الهواء يستحيل ماءً وناراً، فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصّه، وأمّا هو فلا سبيل إلى عدمه.

هذا في الجوهر الجسماني القابل للاستحالة والتغيّر، وأمّا الجوهر الروحاني الذي لا يقبل الاستحالة ولا التغيّر في ذاته، وإنّما يقبل كماله وتمام صوره، فكيف يتوهّم فيه العدم والتلاشي.

٢ ـ جهل المصير أو جهل بقاء النفس:

من يخاف الموت لأنّه لا يعلم إلى أين يصير بعده، وجهل بقاء النفس، وكيفية المعاد، فليس في الحقيقة يخاف الموت، وإنّما يجهل ما ينبغي أن يعلمه، فالجهل إذن هو المخوف.

وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به، وتركوا لأجله اللذات الجسمانية وراحات البدن، وفضّلوا عليه النصب والسهر، ورأوا أنّ الراحة من طرح الجهل هي الراحة الحقيقية، وأنّ

التعب الحقيقي هو تعب الجهل، لأنّه مرض مزمن للنفس، والبرء منه خلاص لها، وراحة سرمدية ولذّة أبدية.

لذلك وجب على العاقل أن يطلب العلم الحقيقي الذي يكشف له حال الإنسان بعد موته، كما قال حارثة للنبي صلى الله عليه وآله: كأنّي أنظر إلى عرش ربّي بارزاً، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون فيها، وإلى أهنل النار يتلاعنون فيها[1].

وهذا العلم إنّما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس، ووجه علاقتها بالبدن، ووجه خاصيّتها التي خلقت لها، ووجه التذاذه بخاصيّته وكماله، مع معرفة الرذائل المانعة له من كماله، وقد نبّه الشرع الشريف على ذلك العلم في مواضع كثيرة وأمر بالتفكّر في النفس، كما أمر بالتفكّر في ملكوت السماوات والأرض.

ولمّا تيقّن الحكماء أنّ كمال النفس وسعادتها في العلم، ونقصها وشقاءها من الجهل، ولا برء من هذا إلاّ بذاك، لما تيقّنوا ذلك واستبصروا فيه، وهجموا على حقيقته، ووصلوا إلى الروح والراحة منه، هانت عليهم أمور الدنيا كلّها، واحتقروا ما يعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسية والمطالب التي تؤدّي إليها، إذ كانت قليلة الثبات والبقاء، سريعة الزوال والفناء، كثيرة الهموم إذا وجدت، عظيمة الغموم إذا فقدت.

---

(١) البحار ٢٢ : ١٢٦ ضمن حديث ٩٨.

وقد اقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة، وتسلوا عن فضول العيش الذي حوى ما ذكر من العيوب وما لم يذكر، ولأنّها مع ذلك بلا نهاية، لأنّ الإنسان إذا بلغ منها غاية تاقت نفسه إلى غاية أُخرى، من غير وقوف على حدّ، ولا انتهاء إلى أمد.

وهذا هو الموت لا ما يخاف منه، والحرص عليه هو الحرص على الزائل، والشغل به هو الشغل بالباطل، ولذلك جزم الحكماء بأنّ الموت موتان: موت إرادي وموت طبعي، وكذلك الحياة حياتان: حياة إرادية، وحياة طبعية.

وعنوا بالموت الارادي إماتة الشهوات وترك التعرّض لها، وبالموت الطبعي مفارقة النفس البدن، وعنوا بالحياة الاراديّة ما يسعى له الإنسان لحياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات، وبالحياة الطبعية بقاء النفس السرمدي بما تستفيده من العلوم الحقيقية، وتبرء به من الجهل.

ولذلك وصّى افلاطون طالب الحياة بقوله له: «مت بالارادة تحيي بالطبيعة» ومثل ذلك قول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «من أمات نفسه في الدنيا فقد أحياها في الآخرة» على أنّ من خاف الموت الطبعي للانسان فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه، ذلك أنّ هذا الموت هو تمام حدّ الإنسان لأنّه حيّ ناطق ميّت.

قال الراغب الاصفهاني: «وليس معناه ما توهّمه كثير من الناس، من أنّه من الحياة الحيوانية والموت الحيواني، والنطق الذي هو في

الإنسان بالقوّة، وإنّما أريد بالحيّ من كانت له الحياة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً﴾ [يس: ٧٠]، وبالنطق البيان المذكور بقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْـبَيَانَ﴾ [الرحمن : ٤]، وبالميت من جعل قوّته الشهوانية والغضبية مقهورتين على مقتضى الشريعة».

فالموت تمام الإنسان وكماله، وبه يصير إلى أُفقه الأعلى، ومن علم أنّ كلّ شيء مركّب من حدّ، وحدّه مركّب من جنسه وفصوله، وأنّ جنس الإنسان هو الحيّ، وفصيله الناطق والميّت، علم أنّه سينحل إلى جنسه وفصوله، لأنّ كلّ مركّب لا محالة منحلّ إلى ما تركّب منه، فمن أجهل ممّن يخاف تمام ذاته، ومن أسوء حالا ممّن يظنّ أنّ فناءه بحياته، ونقصانه بتمامه، ذلك بأنّ الناقص إذا خاف أن يتمّ، فقد دلّ من نفسه على غاية الجهل.

فإذن الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان، ويأنس بالتمام، ويطلب كلّ ما يتممه، ويكمله، ويشرفه، ويعلي منزلته، ويخلي رباطه من الوجه الذي يأمن به الوقوع في الأسر لا من الوجه الذي يشدّ وثاقه، ويزيده تركيباً وتعقيداً، ويثق بأنّ الجوهر الشريف الإلهي إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني، خلاص بقاء وصفو لاخلاص مزاج وكدر، فقد سعد وعاد إلى ملكوته، وقرب من بارئه، وفاز بجوار ربّ العالمين، وخالط الأرواح الطيّبة من أشكاله وأشباهه، ونجا من أضداده وأغياره.

ومن هنا يعلم أنّ من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة إليه خائفة

من فراقه، فهي في غاية الشقاء والبُعد من ذاتها وجوهرها، سالكة إلى أبعد جهاتها من مستقرّها، طالبة قرار ما لا قرار له.

٣ ـ خوف العقاب الذي يعقب الموت:

إنّ من خاف الموت لأجل العقاب الذي يوعد به بعده، ينبغي أن نبيّن له أنّه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب، وهو لا محالة معترف بذنوب له، وأفعال سيّئة يستحقّ عليها العقاب، ومع ذلك هو معترف بحاكم عدل يعاقب على السيّئات لا على الحسنات، فهو إذن خائف من ذنوبه لا من الموت.

ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه، ويتدارك ما فرّط منه بالتوبة النصوح، والأفعال الرديئة التي تسمّى ذنوباً إنّما تصدر عن أخلاق رديئة هي منشأ الرذائل التي أحصيناها وعرفنا أضدادها من الفضائل، فالخائف من الموت من هذه الجهة جاهل بما ينبغي أن يخاف منه، وعلاج الجهل هو العلم، فالحكمة هي التي تخلّصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة الناشئة عن الجهل، والله الموفّق لما فيه الخير.

٤ ـ جهل ما يقدم عليه بعد الموت:

ومثل ما تقدّم من خاف الموت لأنّه لا يدري على ما يقدم بعد الموت، لأنّ هذه حال الجاهل الذي يخاف بجهله، فعلاجه أن يتعلّم ليعلم ويشتاق، وذلك أنّ من أثبت لنفسه حالا بعد الموت، ثمّ لم يعلم ما هي تلك الحال فقد أقرّ بالجهل، وعلاج الجهل العلم، ومن علم فقد وثق،

ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة فهو يسلكها لا محالة، ومن سلك طريقاً مستقيماً إلى غرض صحيح فقد أفضى إليه بلا شك ولا مرية، وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين، وهي حال المستبصر في دينه المستمسك بحكمته.

٥ ـ الحزن على ما يخلف من الأهل والولد والمال:

من يزعم أنّه ليس يخاف الموت، وإنّما يحزن على ما يخلف من أهله وولده وماله ونشبه، ويأسف على ما يفوته من ملاذّ الدنيا وشهواتها، ينبغي له أن يعلم أنّ الحزن تعجل ألم ومكروه على ما لا يجدي الحزن عليه.

***

## ذكر الموت:

الإنسان في تذكّر الموت حالان: حال قبله، وأُخرى عنده.

■ الحالة الأُولى:

ينبغي للإنسان قبل الموت أن يكون دائم الذكر له، ولذلك كان من أوّل هداية الأنبياء للناس تذكيرهم الموت وحثّهم على دوام تذكّره، ومن أكبر هَمِّ الفلاسفة تفكيرهم به، وبسط القول في أنّ الحياة باطلة والموت حقّ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أكثروا من ذكر هادم اللذات، فإنّه ما ذكره أحد في ضيق إلاّ وسّعه عليه، ولا في سعة إلاّ ضيّقها عليه»[1].

---

(١) صحيح ابن حبان ٧ : ٢٦٠ ح٢٩٩٣، والترغيب ٤ : ٢٣٥ ح١.

وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنّة أجروها بينهم مجرى العادة في وجوب تذكّر الموت كلّ حين، فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً بقدره، ووضعوه بجانب المهد، يجدّدونه على مقدار النموّ في الطفل، ولا يزالون يفعلون ذلك، حتّى إذا بلغ أشدّه وضعوا النعش بجانب السرير إلى أن يحلّ يوم أجله، فيحملونه عليه، يشيرون بذلك إلى أنّ يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلان متّصلان، وأنّ الإنسان يمشي في هذه الدنيا وكأنّه عابر جسر، عن يمينه الموت، وعن شماله الحياة.

وأنّه كما يدبّ بنموّه في الحياة يدبّ بأنفاسه نحو الممات، وأنّه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت، كما يحضره ذكر الحياة، وأنّ اليقين كلّ اليقين في أعواد النعش، والشكّ كلّ الشكّ في أساطين القصر، وهم يلبسون السواد حداداً في يوم الولادة، والبياض فرحاً عند حلول الأجل، ولم يعتبروه شرّاً، بل هو الخير كلّه عندهم.

فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتّخذ في كلّ منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلّقه بالبقاء في الحياة الدنيا، ويمحو من ذاكرته كلّ سبب يربطه بصفائح القبر فما الدنيا في الآخرة، كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «إلاّ مثل ما يجعل الواحد اصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع»[1].

---

(١) البحار ٧٣ : ١١٩ ح١١٠.

ما عليه الناس في هذه الحالة:

الناس في الحالة السابقة ينقسمون ثلاثة أقسام: قسم لا يذكره البتة، وقسم يذكره رعباً وخشيةً، وآخر يذكره عقلا وحكمةً.

القسم الأوّل: هو ذلك الأحمق الذي لا يتذكّر الموت، ولا يجري له على خاطر، كأنّه قد رسخ في ذهنه أن لا فناء، فلا يحسّ هذه الحقيقة إلاّ عند المشاهدة، ولا يذكر الموت إلاّ ريثما تنقضي تلك المشاهدة، كأنّه يشتدّ به المرض أو يختطف الموت أحد أهله أو جيرانه.

فهو لا يتفكّر في الموت وما بعده إلاّ نظراً في حال أولاده وتركاته عند موته، ولا ينظر ويتدبّر في أحوال نفسه، وعندما يرى جنازة إلاّ بقوله بلسانه ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ ولا يرجع إلى الله بأفعاله بل بأقواله فقط، فيكون كاذباً فيها تحقيقاً.

القسم الثاني: وهو ذلك الذي يذكر الموت دائماً لخشيته من وقوعه وخوفه من نزوله، فيتولاّهم الرعب، ويستولي عليهم الفزع، وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم، وانتقلوا إلى أوقات فراغهم، فيكدرون صفاء هنائهم، ويسوّدون بياض معيشتهم.

وأشدّ ما يكون عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة إثر النعمة، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة، فنراهم في همّ دائم وعناء مقيم، للتوقّي من الأخطار، والتحرّز من أسباب الهلاك، ويتغالون في ذلك التوقّي إلى حال الجنون، فيحاذرون هبوب النسيم

وحرارة الضياء، ويتوهّمون في كلّ لقمة تخمة، وفي كلّ جرعة غصّة، حتّى تمرض الأجسام من تلك الوساوس والأوهام التي قد تؤدّي إلى الموت الزؤام.

القسم الثالث: وهو العاقل الكيّس الذي لا يفارقه ذكر الموت كالمسافر إلى مقصد الحجّ مثلا، فإنّه لا يفارقه ذكر المقصد، وأشغال المنازل في الحطّ والترحال لا تنسيه مقصوده، وذلك لأنّه يعلم أنّ ذكر الموت يطرد فضول الأمل، ويكفّ غرب المنى، ويهون المصائب، ويحول بين الإنسان والطغيان.

ومن ذكر الموت تتولّد القناعة بما رزق، والمبادرة إلى التوبة، وترك المحاسدة والحرص على الدنيا، والنشاط في العبادة، ولا ينبغي أن يهمل الإنسان نفسه من تذكّر الموت أكثر من يوم، بل يصبح كلّ يوم على تقدير الاستعداد للرحلة، فكلّ من ينتظر أن يدعوه ملك من الملوك كلّ ساعة ينبغي أن يكون مستعدّاً للإجابة، فإن لم يكن فربّما يأتيه الرسول وهو غافل، فيحرم السعادة، فما من وقت إلاّ والموت فيه ممكن.

■ **الحالة الثانية:**

هي حال الإنسان عند الموت، والناس عنده ثلاثة أقسام أيضاً:

الأوّل: ذو بصيرة وعلم أنّ الموت يعتقه، والحياة تسترقه، وأنّ الإنسان وإن طال في الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السماء، ثمّ عادت للاختفاء، فلا يثقل عليه الخروج من الدنيا إلاّ بقدر

ما يفوت من خدمة ربّه عزّ وجلّ، والازدياد من تقرّبه، والاشفاق ممّا يقول أو يقال له، كما قال بعضهم لمّا قيل له: لم تجزع؟ قال: لأنّي أسلك طريقاً لم أعهده، وأقدم على ربّ لم أره، ولا أدري ما أقول وما يقال لي.

ومثل هذا الشخص لا ينفر من الموت، بل إذا عجز عن زيادة العبادة ربّما اشتاق إليه، وقال بعضهم في مناجاته: إلهي إن سألتك الحياة في دار الممات فقد رغبت في البعد عنك، وزهدت في القرب منك، فقد قال نبيّك وصفيّك صلى الله عليه وآله: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله فقد كره الله لقاءه».

والثاني: رجل رديء البصيرة، متلطّخ السريرة، منهمك في الدنيا، منغمس في علائقها، رضي بالحياة الدنيا، واطمأنّ بها، ويئس من الدار الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور، فإذا خرج إلى دار الخلود أضرّ ذلك به، كما تضرّ رياح الورد بالجعل، وإذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلاء، ومصباح الملأ الأعلى، فكان كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الاسراء : ٧٢].

فالدنيا سجن الأوّل وجنّة الثاني، (والأوّل) كعبد دعاه مولاه، فأجابه طوعاً، وقدم عليه مسروراً يتوافر على خدمته، (والثاني) كعبد آبق، ردّ إلى مولاه مأسوراً، وقيّد إلى حضرته مقهوراً، فبقى ناكس الرأس بين يدي مولاه، مختزياً من جنايته، وشتّان ما بين الحالين.

والثالث: رتبة بين الرتبتين: رجل عرف غوائل هذا العالم، وكره صحبته ولكن أنس به وألفه، فسبيله سبيل من ألف بيتاً مظلماً قذراً ولم ير غيره، فهو يكره الخروج منه، وإن كان قد كره دخوله، فإذا خرج ورأى ما أعدّ الله للصالحين لم يتأسّف على ما كره فواته، بل قال:

﴿الْـحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْـحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْـمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾ [فاطر : ٣٤-٣٥].

ولا يبعد أن يكره الإنسان مفارقة شيء، ثمّ إذا فارقه لا يتأسّف عليه، فالصبيّ وقت الولادة يبكي لما يناله من ألم الانتقال، ثمّ إذا عقل لا يتمنّى العود إليه، والموت ولادة ثانية يستفاد بها كمال لم يكن قبل، بشرط ألاّ يكون قد تقدّم قبل ذلك الكمال من الآفات والعوارض ما أبطل قبول المحلّ للكمال، كما أنّ الولادة سبب لكمال مغبوط لم يكن عند الاجتنان بشرط ألاّ يصيبه وقتئذ من الأسباب والعلل ما منع قبول الكمال.

والموت من العقائد الراسخة، والاعتقاد به يكاد يكون عامّاً بين الأُمم والأجيال، فلا تكاد تخلو كلّ أُمّة أيّاً كانت من اعتقاد بموت، ولكن هذه الفكرة وأوصاف الموت تختلف بين هذه الأُمم اختلافاً كبيراً، والقرآن يصف الموت بأوصاف نلخّصها ممّا ورد فيه.

فهو ليس موتاً لا حياة بعده، ولا هو من البساطة بصفة يشبه النوم، وإنّما هو انتقال من دار إلى أُخرى، فهو موت بعده حياة أُخرى

وراء هذه الحياة، ويومها يوم القيامة يوم الدين ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْـقِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْـمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت : ٥٧] وليس من الموت من مهرب أو ملجأ مهما عظم شأنه ﴿أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْـمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨].

وليس الموت ينظر إلى الناس بعين التمييز بين الأفراد الواطئة، والطبقات الراقية، بل هو ينظر إليهم كموجودات طبيعية تعرض عليها عوارض الطبيعة ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر : ٣٠].

## صفة اُخرى للموت:

وإذا أردت أن تعرف من صفات الموت صفة أُخرى، فاعرف انّه يفاجئ الإنسان ويأتيه بغتةً، فيبهره من دون إعلام سابق.

﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٤].

وكذلك لا يعلم الإنسان اسم التربة التي يموت فيها: ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان : ٣٤].

وكلّ هذه الخصائص للموت استأثر بعلم حكمتها الله، وعرف المصلحة في جعلها بهذه الصورة، ويظهر لك سبب إخفاء ذلك واضحاً

جليّاً إذا قرأت قوله تعالى: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن : ٢٦].

ولا يفوتنا أن نعلم أنّ معنى «قلعة» هو المحلّ الذي لا يصلح للاستيطان، أشبه شيء بمنزل الاستراحة لعابري سبيل لا يهنأ لهم عيش كما يهنأ لهم وهم في زوايا بيوتهم آمنين، ولا يلذّ لهم نوم وخاصّة إذا كانوا في طريق قفر ذات رمال وأعثاء، تغطس فيها الرجل ثمّ لا تخرج إلاّ لتغطس مرّة أُخرى على بعد قدم، وإذا الأخطار تحفّ بهم من كلّ جانب.

**الدنيا دار بُلغة:**

ويقصد الإمام عليه السلام من قوله: «دَارِ بُلْغَة» إلى أنّ هذه الدار ليست دار رفاهية وترف كي يأخذ الإنسان فيها جمام نفسه، بل انّها دار بلغة ـ أي للإنسان أن يتبلّغ منها بما يقيم أوده، ويصلب عوده ـ .

ويرمي الإمام عليه السلام من قوله: «طَرِيق إِلَى الآخِرَةِ» إلى أنّ الدنيا دار أعمال يعمل فيها الإنسان ما وسعه العمل، ليأخذ أجره وافراً غير منقوص في تلك الدار الأُخرى، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧-٨].

وهذه الطريق ذات مفرقين، يؤدّي أحدهما إلى الجنّة، ويؤدّي الآخر بصاحبه إلى النار.

فالدنيا إذن مزرعة الآخرة، فإذا ما عوهدت بالحرث والسقي أثمر

ذلك الغرس في الآخرة كما يراد أن يثمر الغرس، وليس هذا الطريق كما يتصوّره الإنسان بطروق هذا الاسم على ذهنه، وليس من السهولة بحيث لا يتجاوز بضع كيلومترات، وإنّما هو أطول من ذلك وأطول بكثير.

وليس يجد الإنسان في طريقه هذه أنيساً أو صديقاً مصاحباً سوى عمله، فإن كان حسناً كان دليلا إلى الجنّة، وإن كان سيّئاً فهو ينذره بنذير الشؤم بالنار مدّة ما يصاحبه حتّى يؤدّي به إلى النار.

ولا يجد الإنسان في طريقه هذه زاداً يساعده على قطع المسافة الشاسعة إلاّ زاد التقوى، فهي نعم الزاد، أمّا إذا كان من ذوي الحرمان، فهو يتصوّر جوعاً وظمأً ما مشت به رجله متنقّلة في عرصات الآخرة حتّى يصله دور حسابه، فينهيه إلى المصير المحتوم، وبئس المصير.

وهنا يجمل بنا أن نذكر كلمة سيّد البلغاء عليّ أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «آه من قلّة الزاد، وطول السفر، ووحشة الطريق»[1].

فالإنسان إذا كان مطارداً من شيء لابدّ أن يدركه ذلك الشيء، ولابدّ أن يحصل على طلبته، فهذا الإنسان يجب أن يكون على جانب عظيم من الحذر، بأن يحسن حالته، وأن يحسن مرامه، وأن يكون قد أخذ لمقابلة ذلك الشيء أهبته كما يأخذ أهبته للسفر بشدّ الرحال، كذلك يجب أن يكون الإنسان قد تاب وتفرّغ للخالق، وكأنّه عن قريب ملاقيه،

---

(١) البحار ٤٠ : ٣٢٩ ضمن حديث ١١.

ولا يتمكّن الإنسان الطائع أن يأخذ أهبته للموت ما لم يردّده على لسانه، ويخطره على قلبه آناء الليل وأطراف النهار، ليكون بذلك على استعداد تام لمواجهته من دون أن ينبهر به بغتةً، فيعتقل لسانه دون أن ينطق بالحقّ كما يريد الحقّ، وأن يعترف به كما يجب.

***

**النهي عن الاغترار بالدنيا:**

قوله عليه السلام: «وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلاَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْض، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَة بِوَاد وَعْث، لَيْسَ لَهَا رَاع يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْـعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْـهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا. رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلاَمُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ!».

الإمام عليه السلام يسمو بولده المجتبى عن أن يكون مثالا للرذائل والأطماع الخسيسة، والهوي في هاوية الفساد السحيقة، فإنّ ذلك ممّا لا يرضاه كلّ أب لابنه فكيف بمثل عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، فأمره فيما

أمره أن يستعدّ للموت ما وسعه، وأن يكون قد فرغ من جميع ذنوبه بالاستغفار والتوبة، وأن يكثر من ذكر الموت الذي يهجم عليه.

والآن ينهاه عليه السلام فيما ينهاه أن يغترّ بما يرى من إخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليها فيخلد مثلهم إلى الأرض «ويتّبع هواه»، ونبّهه على أنّه لا ينبغي له ذلك الاغترار بقوله: «فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا» بقوله تعالى: ﴿وَمَا الْـحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّما مَثَلُ الْـحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾ [يونس: ٢٤] في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، وبيان أنّها محلّ الهموم والغموم والأعراض والأمراض، ودار كلّ بلاء، ومنزل كلّ فتنة، وكلّ ما أخبر الله تعالى عنه بذلك، فلا ينبغي أن يغتر به المرء، خصوصاً بعد معرفته أنّ الغرور مركّب من الجهل، وحبّ مقتضيات الشهوة والغضب.

فمن كان فطناً كيّساً عارفاً بربّه ونفسه وبالآخرة والدنيا، وعالماً بكيفية سلوك الطريق إلى الله، وبما يقرّبه إليه، وبما يبعده عنه، وعالماً بآفات الطريق وعقباته وغوائله، اجتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شيء من الأمور، إذ من عرف نفسه بالذلّ والعبودية، وبكونه غريباً في هذا العالم، أجنبياً من هذه الشهوات البهيميّة، عرف كون هذه الشهوات

مضرّة له، وانّ الموافق له طبعاً هو معرفة الله، فإنّ من عرف ربّه، وعرف الدنيا والآخرة ولذّاتهما تمكّن في قلبه حبّ الله والرغبة إلى دار الآخرة.

وإذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحّت نيّته في الأُمور كلّها، فإن أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة، كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، واندفع عنه كلّ غرور، منشأه تجاذب الأعراض والنزوع إلى الدنيا، وإلى الجاه والمال، وما دامت الدنيا أحبّ إليه من الآخرة، وهوى نفسه أحبّ إليه من رضا الله، لم يمكنه الخلاص من الغرور، فالأصل في علاج الغرور أن يفرغ القلب من حبّ الدنيا، ويغلب عليه حبّ الله حتّى تتقوّى به الارادة، وتصحّ به النيّة، ويندفع عنه الغرور، ومن يستطع ذلك وقلوبنا استولت عليها ظلمة الشهوات؟!

ثمّ يبالغ الإمام عليه السلام في التأثير على ولده البارّ بوصف أهل الدنيا وصفاً شنيعاً، فيصفهم بأنّهم كلاب عاوية، ليس من شأنها أن تهدأ وتفتر ليلا ونهاراً، وسباع ضارية يفترس بعضها بعضاً، ويعتدي بعضها على بعض، ويأكل قويّها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها «نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ».

فهي كلّها تتّصف بصفات حيوانيّة، إلاّ أنّك تعرف الفرق بين المعقلة والمهملة؛ فالأُولى أضيق حريّةً من الثانية، ومن شأن النعم إذا تركت أن تهيم على وجهها لا تلوي على شيء، فهؤلاء أهل الدنيا أيضاً كذلك، فقد أضلّوا عقولهم دون أن يردّوها منهل الايمان العذب، وركبوا مجهولهم، وتسرب اليأس من نيل الآخرة إلى قلوبهم، فطفقوا

يركبون المجاهل دون أن يلتمسوا جادة مستقيمة يسيروا بهديها فتوصلهم إلى الغاية القصوى، فهم لا راعي لهم يرعاهم حسب ما يقتضي، ولا سلكت الدنيا بهم الطريق الجدد فيأمنوا العثار، وإنّما سارت بهم طريق العمى، فأضلّتهم وتركتهم يخبطون خبط عشواء إن جنّ عليهم الليل.

فهم كبعض الأحجار لا يجدون سبيلا يطرقونه، وإذا بزغت عليهم الشمس ألفيتهم يتخبّطون في تيه النور بعدما كانوا يتخبّطون في تيه الظلام، والثاني أشدّ من الأوّل.

وقد توثّقت الصلات بينهم وبين الدنيا، حتّى اتّخذوها ربّاً يتقرّبون إليه زلفى، فلعبوا بها كما لعبت بهم، وفات عن أذهانهم ما وراءها من موت ونشور وحياة أُخرى ممّا لم يخلقوا إلاّ لأجله.

رويداً رويداً يسفر الظلام فيكشف النور عن السوءات وسوء السرائر، وخبث الضمائر، وسوف يظهر كلٌّ بشكل العمل الذي جناه لنفسه في هذا اليوم من ذلك الغرس الذي وضعه في دار الدنيا، فقد وردت الأظعان، وحلّ وقت السفر الذي لارجعة بعده، فقد أوشك من أسرع أن يلحق، إمّا بنعيم دائم، أو عذاب واصب.

ولا يخفى أنّ التهالك على الدنيا والتكالب على نعيمها، ليس يشمل طلب العيش لاقامة الأود، وإنعاش العيال والتوسعة عليهم بما وسّع الله، ولا يشمل طلب الرزق لاقامة شعائر الله، وأداء حقوقه وفروضه كاملة غير منقوصة، فإنّ ذلك محض الآخرة، وهو الزاد المفروض به أن يكفي الإنسان في النجاة من النار.

فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من طلب الدنيا تعفّفاً عن المسألة وتوسّعاً على عياله، وتعطّفاً على جاره، لقي الله يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً مرائياً جعل الله فقره بين عينيه، ولم يبال الله به بأيّ واد هلك»[1].

وورد رجل على عليّ أمير المؤمنين عليه السلام سائلا: إنّي أطلب العيش بكدّ وجدّ، هل أنا من أهل الدنيا الذين ينطبق عليهم أوصاف أهلها أم لا؟ فقال علي عليه السلام: ولم تطلبها، ألكي تنعم بنعيمها، ولا يدخل قلبك الرحمة بعد ذلك إذا سمعت جارك يئنّ من شدّة الجوع، ورأيت أطفاله يتضاغون جوعاً، ولكي تكون من ذوي الجاه والشرف، فتحلّ محلّ الصدارة منهم أم لشيء آخر؟

قال الرجل: لا يا سيّدي إنّ شيئاً من ذلك لم يكن، إنّي إنّما أطلب الرزق الكثير لأُوسّع على نفسي وعيالي، وأسبغ عليهم ما يسبغه الله علينا من النعم، ويغدقه علينا من الفواضل، ولكي أقوم بأداء الفرائض كما وجبت، وأداء حقوق الله الماليّة، وهي الضريبة التي تؤخذ للفقراء وللصالح العام، ولكي أحجّ بيت الله ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فأجابه عليّ أمير المؤمنين عليه السلام قائلا: هنيئاً لك فإنّك لست منهم إنّما أنت من أهل الآخرة، أرسلت إلى الدنيا لكي ترى الناس طريقاً لاحباً يهديهم إليها، ولكنّهم يصدفون عنك كلّما رأوك، هنيئاً لك إنّك

---

(١) حلية الأولياء ٣ : ١١٠، تحت رقم ٢٢٧.

طالب للآخرة لا للدنيا، وإنّ الذي تطلب من الدنيا إنّما هو زاد وافر يكفيك مؤونة الطريق على طوله وشسوعة مسافته، اذهب بارك الله فيك.

***

## الفصل السادس عشر
## الاقتصاد فى الطلب وذل المسالة
## ووجوب شكر النعمة

«واعْلَمْ يا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْـمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً. وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ. فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْـمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَب قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَب؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِب بِمَرْزُوق، وَلاَ كُلُّ مُجْمِل بِمَحْرُوم.

وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّة وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً. وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً. وَمَا خَيْرُ خَيْر لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِشَرٍّ، وَيُسْر لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِعُسْر.

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْـهَلَكَةِ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَة فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْـيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْـكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ».

***

## دعوة للاقتصاد في الطلب:

ليس من شك في أنّ الإنسان لو اتّخذ له الليل والنهار مطيّة، فهو يسار به وإن لم يكن في السير راغباً، وإن لم يكن محباً، ويقطع المسافة البعيدة وإن كان يكره لنفسه أن يقطعها، فهل استطاع الإنسان يوماً أن يخالف هذه الأرض في حركتها حول نفسها كل يوم مرة، قاطعة به عشرات الأميال في الدقيقة الواحدة، أم أنّ الإنسان تمكن أن يرسخ في مكانه دون أن تحمله الأرض قاطعة له مسافة شاسعة حول الفلك المحيط بالشمس، كلاّ ما كان له ولن يكون لأنّه مخلوق ضعيف لا قوّة له ولا أيد، وكل ما يأتي لديه من الأمر أن يُدبِّر شؤونه بنفسه في هذا العالم السيّئ والمنزل الموبوء، وأن يعمل جاهداً في اكتساب العيش له ولعياله، وهو عن العمل فوق هذا عاجز، وعن التدخل في شؤون السماوات والأرض وحقائقهما أعجز.

فانت إذ أردت أن تعلم فأعلم يقيناً بأنّك سائرٌ مُغذٌّ في السير، ولكنك ثابت مع ذلك في مكانك لا تريم، وأنّك قاطع مسافة بعيدة، وفي كل يوم تكـون فيه أقـرب إلى أجلك المقدور من أمسك الماضي ، مع أنك مقيم وادع لا ترى لنفسك سيراً ولا حركـة ، وما ذلك إلاّ لأنّك تدور على عجلة الزمان ، ومن شأنها أن لا تحرّك ساكناً ولا توقظ نائماً.

فإذا انهيت إلى غايتها أهابت بركبها أن قد بلغتم اللوى فلا سير ولا حركة، وإنّما هي الغاية التي كانت طيلة هذه المدة أتبعها، حتّى إذا وقفت الغاية منتصبة تريدكم، وقفت أنا لأرميكم إليها، فانزلوا فلقد آن لكم أن تتفارقوا، ولقد حان الحين، وليس من الحين مناص.

والإنسان كثيراً ما كان منغمساً في بحار لا شواطئ لها من الأماني العِذاب، ولكنّها لن يبلغها وإن استطاع أن ينال منها شيئاً، لأن للانسان قدراً قدر به، وأجلا أخر إليه فلا هو بسابق أجله، ولا الأجل بمهمل إياه ولو لحظات قصار ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الاعراف : ٣٤].

فكل إنسان بل كل حي صائر لا محالة إلى الفناء، وجار مع الزمن إلى المصير المحتوم الذي ليس عنه محيد، فإذا علم الإنسان ذلك فأيّ فائدة ترجع عليه بالخير الجزيل في أنّ لنفسه سلسلة متصلة من الأماني والآمال الكاذبة، والآمال التي ليس فيها سوى البروق والرعود، فهي لاتتم ولا تنتهي الا إذا جاز لأحد أن يعدو أجله، وليس ذلك من

الامكان بمكان، لأن الإنسان جار في طريقه، وماض في سبيله على النحو الذي مضى عليه سلفه، ولابدّ أنه سالك سبيلهم، وكما أنّ السبيل قد كبا عن الوصول إلى ما يرغبون.

واذن فما هذا الداعي الذي يدعوه ويلح عليه في الدعاء، يدعوه إلى أن يكثر من الطلب ويطلق لنفسه السبيل، أو ليس من الحق والإنصاف أن يجمل الإنسان في الطلب ويخفض فيه، وأن يجمل في الاكتساب، لأنّ الزائد عما يحتاج إليه الفرد ليس له وإنّما يجمعه لغيره يهنأ به ويتنعم، وهل أحب الإنسان يوماً أن يخدم غيره بدون مقابل، وهل رضي الإنسان لنفسه أن يجمع جاهداً هذه الأموال الطائلة التي يجمعها، ثم لا يكون له منها نصيب، وإنّما هي نصيب ولده من بعده يتقاسمونها ويتوارثونها، وإنّ في ولده لمن هو أبغض إليه من عدوّه، وإنّ في ولده لمن يحمل على أبيه عداوة وضغناً، وليت الأمر يقف عند هذا، وإنّما يحاسب هذا الذي جمع المال وخلّفه لغيره برضاً منه أو بغير رضا، فاما فوز واما إخفاق.

فإليك عن الإغراق في الطلب، والتتبع لآثار أقدام الرزق لا تعلم حلاله من حرامه، فلرب طلب قد جرّ إلى حرب(١)، ولرب كسب كثير جرّ إلى جوع وسغب، ولرب إلحاح جرّ إلى اليأس والحرمان، وهل ضمنت هذه الدنيا لكل من يعمل جاداً كاداً يتصبب جبينه عرقاً أن تغدق عليه في الرزق، وتدرّ له في الخير، وتلمي له في الراحة والأمان،

---

(١) الحَرَب ـ بالتحريك ـ : أن يسلب الرجل ماله.

وهل أنذرت هذه الحياة كل من يعمل ولكن بإجمال، ويكتسب ولكن باقلال أن تحرمه الرزق وتعدمه العيش، كلاّ لأنّ الرزق ليس موكولا لهذا العالم المحيط بنا، وليس موكولا إلى أفراد يتميّزون عن غيرهم، وإنّما الأمر كله يرجع إلى الله سبحانه، فهو الذي بيده كل شيء، وهو الذي بيده قوام كل شيء، وإنّما هؤلاء الأحياء فيما بينهم وسائط ينال البعض منهم رزقه من البعض الآخر، ويبلغ البعض الآخر رزق هؤلاء من الناس.

إذن فالرزق بيد الله يسوقه إلى من كان له أهلا، وقد يسوقه إلى من لم يكن له أهلا، يسوقه إلى من جدّ واكتسب بكل ما فيه من قوّة وحول، وقد يسوقه إلى من لم يأخذ من الكسب والضرب في الأرض إلاّ بأطراف يسيرة، كل ذلك علم غيبي له حكمه وغاياته، ونحن عن فهم هذه الحِكم والغايات قاصرون، وعن البلوغ إلى كنهها عاجزون.

## لا تكن عبدَ غيرك:

وينتهي الإمام عليه السلام بابنه إلى موضع خطر أشد الخطورة قد تقصر عنده العقول والأفهام، وقد يعسر على بعضها أيضاً فلا تستطيع بها نهوضاً.

ذلك أنّ الإمام عليه السلام سبق من تخلف عنه في هذا الموضوع المهم كل الأهمية، وهو موضوع ـ الحرية ـ وما يتعلق بهذه الكلمة من معان

ومفاهيم وما يلازمه من ملابسات، فالإمام في هذا الموضع يدعو ابنه إلى الحرية ويلح في الدعاء، حتّى أنّه ليكاد يطلب إليه أن يحضر هذا اللفظ بما فيه من معنى عميق في قلبه كلّما أصبح وكلّما أمسى، وحتّى لكأنّه يعرفه بشيء تنفر منه الطباع السليمة وهو ـ العبودية ـ التي من معانيها الذل والاستكانة والطاعة بغير حق، فالحرية والعبودية كلمتان متعاكستان، تخالف كل منهما الأُخرى، وإنّ بين أحدهما وبين الأُخرى لأشدّ الخلاف، فليس يرجى لها أجتماع، وليس إلى هذا التصور من سبيل.

يقول عليه السلام وما أعظم ما يقول: يا بني إيّاك أن تمد إلى الناس يداً تستجديهم وتطلب منهم، فإنّ في ذلك لذلة وهواناً، وأيّ ذلٍّ أكبر من أن يكون الإنسان عبد غيره وقد خلقه الله حرّاً، أو ما كان أخلق به أن يعيش حرّاً كما كان حرّاً، وأن يمارس حياته لا يخضع إلاّ لمن يستأهل الخضوع إليه، فما بال الإنسان ـ بعض الإنسان ـ يأبى إلاّ أن يطلب إلى هذا حاجة، ويبتغي عند ذاك مأرباً، أو كان الله يوماً ضاناً على عباده ضنى عبيده بعضهم على بعض، أو ليس قادراً على أن يمنحهم الحرية في جميع جوانب الدين والدنيا دون تجاوز القصد، وأن يمتعهم بهذه الحرية أيّما متاع.

ولكنّ الإنسان هو الذي يُذِلّ نفسه بنفسه، ويحوّل من نفسه الحرة المطلقة نفساً ذليلة خاضعة، ولو احتفظ بما وهبه الله من منحه، وبما أكرمه به من عطاء لأفاد من ذلك نفعاً عظيماً، ولتمتع بما لم يتمتع به

غيره من العبيد الأذلاّء.

فيا بني: إني أربأ بك كما أربأ بغيرك من بني الإنسان، أن يخرجوا على فطرتهم هذه التي فطرهم الله عليها، فإذا نصحتك بشيء فليسمعوا وليعوا ما أقول ثم ليحفظوا ما أقول، ثم ليعملوا بما أقول، فلا تظننّ يا بني أنّك لو بذلت من نفس شيئاً سوف تستطيع لهذا المبذول المفتقد رداً ولا إستينافاً، فلن تستطيع أن تعتاض بما بذلته من نفسك عوضاً. فلن يرجع السيف المثلوم بعد أن يصلح إلى ما كان عليه أولا من قوّة في العمل، ومضاء في القطع، فكذلك أنت لا تستطيع أن ترجع نفسك إلى ما كنت تتمتع به من عزّة وحرية، بعد أن أوقعت فيها خللا عظيماً، فأيّاك وذاك، ودونك وإعزاز نفسك ورفع شأنها فقد جاء في الحديث: «إن الله تعالى أحلّ للمؤمن كل شيء عدا إذلال نفسه»(١).

***

## الغاية لا تبرّر الوسيلة:

قوله عليه السلام: «وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لاَ يُنَالُ إلاَّ بِشَرٍّ، وَيُسْر لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِعُسْر، وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْـهَلَكَةِ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَة فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ

(١) مشكاة الأنوار : ٢٤٥، الفصل الاول في عيوب النفس .

سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْـيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْـكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ».

يقول عليه السلام: إن أردت أن تجلب لنفسك خيراً فعليك بالطريق قبل الولوج فيه، فليكن طريقك خيراً تلق خيراً، وأعلم بأنّ طريق الخير لايكون إلاّ خيراً، ولا يكون طريق الشر إلاّ شراً، فليس الخير خيراً إذا نيل عن طريق الشر لأنّه وليد لذلك الشر، وما خيراً خيرٌ لا ينال إلاّ بمشقة وعسر، وما خيراً خيرٌ لا يبلغ إلاّ بعد احتمال صعوبات واجتياز عقبات.

وإيّاك أن توجف بك مطايا الطمع والجشع مسرعة بك إلى غايتها المشؤومة، ونهايتها المؤدية بالانسان إلى القرار البئيس حيث مناهل الهلكة والموت المرير.

واطلب الرزق من الله، ومن الله وحده، واكتسب الرزق في تجارة تعقدها بينك وبين الله، وإن أمكنك أن لا يكون بينك وبين الله واسطة تبلغ به إلى الله، وتنال به رزقه فافعل، ففي ذلك العزّ، وفي ذلك الرفعة، وفي ذلك تتجلى معاني الحرية بأبهى مناظرها.

وكلّ إنسان لا محالة مدرك ما قسمه الله له من الرزق، وآخذ سهمه من القوت، وكل ما كان قد انتقل من الله إليك فهو نعمة عظيمة وعطاء موفور، وإن كان قليلا بل أقلّ من القليل، لأنّ اليسير من الله كثير، ولأنّ القليل من الله أعظم وأكرم من الكثير من خلقه، وإن كان

كل منه.

فاشكره على نعمه فإنّ الشكر أفضل منازل الأبرار، وعمدة زاد المسافرين إلى عالم الأنوار، وهو غاية الفضائل والمقامات، ليس لكل سالك أن يصل إليه إلاّ الأوحدي من كل السالكين، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سباء : ١٣].

وكما أنّ الشكر من المنجيات الموصلة إلى سعادة الأبد، وزيادة النعمة في الدنيا، فضده ـ أعني الكفران للنعمة ـ من المهلكات المؤدية إلى شقاوة السرمد، وعقوبة الدنيا وسلب النعم. يقول الله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْـجُوعِ وَالْـخَوْفِ﴾ [النحل : ١١٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «أُشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك ، فانّه لا زوال للنعماء إذا شكرت ، ولا بقاء لها إذا كفرت»[١].

## كفران النعمة:

وقد نصّ القانون الإسلامي على حرمة كفران النعمة. الكفران بالنعمة والكفر بها معناها واحد: وهو ستر النعمة وجحودها، والكافر هو الجاحد لأنعم الله تعالى. يتحقق الكفران بنعم الله سبحانه بسترها

(١) البحار ٧١ : ٢٧ ح ٤ .

وإخفائها عن العباد، وهذا حال من يظهر الحاجة والفقر والفاقة، وهو في نعمة من الله سبحانه تكفيه، ورزق واسع عمّا في أيدي الناس يغنيه، لكن الدناءة والخساسة أبت أن تفارق أهلها.

وعبثاً نحاول جمع أهل الدناءة والنهم والخساسة والجشع في صعيد واحد، مع أهل النزاهة والعفة والإباء والسخاء، فهذا تظهر نعم الله عليه، وذاك يسترها شحّاً ويخفيها جشعاً.

فستر النعمة وإخفاؤها كفران بها، والله سبحانه قد أمر باظهار النعمة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى : ١١].

وإذا أمر الله سبحانه باظهار النعمة، فقد نهى عن سترها وإخفائها، لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضدّه، أما مطلقاً أو مثل هذا المورد.

### الكفران بنعم الناس:

يتحقق الكفران بنعم الناس، بعدم الاقرار والأعتراف لهم بنعمهم، فكل من نال من أحد إخوانه وأبناء نوعه نعمة وأنكرها ولم يظهرها، كان كافراً بالنعمة غير شاكر نعمة المنعم، ومن لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الخالق سبحانه وتعالى على نعمه.

إنّ السبب في إنكار النعمة والاحسان غير بسيط غالباً، بل هو

مركب من صفتين رديئتين: الحسد واللؤم، وكفى بطبع تركّب منهما رادعاً وحاجزاً عن نسبة الاحسان إلى المحسن، وذكر المنعم بما أنعم، وشكره على إنعامه.

لا أراك ترتاب بأنّ كفران النعم وجحود الاحسان، يوجب سد باب الإنعام والاحسان بين العباد، نظراً لما انجبلت عليه طباعهم من حب المدحة والذكر الجميل، فهم حال إنعامهم وإحسانهم يرون ذكرهم بما هم أهله ثمن النعم والاحسان إلاّ من عصمه الله تعالى، فإنّ إحسانه وإنعامه خالصاً لوجه الله لا يريد به جزاءً ولا شكوراً.

فالمنعم يحب نسبة النعمة إليه، ووضعها في موضعها عند المنعم عليه، والله سبحانه المنعم على عباده، يسألهم يوم القيامة عن نعمه عليهم، فعلى مقدار النعمة يكون الحساب، وفيما وضعت تلك النعمة يكون الثواب أو العقاب.

وقد نص القانون الإسلامي على ذلك، قال سبحانه: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْـهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْـمَقابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْـيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْـجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْـيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [سورة التكاثر].

قيل: نزلت هذه السورة في اليهود، وقيل: نزلت في حيين من قريش تفاخروا حتّى كان من أمرهم أن ذهبوا إلى المقابر، فعدّوا موتاهم ليعلموا أيّ الحيّين أكثر عدداً، والمقصود أنّ التكاثر في الأموال والأولاد

ألهاهم وشغلهم عن ذكر الله وطاعته، وعن الاستعداد للدار الآخرة، فلم ينتبهوا حتّى ماتوا، ونقلوا إلى قبورهم، وفيها علموا عاقبة أمرهم.

وهذا خطاب عام يمكن انطباقه على من مات بلا كلفة، وعلى الأحياء بعلاقة إشرافهم على الموت، وقد هددهم سبحانه وكرّر التهديد والوعيد بقوله: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾.

وبعد تكرّر التهديد وتأكيد الوعيد، بيّن سبحانه أنّهم لو علموا يقيناً سوء عاقبة أمرهم، لشغلهم يقينهم بالعقاب والثواب عن التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، وكيف لا يشغلهم وهم بعد علم اليقين يرون الجحيم، ويرون أنّهم يسألون يومئذ ـ أي يوم القيامة ـ عن النعيم الذي خصّهم الله به.

## أهل البيت عليهم السلام هم النعيم:

قال قتادة: إنّ الله سائل كل ذي نعمة عمّا أنعم عليه، وقيل: إن المسؤول عنه من النعم هو الصحة والفراغ، وقيل: الأمن والصحة[1]، ومنه نعمتان مجهولتان الصحة والأمان، وقيل: يسأل عن كل نعمة إلاّ ما خرج بالحديث وهو: ثلاثة لا يسأل العبد عنها: خرقة تواري عورته،

(١) راجع البحار ٧ : ٢٥٧ .

وكسرة تسدّ جوعته، وبيت يكنّه من الحر والبرد.

روى العياشي في حديث طويل، قال: إنّ أبا حنيفة سأل أباعبدالله الصادق عليه السلام عن هذه الآية : ﴿لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ فقال له : ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال أبو حنيفة: هو القوت من الطعام، والماء البارد.

فقال له جعفر الصادق عليه السلام : لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتّى سألك عن كلّ أكلة أكلتها، وشربة شربتها، ليطولنّ وقوفك بين يديه، فقال أبو حنيفة: فما النعيم جعلت فداك؟

فقال الإمام عليه السلام : نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله به على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام وهو النعمة التي لا تنقطع، والله سألهم عن حق النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبي وعترته صلى الله عليه وآله (١).

وكيف كان المسؤول عنه من النعيم يوم القيامة، فعلى العاقل أن يكون عارفاً بالمنعم سبحانه وتعالى، حافظاً للنعمة غير كافر بها، ولا متكبر عليها، فانّ النعم المدركة المحسوسة لا تحصى، وأعظمها معرفة المنعم وشكره على النهج الذي أمر به تعالى. ولا يعرف ذلك إلاّ بدلالة النبي صلى الله عليه وآله وعترته عليهم السلام ، وبذلك يتضح لك أنّهم هم النعيم الذي يسأل

(١) راجع البحار ٢٤ : ٤٩ ح ٢٣ .

الله عباده عنه يوم القيامة، فعليك بالبحث والتدبّر، فإنّ نعمة الايمان والمعرفة أعظم من كل نعمة، فلا سعادة إلاّ بالعلم الموصل إلى الحقيقة المطلوبة.

❊❊❊

## الفصل السابع عشر
## الصمت وقبح الظلم

«وَتَلاَفِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْـوِعَاءِ بِشَدِّ الْـوِكَاءِ. وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ الْـيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ. وَالْـحِرْفَةُ مَعَ الْـعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْـغِنَى مَعَ الْـفُجُورِ، وَالْـمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ الْـخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ الْـحَرَامُ!

وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ! إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْـخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْـمُسْتَنْصَحُ. وَإِيَّاكَ وَالاتِّكَالَ عَلَى الْـمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى، وَالْـعَقْلُ

حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ.

بَادِرِ الْـفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِب يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِب يَؤُوبُ، وَمِنَ الْـفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْـمَعَادِ، وَلِكُلِّ أَمْر عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ، التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِير أَنْمَى مِنْ كَثِير!».

***

## قِلّةُ الكلام:

وهنا يعظ الأمام عليه السلام ولده الحسن عليه السلام محبّاً له، مائلاً إليه، يريده أن يسلم من كل ما يشين به من عيب، فهو يهدي كلمته هذه لابنه هذا، فانّ له فيها لخيراً كثيراً يعود عليه عاجله وآجله، وَلَكَمْ وَدَّ الامام عليه السلام أن يكون ولده كما يريد وكما يريد الله له أن يكون.

فها نحن أُولاء نسمع إلى عظاته البالغة التي تهدف إلى الخير، وتبتغي الخير، فنسمع شيئاً عظيماً فما هو، نرى الامام عليه السلام ينهى عن الاكثار من الكلام العابث الذي ليس يقصد إلى شيء، ويدعو إلى الصمت ما حسن الصمت، ونبذ الكلام ما لم يكن للكلام وجه حسن، فما الصمت للإنسان إلاّ وقار وهيبة، وما الهذر من الكلام الاّ اذلال له وإسقاط في أعين الآخرين.

فعلى الإنسان أن يزن كلامه أوّلا حتّى إذا رآه خليقاً بالاظهار أطلقه من وكره، بحيث لا يطلقه إلاّ وهو على جانب عظيم من الثقة بأنّ

هذا يصيب الهدف وينال الغاية، وإلاّ فخير للإنسان أن يصمت ويستر على نفسه كثيراً من العيب، وقد عرف أنّ الكلام لو كان من فضّة لكان السكوت من ذهب.

وما أكثر ما نطلق من الكلام ما لا نعقل، ومن القول ما لا نتبصّر عواقبه، فإذا هو لا يكاد ينطلق حتّى يعود وبالا علينا، وقد يحمل في جنباته الشرّ الكثير ما كان أحسن الكلام لو أطلق على طريقة تليق به، وما كان أسعد الإنسان لو لم ينطق إلاّ بعد أن يفكّر في ما يريد أن ينطق.

وما كان أحسن للانسان أن يحتفظ بشدّ الوكاء بدل أن يهمل، فإذا سال منه الماء عاد فشدّه شدّاً قويّاً، وليس له إلى استرجاع ما تبدّد من سبيل، وليس شدّه للوكاء بعد هذا بمجد عليه نفعاً، فقد وقع الأمر وانتهى كلّ شيء، فعلى الإنسان أن يتحفّظ بما في نفسه بأن يعقل لسانه عن النطق في غير موضعه، وقد قيل فيما سبق: «الكلام أسيرك فإذا أطلقته صرت أسيره».

### فضيلة صون اللسان:

جدير بمن يقصد الكمال أن يبلغ مجهوده في حفظ اللسان حتّى يستقيم له، إذ اللسان هو المورد للمرء موارد العطب، والصمت يكسب المحبّة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والصمت منام العقل والمنطق يقظته.

والواجب على اللبيب ألاّ يغالب الناس على كلامهم، ولا

يعترض عليهم فيه؛ لأنّ الكلام حينئذ قد يؤدّي إلى فوز موقّت غير أنّه لو أُرجئ إلى حينه لكان الفوز أدوم وأبقى، قال الأحنف بن قيس: «الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه».

وقال بعض المربّين: «الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلّم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقلّ من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاءً وأعظمهم بلاءً من ابتلى بلسان جامح».

### عشر خصال للسان:

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها ويضع كلّ خصلة منها في موضعها:

١ ـ فهو أداة يظهر بها البيان.
٢ ـ وشاهد يخبر عن الضمير.
٣ ـ وناطق يرد به الجواب.
٤ ـ وحاكم يفصل به الخطاب.
٥ ـ وشافع تدرك به الحاجات.
٦ ـ وواصف تُعرف به الأشياء.
٧ ـ وحاصد يذهب الضغينة.
٨ ـ ونازع يجذب المودّة.
٩ ـ ومسلّ يذكي القلوب.
١٠ ـ ومعزّ تردّ به الأحزان.

جاء عن رسول الله ﷺ: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه»[1].

قال عليّ بن بكار: جعل الله لكلّ شيء بابين وجعل للّسان أربعة: الشفتين مصراعين، والأسنان مصراعين.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن ينصف أُذنيه من فيه، ويعلم أنّه إنّما جعلت له أُذنان وفم واحد ليسمع أكثر ممّا يقول، لأنّه إذا قال ربّما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على ردّ ما لم يقل أقدر منه على ردّ ما قال، والكلمة إذا تكلّم بها ملكته، وإن لم يتكلّم بها ملكها، وربّ كلمة سلبت نعمة.

قال ابن مسعود: والله الذي لا إله غيره ما شيء أحقّ بطول سجن من لسان[2].

***

## الاستغناء عن الناس:

قوله عليه السلام: «وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ الْـيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ».

فيا بني احتفظ بما في يديك، واقصد في عيشك، ولا تتجاوز

(١) البحار ٧١ : ٢٩١ ح٦٢.

(٢) احياء العلوم ٣ : ١٠٨ / آفات اللسان.

القصد، فالاحتفاظ بما في اليد خير من إطالة النظر إلى ما في أيدي الناس، فإليك من إكثار الحاجة بحيث لو وجدت سبيلا إلى الاستغناء في شؤونك عن أي أحد، والاستقلال بنفسك في كلّ ما يمسك فافعل، فإنّ مرارة اليأس وعذاب الحرمان خير لك من الطلب.

ولأن تتجرّع كؤوس اليأس والحرمان غصصاً خير لك من أن تمدّ يدك إلى أحد لتكون له عبداً، أو ترى أنّك ناس يد من أعانك، أو تجد من نفسك رغبة عن هذا الذي أنقذك من كارثة ألّمت بك.

فكن عن الناس مستغنياً، وبربّك مستكفياً، فهو قد ضمن لك كلّ ما تريد، ما دام هو الذي كان لوجودك علّة وسبباً، ولا تأخذك الأنفة والخيلاء إلى مواطن لا يخلق بك ورودها، فاكتسب واحترف ما وسعك ذلك مع العفّة، فإنّ ذلك خير لك من غنىً مصحوب بالفجور.

ولا تظنّن أنّ أحداً يستطيع أن يرعى سرّك كما ترعاه، وأن يحتفظ به كما تحتفظ به أنت، فأنت أرعى لمكنون أمرك، وأحفظ عليه من غيرك، فإنّك إن تحدّثت بسرّك إلى أحد فقد بحت به إلى كثيرين.

من أجل ذلك قيل: «كتمان الأسرار من شيم الأحرار، وشمائل الأبرار، وهو أبعد الأفعال من الضرر، وأحقّ الخصال بالظفر، يدلّ على وفور العقل، وكثرة الصبر، وكمال المروءة».

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «استعينوا على نجاح حوائجكم بالكتمان، فإنّ كلّ ذي نعمة محسود»[1].

---

(١) البحار ٧٧ : ١٥٠ ح١، والمستطرف ١ : ٤٤٣.

وقال المهلب بن أبي صفرة: «أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلاها نسيان ما أسرّ به إليه»[1].

ومن كلام الحكماء: كتمان السرّ يوجب السلامة، وإفشاؤه يعقب الندامة، وقال بعضهم: من شحّ على سرّه فقد أعان على برّه.

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «سرّك أسيرك فإذا فضحته صرت أسيره»[2].

وقال سقراط: «كتمان سرّ غيرك متعيّن عليك، وكتمان سرّك سبب صيانتك، والمشكور من كتم سرّاً لم يستكتمه، ومن خان في سرّ نفسه فهو في غيره أخون». ومن كلام بعض الحكماء: «لا تودع سرّك إلاّ حافظاً، فإنّ قلوب الأحرار حصون الأسرار».

وفي الحكم المنثورة: كن جواداً بالمال في موضع الحقّ، بخيلا بالأسرار على جميع الخلق، ومن أمثال الحكماء: سرّك من دمك فلا يخرج من تحت قدمك، وما تحلى ذو فضل وبرّ وعلم وخير بأحسن من كتمان السرّ.

وقال بعض الحكماء في هذا المعنى: «من حصن بالكتمان سرّه تمّ له تدبيره، وكان له الظفر بما يريد، والسلامة من العيب والضرر، وإن أخطأه التمكّن والظفر».

---

(١) المستطرف ١ : ٤٤٤.

(٢) غرر الحكم : ٣٢٠ ح٧٤١٥، والمستطرف ١ : ٤٤٣.

والحازم يجعل سرّه في وعاء، ويكتمه عن كلّ مستودع، فإن اضطرّه الأمر وغلبه أودعه العاقل الناصح له، لأنّ السرّ أمانة وإفشاءه خيانة، والقلب وعاؤه فمن الأوعية ما يضيق بما يودع، ومنها ما يتّسع لما استودع، والافراط في الاسترسال بالأسرار عجز، وما كتمه المرء من عدوّه يجب أن لا يظهره لصديقه، ومن استودع حديثاً فليستره ولا يكن مهتاكاً ولا مشياعاً، لأنّ السرّ إنّما سمّي سرّاً لأنّه لا يُفشى.

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسرّه من صدر غيره بأن لا يفشيه، ومن كتم سرّه كانت الخيرة في يده، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها، ومن لم يكتم السرّ استحقّ الندم، ومن استحقّ الندم صار ناقص العقل، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل، فتحصين السرّ للعاقل أولى به من التلهّف بالندم بعد خروجه منه.

قال المبرد: أحسن ما سمعت في حفظ اللسان والسرّ، ما روي لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ :

لعمرك إنّ وشاة الرجال ... لا يتركون أديماً صحيحا

فلا تبد سرّك إلاّ إليك ... فإنّ لكلّ نصيح نصيحا

وقال زياد: لكلّ مستشير ثقة، وإنّ الناس قد ابتدعت بهم خصلتان: اذاعة السر، وترك النصيحة، وليس للسرّ موضع إلاّ أحد رجلين: إمّا أُخروي يرجو ثواب الله، أو دنياوي له شرف في نفسه وعقل يصون به حسبه، وهما معدومان في هذا الدهر.

***

قوله عليه السلام: «وَرُبَّ سَاع فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ الْـخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ الْـحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ!».

واسع واعرف مقدار سعيك، والى أيّ هدف ترمي به، فلربّ سعي في غير هدى، ولربّ عمل في غير طائل، ولربّ ساع يسعى وسعيه فيما يضرّه ولا ينفعه، ولكنّه لا يدري، ولكنّه لا يعلم، ومن أكثر الكلام فرط منه الهجر، وبدر منه الكلام الدنيء الذي ينم عمّا وراءه من عقل ضعيف، فلا تكثر من الكلام ما لم تجد إلى ذلك داعياً وعليه حاثاً.

وإنّ أصابة الواقع المنشود، وإنّ اصابة الهدف المقصود، إنّما هي بالتبصّر والتفكّر في أناة وروية دونما استعجال وتسرّع، فقد عرف أن في العجلة الندامة، وأنّ في التأنّي السلامة، وزاحم العلماء بركبتيك، وقارن أهل الفضل تكن كواحد منهم، وإيّاك وأهل السوء فإليك عنهم، ولا تكوننّ بينك وبينهم صلة في قريب أو بعيد، وباينهم فإنّ في مباينتهم البعد عن السوء والنجاة من الشر.

ولا تمدنّ عينيك إلى ما متّع الله به أفراداً من الناس، وإيّاك والظلم فما الظلم إلاّ ظلم للنفس، وهل تريد لنفسك الظلم، وهل تحبّ لنفسك الأذى، واعلم بأنّ من أشدّ الظلم أن تمس بالظلم فرداً لا عشيرة له، ولا قرابة، ولا جاه له، ولا مال، ولكن له ربّاً يعصمه الشرور، وإنّ له إلهاً يردّ عنه ظلم الظالم وعسف الجائر، وإنّ ذلك لخير له من مال عريض، وجاه عريض واسع، وإنّ ذلك لأجدى نفعاً من العشير والقريب، وإنّ

أشدّ العقاب لعقاب الربّ، وإنّ أعظم الجزاء لجزاء الحكيم، فإيّاك أن تتعرّض لفرد لا يجد لنفسه عاصماً إلاّ الله.

قال عليّ بن الحسين لابنه أبي جعفر عليه السلام: «يا بني إيّاك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلاّ الله»(١).

وقال الصادق عليه السلام: «ما من مظلمة أشدّ من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلاّ الله تعالى»(٢).

## الظلم:

الظلم مجاوزة الإنسان حدّه، واستطالته بالجور على غيره، وهو إحدى طبائع النفس تظهره القوّة ويخفيه الضعف:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

وإذا تأمّلت كلّ شيء في الوجود تجد للظلم أثراً فيه.

أُنظر إلى النبات تجده يعدو قويّه على ضعيفه، فيمتصّ غذاءه، ويحرمه قوته، ويتركه ذابلا يتصوّح، ثمّ يصير هشيماً تذروه الرياح.

وانظر إلى الحيوان في مستقرّه في البرّ والبحر، تراه يأكل قويّه ضعيفه، ويفتك كبيره بصغيره، حتّى لتكاد تبيد بعض فصائله، وتذهب من الوجود باعتداء بعض أنواعه على بعض، وهذا ما جعل نفور بعضه من بعض طبيعياً.

---

(١) الكافي ٢ : ٣٣١ ح٥؛ عنه البحار ٤٦ : ١٥٣ ح١٦.

(٢) الكافي ٢ : ٣٣١ ح٤؛ عنه البحار ٧٥ : ٣٢٩ ح٦٠.

وقد قيل: إنّ من الطيور ما لا يحضن بيضه، وإنّ أُناثه تضع بيضها في وكور بعض الطيور، فتضمّه هذه إليها حتّى إذا فقس ونما قليلاً، وأحسّ من نفسه القدرة على فراخ الطير الذي احتضنه، قذف بها من العش فتقع فتموت ليخلو العشّ له، وهذا نوع من الظلم يخفى مكانه على اللبيب الفهم.

خبرني بربّك، من ذا الذي علّم هذا الفرخ الضعيف العقوق، وهداه إلى الغدر والخيانة، حتّى جعله يقذف بفراخ التي آوته وصارت تغدو عليه بما تسعى به لأفراخها، لم يكن التعليم، وإنّما هداية الفطرة وكامن الظلم.

وقد شاءت قدرته ـ جلّ شأنه ـ أن يجعل لكلّ نوع من أنواع الحيوان سلاحاً يدافع به عن نفسه، فمنه ما جعل له الناب والظفر، ومنه ما جعل له قروناً في رأسه مثنى وفرادى، ومنه ما أحاط ظاهر جلده بشوك إذا انقبض انتصب وكان كالأبر الحادّة، ومن عجائب خلق الله حيوان ذفر يُعرف بالظربان، سلاحه نتن ريحه وذفره، فإذا اقتحم عليه جحره حيوان ليفترسه، أطلق عليه من ريحه شيئاً فأماته لفوره.

والإنسان يظلم وينال بظلمه ما دنا ونأى، وأوّل من يصيبه بظلمه نفسه التي بين جنبيه، فإنّ ما تنطوي عليه من الشرور، وما يخالط قلبه من الاثرة وحبّ الاستبداد، يجد ألمه ووخزه كلّما تحرّكت فيه الاثرة وحبّ الاستئثار بالمنفعة، وكثيراً ما يقتصر ظلم الإنسان على نفسه ولا يتعدّاه إلى غيره، كالذي لا يؤدّي واجب نفسه، ولا يعمل صالحاً يعود

عليه نفعه في الدنيا والآخرة، وقد يظلم أهله فلا يحسن معاشرتهم، ولا ينفق نفقة أمثالهم ويسوسهم بالقسوة والغلظة.

## التعامل مع الأهل:

وهذه حال كثير ممّن يتوهّمون أنّ سوء معاملة الأهل من موجبات الاحترام، وأنّ الخوف أقوم سبيل لتأديب الأولاد، وهذا رأي سقيم، وخطّة قضت عليها أساليب التربية الصحيحة، وليس لها من قبل حظّ من تأييد العقل والشرع.

دخل على عمر بن الخطّاب أحد عمّاله، فوجده مستلقياً على ظهره، وصبيانه يلعبون حوله، فأنكر ذلك عليه فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ فقال: إذا دخلت سكت الناطق، فقال له: اعتزل عملنا فإنّك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأُمّة محمّد صلى الله عليه وآله.

ومن هذا ماروي في صحيح البخاري أنّ الأقرع بن حابس رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقبّل الحسن بن علي عليه السلام فقال: إنّ لي عشرة أولاد ما قبّلت واحداً منهم، فقال صلى الله عليه وآله: «من لا يَرحم لا يُرحم»(١) وفي ردّ النبي صلى الله عليه وآله على الأقرع بن حابس ما ينبئ بخطئه، وشدّة ظلمه لأهله، ومقت النبي إلى فعله، وتنبيهه إلى سوء عاقبته.

ومن ضروب ظلم الأهل أن يظلم زوجته، فينظر إليها نظره إلى

(١) صحيح البخاري ٨ : ٣٢٣ ح٨٧٩ كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

متاع بيته، وهي أُم ولده والقائمة على تدبير شؤونه والحافظة لغيبه، فيروضها على الذلّ ومهانة النفس والصغار، فتبثّ في نفوس أولاده رذائل الأخلاق، وتنقل صفاتها إليهم بحكم التقليد، فيكون ظلمه لها ظلماً لأولاده وأمته بما تلد من عبيد وإماء في ثياب أحرار.

## التعامل مع الجيران:

ويظلم جيرانه فلا يقوم بحقّ الجوار لهم، فلا يواسيهم في محنتهم، ولا يساعدهم في شؤونهم، ولا يفرح لهم إذا فرحوا ولا يحزن معهم إذا حزنوا، ولا يحبّ لهم من كلّ شيء ما يحبّه لنفسه.

ولقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالاحسان إلى الجار كما أوصى بعبادته، والاحسان إلى الوالدين، وهما ـ على ما تعلم ـ أحقّ الناس ببرّنا، وأولاهم بعطفنا وحسن رعايتنا. قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْـوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْـقُرْبى وَالْـيَتامى وَالْـمَساكِينِ وَالْـجارِ ذِي الْـقُرْبى وَالْـجارِ الْـجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْـجَنْبِ﴾ [النساء: ٣٦].

وممّا يدلّ على معرفة حقّ الجار والوفاء له، والعمل بما أوصى به الدين في شأنه، ما حكي عن بعض ذوي الأخلاق الطاهرة أنّه اشتكى كثرة الفيران في داره، فقال له بعض من سمعه: لو اقتنيت هرّاً لذهب عنك الفيران، فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دار الجيران، فأكون قد أحببت لهم ما لا أُحبّه لنفسي.

وممّا يدلّ على التنفير من سوء معاملة الجيران، وممّا أعدّه الله لمن

لا يحسن معاملتهم، ما روي أنّه قيل للنبي صلى الله عليه وآله: «إنّ فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيّئة الخلق، تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: لا خير فيها وهي من أهل النار»(١).

ويظلم الناس فيستطيل عليهم بلسانه ويده، ولا يوقّر كبيرهم، ولا يرحم صغيرهم، ولا يعطف عليهم، ولا يساعدهم بفضل ماله، ويظلم خدمه فيكلفهم ما هو فوق طاقتهم، ولا يؤدّي لهم أُجورهم في وقتها، ولا يعفو عن زلاّتهم، ولا يرأف بضعيفهم، ولا يحسن جزاء المحسن منهم.

## ظلم الحكّام للشعوب:

وأشدّ أنواع الظلم وأدعاها للويل والثبور، ظلم الحاكم فيمن ولّي عليه وإطاعة هواه، فإنّ هذا يسلب من الناس الأمن على الأرواح والأموال والأعراض، وينشر في المحكومين الفساد وسوء الأخلاق، وينقل إليهم ما اتّصف به من رذائل.

فإن كان من صفاته التجسّس والميل إليه، وهو ما يحبّه الظالمون دائماً، رأيت حاشيته يسعون إليه بالأبرياء، ويبتغون الزلفى عنده بالايقاع بالناس كذباً وبهتاناً، فتنفر منه القلوب، وتجتمع على بغضه والكيد له، وتتهيّأ النفوس للأخذ بالثار منه وانتهاز الفرصة فيه، وإنّها لمكنة لأنّ الزمان قلب، وغيره تصيب الحذر من مأمنه.

---

(١) البحار ٧١ : ٣٩٣ ح٦٣.

ومن أضرّ أنواع الظلم بالشعوب وأفتكه بها أن يستبدّ الحاكم، بأن يجعل إلهه هواه وارادته شرعاً وقانوناً، فلا يحكم إلاّ بما يرى في نفسه، فتذهب حرمة النفس والمال، ويتقلّص ظلّ الأمن من البلاد، وتنقبض الأيدي عن العمل فتقلّ الثروة، ويتّسع نطاق الجهل بما يسعى إليه دائماً من اطفاء نور العلم الذي يصوح الاستبداد وأهله، ويدكّ بنيانه، ويقوض أركانه، وينسخ آثاره.

ولا جرم أنّه باطفاء نور العلم تنحطّ الأخلاق، وتفقد الأُمّة خير صفات الكمال، وينتشر فيها الملق والنفاق، والكذب والغيبة والنميمة والرشوة، ويكون عاقبة أمر الظالم أن تعصف به ريح هوجاء من الفتن فتثل عرشه، وتذهب بملكه وأمنه، فإذا نشأ هذا في أُمّة كان دليلا على فنائها وزوالها ومحوها من سجل الأُمم، ونزل بأهلها من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون.

والسلطان ظلّ الله في الأرض يأوي إليه كلّ مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الطاعة والشكر، وإن جار وظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر، وفي الأثر: «ما من عبد يسترعيه الله عزّ وجلّ رعية يموت يوم يموت غاش رعيّته إلاّ حرّم الله تعالى عليه الجنّة»[1].

وقال: «من ولّي أُمّة من أُمّتي قلّت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبّه

---

(١) الترغيب والترهيب ٣ : ١٧٦ ح٢٨.

الله على وجهه في النار»[1].

وقال: «إنّ الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار تخلّى عنه ولزمه الشيطان»[2].

## النصوص القرآنية في حرمة الظلم:

وقد نصّ القانون الإسلامي على حرمة الظلم وقبحه الناشئ من لؤم الطبع وخبث النفس، وضعف الوازع الديني والخلقي، والدليل على تجرّد من اتّصف به من خلال الكرم والمروءة، وصفات النبل والفضيلة، والبرهان على ذهاب نور الايمان من القلوب، فاستمع إليه وهو يقول: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً﴾ [النساء : ١٦٠].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْـخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس : ٥٢].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

---

(١) الترغيب والترهيب ٣ : ١٧٣ ح٢٥.

(٢) الترغيب والترهيب ٣ : ١٧٢ ح٢١.

﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [هود : ٩٤].

﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ [هود : ١١٣].

﴿فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:١١٦].

***

قوله عليه السلام : «إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً. وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ وَإِيَّاكَ وَالاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ. بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً».

## الدِّقة في قبول النُّصح:

استقبل النصح راضياً به، متقبّلا إيّاه، متفحّصاً له، فمن النصح ما يعود عليك بالويل والثبور، فلربّ أحد ينصح لك ليغويك عمّا أنت عليه، وقد لا يكون لما يأتي من النصح فاهماً.

وإن رمت خيراً وإن قصدت إلى نفع، فالعمل والجدّ لا المنى

والأحلام، فما الأحلام بكافية أصحابها، وما الأحلام دافعة عنك ضرّاً، ولا الأحلام تردّ عليك أكثر ما فاتك من خير، اعمل ما وسعك العمل ولا تكوننّ بطراً إن شبعت، ولا تدع الأماني العذاب والأحلام الزائفة تحتل من نفسك مكاناً عظيماً، وأنفذ للعمل الصالح ينفعك، ويجلب لك الحياة الهادءة المطمئنّة.

فأنا لا أُريدك للاتّكال على المنى لأنّها بضائع ضعفاء البصائر، قاصري الأنظار، خائري الهمم، جامدي القلوب، وإنّما العقل في التجربة تحفظها، وتسير على طبق ما تأتي به من النتائج، وإنّ خير ما أجريت من تجارب ما أفادك موعظة وخلع عنك خلقاً سيئاً.

### انتهاز الفرص:

بادر إلى اقتناص الفرصة التي تسنح لك بكثير من العمل، ولا تتركها فإنّ في تركها خسارة كبيرة، فاقتنص الفرص فما الفرص دائمة ليس لها من زوال، قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «إضاعة الفرصة غصة»[1].

وقال عليه السلام: «الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود»[2].

وفي المثل: «انتهزوا الفرص فإنّها تمرّ مرّ السحاب»، ومن كلام بعض الأكابر: «إنّ فوت الوقت أشدّ عند أصحاب الحقيقة من فوت

(١) نهج البلاغة : قصار الحكم ١١٨؛ عنه البحار ٧١ : ٢١٧ ح٢٢.
(٢) مستدرك الوسائل ١٢ : ١٤٢ ح١٣٧٣١.

الروح، لأنّ فوت الروح انقطاع عن الخلق، وفوت الوقت انقطاع عن الحق».

إنّ من أكمل مزايا النفس المؤيّدة وأحسن صفاتها، اليقظة في الأُمور والمسارعة إلى احراز قصب السبق في مضمارها، والمسابقة إلى نيل المقاصد بانتهاز فرصها قبل فواتها، ومجانبة أسباب الغفلة والتحرّز عن آفاتها، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى عباده في السور المنزلة بمحكم آياتها، فقال جلّ وعلا تارةً: ﴿وَسَارِعُوا﴾ وتارةً: ﴿وَسَابِقُوا﴾ تنبيهاً على أنّ يقظة النفس ومبادرتها إلى مصالحها من سعادتها، وغفلتها وتوانيها عن واجب ذلك من شقاوتها.

فمن سمت نفسه إلى جسيم رتب المعالي، وترامت همّته إلى استخدام بيض الأيّام وسود الليالي، وأحبّ انتظام الأُمور إليه في سلك مطلوبه الدائم ومرغوبه المتوالي، تسربل بملابس اليقظة فهانت لديه عظائم الأُمور، وعظمت مهابته في الصدور، وتحامى الناس أن يعاملوه بشيء من المحضور والمحذور.

ومتى آثر تعب التيقّظ راحة الاهمال، وركن إلى دعة التواني الداعية إلى الاغفال، وأخلد إلى مساكن الغافلين عمّا يؤول إليه حال المغترّين بما لهم اللاّهين عن مستقبلهم، كان جديراً بانتقاض مبرم ما ركن إليه، واعراض الناس عنه بعد اقبالهم عليه، وآل أمره إلى ندامة يعضّ منها على يديه.

ويكفي في نقيصة الغفلة وذمّ المتّصف بها أنّ الخسارة لازمة له

فيما غفل عنه بسببها، فإن كان في أمر ملك أو دنيا فاته نصيبه منهما وبات ملوماً محروماً، وإن كان في حال الآخرة فقد خسر خسراناً مبيناً، وقد أنفذ الله عزّ وجلّ حكمه في ذلك وأبرمه وقصه في كتابه العزيز الذي أنزله وأحكمه، فقال عزّ من قائل في حقّ من سبق قضاؤه فيهم بدمارهم، وجرى القلم في القدم ببوارهم:

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْـغافِلُونَ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْـخاسِرُونَ﴾ [النحل : ١٠٨-١٠٩].

وكما أنّ الخسارة من لوازم الغفلة فكذا الربح من لوازم اليقظة، ومن هذا قال أبو سعيد الحسن البصري: «التواني رأس خسران الدنيا والآخرة».

وجاء في حِكَم الأقدمين: «انتهز الفرصة فإنّها خلسة، وإيّاك والعجز فإنّه أوضع مركب، واحذر التواني فإنّه يجلب أنواعاً من البلاء».

هذا كسرى عظيم الفرس خصّ ببقاء الذكر، واشتهار السمعة، وانتشار الصيت، واستقامة الحال، وحراسة الملك، وحفظ الرعايا، وحماية البلاد، وانقياد الناس له، وميل القلوب بمحبّتها إليه، ومخافة الأعداء منه، كلّ ذلك يسّره الله تعالى بما ألهمه إيّاه من كمال التيقّظ الذي لم يسبقه أحد بمثله، حتّى نقل أنّه كان من أشدّ الناس تطلّعاً إلى خفايا الأمور، ومن أكثرهم بحثاً عن أسرار الصدور، وكان يبثّ العيون

على الرعايا والجواسيس في البلاد، ليقف على حقائق الأحوال، ويطّلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالاحسان.

ويقول ما معناه: «متى غفل الملك عن تعرّف ذلك فليس له من الملك إلاّ اسمه، وسقطت من القلوب هيبته، ولا يأمن دخول خلل عليه في ملكه، وانبسطت أيدي حاشيته باتّباع هواها، وتسلّطت عمّاله على أقطاع أمواله وافنائها، وصارت رعاياه فوضى».

ولا غرو فقد علم كسرى أنّ سلوك سبل اليقظة يهدي إلى الصلاح، فصلح ملكه باتّباعه وانتهاجه، وهكذا كلّ من اقتفى في اليقظة طريقته وأثره، وارتقى في نهج معراجه أمن على نظام ملكه من اختلاله وعلى حاله من اعوجاجه.

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «تنفّسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق»(١) أي انتهزوا الفرصة واعملوا قبل أن يفوتكم الأمر ويجدّ بكم الرحيل ويعدم الندم.

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «من وجد مورداً عذباً ولم يرتو منه ولم يغتنمه يوشك أن يظمأ ويطلبه فلا يجده».

دخل رجل من أهل الشام على أبي جعفر المنصور فاستحسن لفظه وأدبه، فقال له: سل حاجتك، فقال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩٠؛ عنه البحار ٤: ٣١٠ ضمن حديث ٣٨.

ويزيد في سلطانك، فقال: سل حاجتك فليس كلّ وقت يمكن أن يؤمر لك بذلك.

قال رجل للحسن البصري: آخذ عطائي أم أدعه حتّى آخذه من حسناتهم يوم القيامة، فقال له: قم ويحك خذ عطاءك فإنّ القوم مفاليس من الحسنات يوم القيامة.

يقال: من ظفر بالساعة التي ينجح فيها العمل ثمّ لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم، ومن طلب الأمر الجسيم فأمكنه ذلك فأغفله فأتاه الأمر وهو خليق أن لا تعود الفرصة ثانية، ومن وجد عدوّه ضعيفاً ولم ينجز اتلافه ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه.

حكي عن بعض العلماء: انّه كان ذات يوم في الخلاء، فدعا تلميذاً له وقال له: انزع عنّي القميص وادفعه إلى فلان، فقال: هلاّ صبرت حتّى تخرج؟ قال: خطر لي بذله ولا آمن على نفسي أن تتغيّر.

قال أرسطو: افترص على عدوّك الفرصة، واعلم انّ الدهر دول.

وقال حكيم: تجرع من عدوّك الغصة، إلى أن تجد منه الفرصة، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدرك ويعينه الفلك، فإنّما الدنيا دول تقلبها الأقدار، ويهدمها الليل والنهار.

وقال حكيم آخر: الفرصة نوعان: فرصة في عدوّك، وفرصة في غير عدوّك، فالفرصة في عدوك ما إذا بلغتها نفعتك وإن فاتتك ضرّتك، وفي غير عدوك ما إذا أخطأت نفعه لم يصل إليك ضرّه.

ومن الحكم المنثورة: انتهز أمر عدوّك قبل أن يمتدّ باعه، ويطول ذراعه، وتشتدّ شكيمته، وتقوى شوكته.

وفصل الخطاب في هذا المورد قول علي أمير المؤمنين عليه السلام: «بادر الفرصة قبل أن تكون غصة»(١).

وناهيك من ذلك انّه لما حضر عبيد الله بن زياد عند هاني بن عروة عائداً وقد كمن له مسلم بن عقيل عليه السلام، وأمره أن يقتله إذا جلس واستقرّ، فلما جلس جعل مسلم يؤامر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تطعه، وجعل هاني ينشد كأنّه يترنّم بالشعر قائلاً:

ما لانتظـار بسلمـى لا يحيّـيهـا  حيّـوا سليمـى وحيّوا من يحيّيها

ويكرّر ذلك، فأوجس عبيد الله خيفةً ونهض، فعاد إلى قصر الامارة، وفات مسلماً منه ما كان يؤمله باضاعة الفرصة حتّى صار أمره إلى ما صار.

***

قوله عليه السلام: «لَيْسَ كُلُّ طَالِب يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِب يَؤُوبُ. وَمِنَ الْـفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْـمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْر عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ. التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِير أَنْمَى مِنْ كَثِير!».

أُطلب الرزق واطلب العيش الرغد، ولكن بشيء كثير من

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٣١؛ عنه البحار ٧١ : ٣٤١ ح١٤.

القناعة وبشيء من التأنّي، فما كلّ طالب بمصيب، وما كلّ غائب راجعاً إلى وطنه، فاجمع ليومك زادك من الآن، ويا ويل من فسد زاده أو ضاع، أو فسدت عقباه وتقوّضت آخرته.

ولابدّ أنّنا لا محالة صائرين إلى غاية معلومة نجري نحوها مسرعين، وسوف يوافينا كلّ ما قدّر لنا، ولن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا، والتاجر مخاطر في بضاعته فقد يبلغ ما يريد، وقد يكبو به الطريق، وقد تلتوي به العقبات فلا ينال إلاّ يسيراً، وربّ يسير أنفع من الكثير، وربّ يسير أنمى من كثير.

❊❊❊

## الفصل الثامن عشر
## قواعد الصداقة والإخاء

«لَا خَيْرَ فِي مُعِين مَهِين، وَلَا فِي صَدِيق ظَنِين. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْء رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ.

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْـمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْـبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّين، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْـعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَة عَلَيْكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صِدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْـغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا

عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً. وَلِنْ لِـمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْـفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْد الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذلِكَ يَوْماً مَّا، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْـخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ. وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ».

***

سوء الظن:

في هذا الفصل أُسس وقواعد في الصداقة والاخاء متينة، فنحن نعلم من هذا الفصل أنّ الصديق لا يكون ظنيناً، وأنّ المعين لا يكون مهيناً، بمعنى أنّ الصداقة لا تسمح للظنون أن تتطرّق إليها، فليس لصديق على صديق أن يظنّ به أسوء الظن، وليس من حقّ صاحب على صاحبه أن يكيد له أعظم الكيد، كما ليس لمن أراد الاعانة على أمر

أن يهين ذلك المعان ويغض من قدره، ويرى لنفسه في ذلك حقّاً إزاء عمله واعانته على الأمر.

### سلطان الدهر:

وفي هذا الفصل نتعرّف إلى أنّ الإنسان مخطئ أشدّ الخطأ إذ يريد أن يعمل على عكس ما يريد له الدهر أن يعمل، فما من الدهر وأعماله محيد، وكيف يستطيع أحدنا أن يتّخذ له سبيلا غير سبيله، وقد خضع له من هو أشدّ منّا قوّة وبأساً، وإذاً فليس من واجبنا أن نكون مع الدهر أو عليه، وإنّما نحن أهل حياد ـ كما يقولون ـ نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا.

وإنّما الواجب أن نتربّص فرص الدهر السانحة، فنستغلّها فيما نريد أن نعمل ونقول، فإنّ للدهر غفلات، وإنّ له لقعود يلين به جانبه، فعلينا أن نلين له ما أبدى لنا اللين واللطف، وما كان لنا بحقّ ـ بحكم العقل ـ أن نتسرّع في شيء، وما كان لنا أيضاً أن نخاطر بما لدينا طمعاً بما في أيدي الناس، فذلك ممّا لا يليق بنا.

ولله ذلك الرجل القانع الذي لا يطمع من دنياه بأكثر من طمريه، ولا يبغي لنفسه فيها سوى قرص أو قرصين من الشعير يقيم به صلبه، لله ذلك الإنسان الرباني، أُنظر إليه كيف يأمر ولده تارةً باتّخاذ الطريقة القاصدة، ولزوم السيرة المثلى، وفيها تارةً أُخرى عن ارتكاب ما لا يحلّ لمثله أن يفعله، ممّا يشين به ويحطّ من مقامه في أعين الناس وعند الربّ.

## الطمع:

أُنظر إليه تراه ينهى ولده عن الطمع والطلب، فهو يدعوه إلى أن لا يخاطر بما يده ابتغاء تجارة مربحة ومال غزير، مخافة أن يذهب ما في يده فيقعده حينذاك ملوماً محسوراً، يودّ لو لم يكن قد فعل ما فعل، ويودّ لو أُتيح له استرجاع ما قدّم، ولكن أنّى له ذلك وقد انتقل ما كان عنده إلى غيره، وصار ملكاً لذلك الغير، وليس له فيه أيّ نصيب.

## اللجاجة:

وينهاه عن اللجاج في الخصومة مخافة أن يقع في أسرها، ينهاه عن اللجاج هذا الذي يؤدّي إلى الغضب، والغضب أبعد ما يكون عن منطقة العقل السليم.

## شروط الصداقة:

ونرى هنا أنّ من شروط الصداقة أشياء كثيرة: فمنها اللطف واللين للصديق، ومنها العطف والحنو عليه، ومنها حسن الظنّ به، ومنها الدفاع عنه والذبّ عن حوضه إن غاب وإن حضر، فإذا بدرت من الصديق بادرة فلا يحسن بهذا الصديق الآخر الصرم وقطع الصلة المتينة التي تمكّنت منهما وأمعنت في التمكّن، بل يجب عليه أن يبشرفيوجهه، وأن يظهرالاخاءالأوّل الذي يظهر أنّه فوق أن تزعزعه الحوادث.

والصديق إذا بخل عليك بشيء فإن كان لذلك سبب فهو بالعذر أحقّ منه باللوم، وإن لم يكن عن عذر فما يمنعك أن تعرض عن بخله وشحّه، وتجد من نفسك من يعلمه الصلة والاخاء، والسخاء الأخوي، وإن اشتدّ عليك وأسرف في التشدّد، وإن أحبّ لنفسه البُعد عنك، وإن بدر منه جرم تجاهك، فليس من جناح أن تعمل بضدّ ما يعمل، أن تجود بما لديك إذ يبخل بأدنى ما لديه، وتقرب منه إذ يتباعد عنك، وتلين له إذ يشتدّ عليك، وتعفو عنه إذ أساء إليك.

وإن أحببت دوام تلك الصداقة والأُخوّة فلا تصاحب خصم صديقك، وابتغ لنفسك في غيره صديقاً، أفما كفاك الكثير من الناس عن اتّخاذ عدوّ الصديق صديقاً، فاتّخذ لنفسك من دونه صديقاً تأنس إليه، تبادله الودّ وتصافيه المحبّة، وترفعه وتكرمه وتعزّه، ويعمل هو معك كما أنت تفعل.

فكم من صديق قد ضيّع أصدقاء كثيرين لسبب أنّه اتّحد بأعدائهم، ومعلوم أنّ كلّ من يتّخذ عدوّك صديقاً لنفسه فهو غير مبال بما يجره عليك هذا العدو، ولو كان يبالي بذلك ما صادقه ولا آخاه، ولكنّه راض بما يعمل معك وما يوقعه فيك، فمن هذا الطريق يكون هجر الصديق للصديق؛ لأنّ صديق العدو لم يعد صديقاً حقّاً فهو شريك للعدو في عداوته، وشريك له في بغضائه وكيده، وشريك في خديعته ومكره، يوصل إليك ضرّه وكيده في لباس الصداقة والمحبّة.

ومن أحضر طعاماً مسموماً عند الغير مريداً اهلاكه، فهو أخبث

نفساً وأشدّ معصيةً ممّن شهر سيفه علانية مريداً قتله، إذ الثاني أظهر ما في ضميره، وأعلَمَ المقابل بارادته، فجزم بأنّه عدو محارب له فاستعدّ لدفع شرّه ومنع ضرّه، وأمّا الأوّل فظاهره في مقام الاحسان، وباطنه في مقام الايذاء والعدوان، والغافل لا خبر له عن خباثة باطنه فيقطع بأنّه يحسن إليه، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط بل في مقام المحبّة والوداد، فيقتله وهو يعلم أنّه يحسن إليه، ويهلكه وهو في مقام الخجل منه.

الإخلاص في النصيحة:

قوله عليه السلام: «وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً».

يعلمنا الإمام عليه السلام في هذه الفقرة بأنّ على الإنسان أن يبذل النصح لأخيه وصديقه ما وسعه، فإنّ النصح من أعظم لوازم المحبّة، وأهم مقوّمات المودّة، ولا تتمّ صداقة، ولا تنعقد أُخوّة، ما لم تكن النصيحة رائدها وباعثها، ومن لم يكن ناصحاً لأخيه فليس بأخ.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمن أخو المؤمن لا يدع نصيحته على كلّ حال»[1].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «يحقّ على المؤمن للمؤمن النصيحة»[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المؤمن فلم

(١) مستدرك الوسائل ١٢ : ٤٣٠ ح١٤٥٣٠.

(٢) البحار ٧٤ : ٢٨٦ ضمن حديث ١٣.

يناصحه فقد خان الله ورسوله»[1].

والنصيحة أفضل صفة في النوع الإنسان كما أنّ نقيضها وهو الغشّ أقبح خصلة في الإنسان، وهي تجب لعامة المسلمين إعانة وارشاداً، بحقّ والى حقّ، كما يحرم نقيضها وهو الغش. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من غشّنا فليس منّا»[2].

### معنى النصيحة:

قال في القاموس: «نصحه نصحاً ونصاحة ونصاحية، وهو ناصح ونصيح من نصّح ونصّاح، والاسم النصيحة، ونصح: خلص»[3].

وقال ابن الأثير في النهاية في الحديث «إنّ الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامّتهم»[4].

النصيحة كلمة يعبّر بها عن جملة، هي ارادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبّر هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناها غيرها، وأصل النصح في اللغة الخلوص، يقال نصحته ونصحت له، ومعنى نصيحة الله صحة الاعتقاد في وحدانيّته واخلاص النيّة في عبادته، والنصيحة لكتاب الله هو التصديق به والعمل بما فيه، ونصيحة رسوله

---

(١) البحار ٧٤ : ٢٨٦ ضمن حديث ١٣.

(٢) كنز العمال ٣ : ٥٤٥ ح٧٨٢٤.

(٣) القاموس المحيط : ٣١٢ / نصح.

(٤) النهاية ٥ : ٦٢ / نصح.

التصديق بنبوّته ورسالته، والانقياد لما أمر به ونهى عنه، ونصيحة الأئمة أن يطيعهم في الحقّ، ولا يرى الخروج عليهم إذا جاروا، ونصيحة عامة المسلمين ارشادهم إلى مصالحهم.

هذا على رأيه ومعتقده، في حين أنّه لا كرامة لامام فاجر جائر، وقد أوجب الله مقاومته وردعه وكبح جماحه وردّه عن الجور إلى العدل، فإذا لم يتمكّن المرء على ذلك فعلى الأقل لا يركن إليه ولا يخالطه، يقول تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود : ١١٣].

وحاشا رسول الله ﷺ أن يأمرنا بمتابعة الإمام الجائر وبمناصحته، وإنّما الذين تجب متابعتهم والمناصحة لهم من الأئمة، هم أئمة أهل البيت النبوي الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

والنصيحة لهم معناه التصديق بامامتهم، وأنّها فريضة من الله ونصّ من رسوله ﷺ، والانقياد لأوامرهم ونواهيهم، نعم يناصح من لا يجور من الخلفاء معونة للعدل، ومساعدة للمساواة.

## الأدلّة على فضيلة المناصحة:

جاء في الكتاب العزيز: ﴿إِذا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة : ٩١]، ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ [الأعراف : ٦٨]، ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ [هود : ٣٤]، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وفي السنّة أحاديث كثيرة: منها ما في «أُصول الكافي» عن الإمام

الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه»(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أعظم الناس عند الله منزلة يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه»(٢).

وعن جرير بن عبد الله قال: «بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله على إقام الصلاة، وايتاء الزكاة، والنصح لكلّ مسلم»(٣).

وقال الصادق عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب»(٤).

وقال: «عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه»(٥).

وقال: «من مشى في حاجة أخيه ثمّ لم يناصحه فيها، كان كمن خان الله ورسوله وكان الله خصمه»(٦).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سعى في حاجة لأخيه فلم ينصحه فقد خان الله ورسوله»(٧).

---

(١) الكافي ٢ : ٢٠٨ ح٤؛ عنه البحار ٧٤ : ٣٥٨ ح٧.
(٢) الكافي ٢ : ٢٠٨ ح٥؛ عنه البحار ٧٤ : ٣٥٨ ح٨.
(٣) الترغيب والترهيب ١ : ٥٣٤ ح٢١.
(٤) الكافي ٢ : ٢٠٨ ح٢؛ عنه البحار ٧٤ : ٣٥٨ ح٥.
(٥) الكافي ٢ : ٢٠٨ ح٦؛ عنه البحار ٧٤ : ٣٥٨ ح٩.
(٦) الكافي ٢ : ٣٦٣ ح٤؛ عنه البحار ٧٥ : ١٨٣ ح٢٦.
(٧) الكافي ٢ : ٣٦٢ ح١؛ عنه البحار ٧٥ : ١٨٢ ح٢٤.

## أسباب المناصحة:

للمناصحة أسباب كثيرة: منها العفة؛ فإنّ العفيف يأنف من الغش حتّى لعدوّه، ومنها الديانة؛ فإنّ المتديّن يرى من واجبه الديني المبالغة في مصالح المسلمين، وفي أيّ عمل كان وقام به من أعمال وأقوال ترضي الله ورسوله، ومنها الحياء؛ فإنّ الحيي لا يغشّ، وإنّما ينصح استحياءً من نسبة الغش إليه، ومنها الصدق؛ فإنّ الصادق لا يكذب فيقول له قد نصحتك وهو له غاش. ومنها سلامة الذات والفطرة؛ فإنّ سليم الذات لا يغش، ولا يرى النصح إلاّ لازماً، وما ذاك إلاّ لسلامة نفسه وفطرته على هذا الخلق الحسن.

## ثمرات المناصحة:

وأهمّها أنّها تفيد الاجتماع، ويكون داعياً إلى الأُلفة وموجباً للثقة والاطمئنان، ومن ثمراتها عند المتديّن الفوز بما وعد الله من كرامة أرباب العمل الصالح من المخلصين لدينهم، ومن ثمراتها اكتساب الحمد، فإنّ الناصح ممدوح، وله وقع في القلوب وأثر في النفوس كبير، وله القبول حتّى عند الأعداء.

## صعوبة قبول النصيحة:

أمر قبول النصيحة صعب لا يقبله إلاّ أفذاذ العقلاء ونوادر البشر.

قال في «المستطرف»: «إنّ جرعة النصيحة مرّة لا يقبلها إلاّ أُولوا العزم»[1].

وفي «المحاضرات» للراغب: الحثّ على قبول النصح وإن كان مرّاً.

قال بعض الحكماء: من أوجرك المرّ لتبرء أشفق عليك ممّن أوجرك الحلو لتسقم، وقيل: النصيحة آمن من الفضيحة[2].

والأنسب للعاقل إبداء النصيحة وإبرازها صادفت قبولاً أم لا، فإنّها إن صادفت قبولاً فقد نال حمداً وأجراً، وإن لم تصادف قبولاً فقد اكتسب أجراً وعذراً، وخرج عن صفة الغش المذمومة.

***

## كظم الغيظ:

قوله عليه السلام : «وَتَجَرَّعِ الْـغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً».

وعليك بالحلم، فإنّه لو كان مرارة ساعة كان لك حلاوة لا تفارق مذاقك حتّى نهاية العمر، وتجرع أكؤس الغيظ غصصاً، كما عليك أن تبلو من أكؤس الصبر الشيء الكثير، فما من أحد يفعل ذلك إلاّ ذاق المغبة لذيذة، واستقبل العافية بما يستقبل به صاحب النفع منفعته، وبما

---

(١) المستطرف : ١ : ١٧٤ الباب ١١.

(٢) محاضرات الأدباء ١ : ١٢٩ مما جاء في النصح.

يستقبل به صاحب الأمل أمله، وفي المثل: «الحلم مرارة ساعة، وحلاوة الدهر كلّه».

وهو من أكرم الخلال، وأتمّ الخصال، وأفضل شمائل الرجال، وأسنى مواهب الله تعالى، وهو أصل من أُصول الدين، وركن من أركان الطاعة، وحبل من حبال الشرع، وحصن من حصون الايمان، من استند إليه وتمسّك به واعتمد عليه استنارت له الظلم، وأمن من عثار القدم، وعصم من مواقع الندم.

## الحِلم:

الحلم إمساك النفس عن الاستشاطة في الغضب، وملك الجوارح عند اتقاد جمرة الشر، والسكون عند الأحوال المحرّكة للانتقام، والتثبّت في ترك تعجيل إنفاذ الحكم، لما في عواقب ذلك من وقوع الندم، لا سيّما مع تمكّن القدرة، وتحكم القوّة، فإنّ ذلك آية الرحمة، وسعة الصدر، وعلوّ الهمّة، وايثار مكارم الأخلاق، فما منع شيئاً من دواعي الفضل من طبع عليه، ولا قصر عن أرفع مراتب الخير من وفق إليه، كما أنّه ما ترك شيئاً من الأحوال الذميمة، وتأخّر عن سبب من الأسباب المليمة من أنفذ غضبه، واستعجل عند القدرة انتقامه.

وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس وبعد الهمم، والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم، ومن تحلّى به واستعمله، وأخذ به نفسه وامتثله فقد استمسك من الصبر بكلّ سبب، واستولى على دواعي الخير ومساعي البر في كلّ أرب، فما زال يطفئ جمرة الغضب، ويسمو

بصاحبه في الدارين إلى أرفع الرتب.

وهو اسم من أسماء الله سبحانه، وصفة من صفاته، لأنّه ـ جلّ ذكره ـ يرى عصيان العاصين، ويطلع على خيانة الخائنين، ويشاهد جور الظالمين، ويحصي ذنوب الخاطئين، فلا يحتجب عنه عمل عامل، ولا يغيب عن علمه شيء في عاجل ولا آجل.

وهو بحلمه لا يعجل الانتقام مع القدرة، ولا يستفزه الغضب مع إمكان القوّة، ولا تبعثه العجلة على انفاذ حكمه مع وضوح الحجة، بل يؤثر الحلم والامهال، ليكون له الفضل والمنّة، وحسبنا قوله عزّ من قائل: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف : ٥٨].

وقوله تبارك اسمه: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل : ٦١].

## الحِلم صفة الأنبياء:

وقد أثنى الله تعالى بالحلم على أنبيائه، وخصّ به صفوة أوليائه، ومنحه من أراد كرامته من أهل طاعته وأصفيائه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود : ٧٥].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

روي أنّه قال رسول الله ﷺ لجبرئيل عند نزول هذه الآية: «ما هذا؟» قال: لا أدري حتّى أسأل العالم، ثمّ عاد جبرئيل فقال: يا محمّد إنّ ربّك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك[1].

## نصوص نبويّة في الحلم:

وقال رسول الله ﷺ: «وجبت محبّة الله لمن أغضب فحلم»[2].

وقال: «إذا غضب أحدكم وكان قائماً فليقعد، وإن كان قاعداً فليضطجع»[3] يريد بذلك تسكين الغضب عند استشاطة النفس.

وأتاه رجل فقال: يا رسول الله أوصني، قال: لا تغضب، ثمّ أعاد عليه، فقال: لا تغضب، ثمّ أعاد عليه، فقال: لا تغضب[4].

وقد أراد رسول الله ﷺ بهذا كلّه أن يعلم أصحابه هذا الدرس في الأناة وضبط النفس، حتّى أنّه روي أنّ أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه ثمّ قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا، ولاأجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم ﷺ أن كفّوا، ثمّ قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئاً، ثمّ قال له: أحسنت إليك؟ قال: نعم،

---

(١) البحار ٧٥ : ٢٤٣ ح٤.

(٢) كنز العمال ٣ : ١٣١ ح٥٨٢٦.

(٣) الترغيب والترهيب ٣ : ٤٥٠.

(٤) مستدرك الوسائل ١٢ : ٩ ح١٣٣٦٦.

فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله: إنّك قلت ما قلت آنفاً، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتّى يذهب ما في صدورهم عليك، قال: نعم.

فلمّا كان الغد جاء، فقال النبي صلى الله عليه وآله: إنّ هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنّه رضي، أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه، فأتبعها الناس ـ جروا خلفها ـ فلم يزيدوها إلاّ نفوراً، فناداهم صاحبها فقال لهم: خلّوا بيني وبين ناقتي، فإنّي أرفق بها منكم وأعلم، فتوجّه لها بين يديها فأخذ من قمام الأرض، فردّها حتّى جاءت، واستناخت وشدّ عليها رحلها، واستوى عليها، وإنّي لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار.

## الحلم في كلمات الحكماء:

وحكي عن بعض ملوك الفرس، أنّه كتب كتاباً دفعه إلى بعض وزرائه وقال له: إذا غضبت فناولنيه، وكان قد كتب فيه: ما لك وللغضب، وإنّما أنت بشر، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء.

وكتب أبرويز لابنه: «يا بني إنّ كلمةً منك تسفك دماء، وكلمة تحقن دماء، وأمرك نافذ، وكلامك ظاهر، فاحترس في غيظك من قولك أن يخطئ، ومن لونك أن يتغيّر، ومن جوارحك أن تخف، فإنّ الملوك

تعاقب قدرة، وتعفو حلماً».

وقالت الحكماء: «ليس الحليم من ظلم فحلم، حتّى إذا قدر انتصر، إنّ الحليم من إذا قدر عفا»، وقيل: «الحلم ترك المكافأة بالشرّ قولا وفعلا».

وقيل للأحنف بن قيس: ممّن تعلّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري، رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه يحدّث قومه، إذا برجل مكتوف ورجل مقتول، فقيل له:

هذا ابنك قتله ابن أخيك هذا، فوالله ما قطع كلامه، ولا حل حبوته، ثمّ التفت إلى ابن أخيه وقال له: يا ابن أخي أنت رميت نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمّك، ثمّ قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحلّ كتاف ابن عمّك، واحمل إلى أُمّك مائة ناقة دية عن ابنها فإنّها غريبة.

والحلم يحسبه السفيه من ضعف السنة، واحتمال الذلة، والعاقل يراه من كمال العزّة واسداء المنّة، ولذا قال الأحنف: لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم، وتقلّدت السيوف، ولم تر الحلم ذلاً، ولا التراهب فيما بينها ضعة، كما قال:

لا يدرك المجـد أقوام وإن كـرمـوا حتّـى يـذلوا وإن عـزّوا لأقــوام
ويصفحـوا عن كثير من إساءتهم لا صفح ذلّ ولكـن صفح أحلام

وقال بعض الحكماء: الحلم والأناة توأمان نتيجتهما علوّ الهمّة.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أوّل ما يرى الحليم من بركة حلمه أنّ الناس كلّهم أعوانه على الجاهل»(١).

وقال محمّد بن كنانة:

إنّ أهل الجاهلية لم يكونوا يسودون رجلا حتّى يكون حليماً، وإن كان أكرم الناس، وأشجع الناس، وأشرف الناس.

وقال بعض العلماء: ثلاث من لم تكن فيه لم ينفعه الايمان: حلم يرد به جهل الجاهل، وورع يكفّه عن المحارم، وخلق حسن يداري به الناس.

ومن تمام أحكام الحلم، وكمال أسبابه، واجتماع معانيه، قبول العذر من صادق كان أو كاذب، فإنّ الاعتذار دليل الندم، والندم توبة، وقد يكون الاعتذار حياءً من المعتذر، والحياء من الايمان، ومن درر الكلم: «لا يظهر الحلم إلاّ مع الانتصار، ولا يبين العفو إلاّ عند الاعتذار».

***

**اللين، والفضل، وأداء الحقوق:**

قوله عليه السلام: «وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْد الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذلِكَ يَوْماً مَّا، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ

(١) جامع الأخبار: ٣١٩ ح٨٩٦؛ عنه البحار ٧١: ٤٢٥ ح٦٨.

ظَنَّهُ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ».

ولن لمن غالظك ولا تغالظه فتكون الغلظة مضاعفة، وقد قيل: إنّ الشر شر واحد لو أغضيت عنه، ولم تأبه به، ولكنّك إذا قابلته بشرّ مثله فقد وريت الزند، وأصبح الشرّ شرّين بعد أن كان الشرّ واحداً.

وقد تستطيع أن تبلغ من ذلك المغالظ الذي تعرض عن سوأته صفحاً، قد تستطيع أن تبلغ منه ما تريد أن تجده في كلّ أحد، فأنت إن أغضيت عن الأمر الذي يريده لك عدوّك، أو فاوضته في أمره بلسان طيّب لا شذوذ فيه، فقد جلبت لنفسك أصدقاء يفادونك بأنفسهم، استمع إلى القرآن تجد أنّه بلّغ إلى الناس هذا، وأراد حملهم عليه في كلّ ما يذهب إليه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت : ٣٤].

وقابل عدوّك بالتفضّل عليه والاحسان إليه، فإنّك إن كنت تروم الغلبة فتلك أحلى من الغلبة التي تكسبك اذعان العدو واستسلامه كرهاً، ولكنّك لو فعلت ما ذكرت لحزت على السيطرة والغلبة والنفوذ، ولنقاد لك العدو طواعية، وكفى بذلك غلباً وظفراً.

وإن أردت أن تقطع ما بينك وبين صديقك من أسباب المودّة والاخاء، فاترك له جانباً يستطيع أن ينفذ منه إليك متى أراد ذلك، ومتى أحوجته الظروف إلى ذلك، ومن ظنّ بك خيراً فلا تخيب ظنّه، بل صدّقه في ظنّه، بأن تعمل بموجب ما ظنّك عليه، فإذا ظنّك جاداً عاملا فلا

تظهر نفسك أمامه بمظهر المتخاذل المتباطئ في العمل بل اعمل كما يظنّ وأزيد ممّا يظنّ.

ولا يذهب بك حسن الظنّ بصديقك مذاهب بعيدة، فتعتقد أنّ الصداقة الوثيقة لا سبيل إلى فصم عراها، وقطع أسبابها، وأي سبب استعصى على القطع، وأي حبل ثبت للأثقال يعلّق به، ولا ينقطع من ثقلها الثقيل، فما أيسر ما يقطع الحبل، وينفصم السبب فتعود الصداقة عداوة، وينقلب الاخاء بغضاً. فماذا عليك أن تعمل إذن للمحافظة على حبل الصداقة أن ينقطع، عليك أن تشكر لصديقك أياديه متى قدّم لك شيئاً، ولا تجحف بحقّه اعتماداً على ما بينك وبينه من صلة، فإنّه ليس لك بأخ من أضعت حقّه.

## ما يجب في الصديق:

قيل للهائم أبي علي: من تحب أن يكون صديقك؟ قال: من يطعمني إذا جعت، ويكسوني إذا عريت، ويحملني إذا كللت، ويغفر لي إذا زللت.

وقيل للبنوي: من تحبّ أن يكون صديقك؟ قال: من يقيلني إذا عثرت، ويقومني إذا ازوررت، ويهديني إذا ضللت، ويصبر عليّ إذا مللت، ويكفيني ما لا أعلم وما علمت.

وسمع أبو عامر النجدي يقول: الصديق من صدّقك عن نفسك لتكون على بيّنة من أمرك، ويصدّقك أيضاً عنه لتكون على بيّنة منه، لأنّكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء، في السرّاء والضرّاء، والشدّة

والرخاء، فليس لكما فرحة ولا ترحة إلاّ وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق.

## خير أُسس الصداقة:

وخير أُسس الصداقة التقوى والثقة، قال ابن الجلاء الزاهد لأصحابه: اطلبوا خلّة الناس في هذه الدنيا بالتقوى تنفعكم في الدار الأُخرى، ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْـمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٦٧].

وتوفي ابن ليونس بن عبيد فقيل له: إنّ ابن عون لم يأتك، فقال: إنّا إذا وثقنا بمودّة أحد لا يضرّنا ألاّ يأتينا.

وقال العروضي: لمّا عاد السلطان عليّ بن عيسى من مكّة تلقّاه قوم من بغداد إلى زبالة، والى ما فوقها ودونها، فلمّا قرّت به الدار بمدينة السلام أتاه قوم كانوا بها لم يتجشّموا لقاءه، فقـال : كم من إنسان قعد لم يرم مجلسه حتّى وافيناه فكان أنوط بقلوبنا، وأسكن في أسرارنا من قوم تجشّموا المسير إلى زبالة، ألا إنّ المودّة هي الأصل، والصداقة هي الركن، والثقة هي الأساس، وما عدا ذلك فمحمول عليه ومردود إليه.

وقال يحيى بن أكثم: كنت أرى شيخاً يدخل على المأمون في السنة مرّة، وكان يخلو به خلوة طويلة، ثمّ ينصرف فلا نسمع له خبراً، ولا نرعى له أثراً، ولا نقدم على المسألة عنه، فلما توفي قال لنا المأمون: وا أسفاه على صديق مسكون إليه، موثوق به، يلقى إليه العجز والبجر،

وتقتبس منه الفوائد والغرر.

قلنا: ومن ذا يا أمير المؤمنين؟ قال: أما كنت ترى شيخاً يأتينا في الفرط ونخلو به من دون الناس؟ قلت: بلى، قال: قد تأخّر عن إبانه، وأظنّه قد قضى، قلت: الله يمدّ في عمر أمير المؤمنين وما في ذاك، قال: كان صديقي بخراسان، وكنت أستريح إليه استراحة المكروب، وأجد به ما يوجد بالولد السارّ المحبوب، ولقد كنت أستمدّ منه رأياً أُقوّم به أود المملكة، وأصل به إلى رضا الله في سياسة الرعية، وآخر ما قاله لي عند وداعه أن قال: يا أمير المؤمنين إذا استتشن ما بينك وبين الله تعالى فابلله، قلت: بماذا يا صاحب الخير؟

قال: بالاقتداء به في الاحسان إلى عباده، كما تحبّ الاحسان إلى ولدك من حاشيتك، والله ما أعطاك القدرة عليهم إلاّ لتصبر على الاحسان إليهم بالشكر على حسناتهم والتغمّد لسيّئاتهم، من لي يايحيى بمثل هذا القائل، وأنّى لي بمن يذكّرني ما أنا إليه صائر.

وقال يحيى بن معاذ: بئس الصديق تحتاج معه إلى المداراة.

قيل لأبي سليمان: ما الفرق بين الصداقة والعلاقة؟ قال: الصداقة أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة، وأبعد من توازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرمى إلى حدود الرشاد، وآخذ بأسباب السداد، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة. فأمّا العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبّة، والكلف والشغف، والتتيم والتهيم، والهوى والصبابة، والتدانف والتشاجي، وهذه كلّها أمراض أو كالأمراض تصيب النفس الضعيفة، وتجانس الميل

الطبعي، وليس للعقل فيها ظلّ ولا شخص.

ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والأُناث، وتنال منهم وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس، وفضائل الأخلاق وفوائد التجارب ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواعظ ليفيئوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج، والطريق الوسط.

**خير خلال الصديق:**

أُمّهات الخلال في الصديق أربع خصال:

الأُولى: عقل موفور يهدي إلى مراشد الأُمور، فإنّ الحمق لا تثبت معه مودّة، ولا تدوم لصاحبه استقامة، وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله: «البذاء لؤم، وصحبة الأحمق شؤم».

ويقول بعض الحكماء: عداوة العاقل أقلّ ضرراً من مودّة الأحمق، لأنّ الأحمق ربّما ضرّ وهو يقدر أن ينفع، والعاقل لا يتجاوز الحدّ في مضرّته، فمضرّته لها حدّ يقف عليه العقل، ومضرّة الجاهل ليست بذات حد، والمحدود أقلّ ضرراً ممّا هو غير محدود.

قال المسيّب بن زهير: مادة العقل مجالسة العقلاء.

وقال بعض البلغاء: من الجهل صحبة ذوي الجهل.

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «فساد الأخلاق معاشرة السفهاء، وصلاح الأخلاق معاشرة العقلاء»(١).

(١) البحار ١ : ١٦٠ ح٤٥.

وقال: «صديق الجاهل معرض للعطب»[1]، وقال: «عاشر أهل الفضائل تنبل»[2]، وقال: «مجالسة العقلاء تزيد في الشرف»[3]، وقال: «لا تصحبنّ من لا عقل له»[4].

وقال بعض الأدباء: من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقاً جاهلا، أو عدوّاً عاقلا، لأنّه يشير بما يضرّك، ويحتال فيما يضع منك.

الثانية: الدين الواقف بصاحبه على الخيرات، فإنّ تارك الدين عدوّ لنفسه فكيف يُرجى منه مودّة غيره، والى هذا يشير بعض الحكماء إذ يقول: اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأي والأدب، فإنّه ردء لك عند حاجتك، ويد عند نائبتك، وأُنس عند وحشتك، وزين عند عافيتك.

الثالثة: أن يكون محمود الأخلاق مرضي الفعال مؤثراً للخير آمراً به، كارهاً للشرّ ناهياً عنه، فإنّ مودّة الشرير تكسب الأعداء، ولا خير في مودّة تجلب عداوة وتورث مذمّة وملامة، فإنّ المتبوع تابع صاحبه.

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «ينبغي للمسلم أن يجتنب مؤاخاة ثلاثة: الفاجر، والأحمق، والكذّاب، فأمّا الفاجر فيزيّن لك فعله ويحبّ

---

(١) غرر الحكم : ٤٣٢ ح٩٨٦٥.

(٢) غرر الحكم : ٤٢٩ ح٩٧٧٣.

(٣) البحار ٧٨ : ٦ ح٥٨.

(٤) غرر الحكم : ٤٣٤ ح٩٩١٠ نحوه.

أنّك مثله، ولا يعينك على أمر دينك ومعادك، فمقارنته جفاء وقسوة، ومدخله عار عليك. وأمّا الأحمق، فإنّه لا يشير عليك بخير، ولا يرجى لصرف السوء عنك ولو جهد نفسه، وربّما أراد نفعك فضرّك، فموته خير من حياته، وسكوته خير من منطقه، وبعده خير من قربه.

وأمّا الكذّاب، فإنّه لا يهنيك معه عيش، ينقل حديثك وينقل إليك الحديث حتّى انّه يحدّث بالصدق فلا يصدق، يغري بين الناس بالعداوة، فيثبت الشحناء في الصدور، فاتّقوا الله وانظروا لأنفسكم»[١].

قال بعض الحكماء: مخالطة الأشرار خطر، والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه.

وقال بعض البلغاء: صحبة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة يجب على كلّ إنسان تجنّبها: مقارنة الاشرار، ومحادثة النساء، ومجالسة أهل البدع»[٢].

وقال: «إيّاك ومخالطة السفلة، فإنّ السفلة لا تؤدّي إلى الخير»[٣].

وقال: «لا تصحب خمسة: الكذّاب فإنّك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرّب منك البعيد، ويبعّد منك القريب، والأحمق فإنّك لست منه على شيء، فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك، والبخيل فإنّه يقطع

(١) الكافي ٢ : ٣٧٦ ح٦؛ عنه البحار ٧٤ : ٢٠٥ ح٤٣؛ والمحجة البيضاء ٣ : ٣١١.
(٢) البحار ٧٨ : ٢٣٢ ح٣٣.
(٣) البحار ٧٨ : ٢٤٩ ح٨٥.

بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنّه يسلمك ويفرّ عند الشدّة، والفاسق فإنّه يبيعك بأكلة أو أقلّ منها»(١).

الرابعة: أن يكون من كلّ واحد منهما ميل إلى صاحبه، ورغبة في مؤاخاته، فإنّ ذلك أوكد لحال المؤاخاة، وأمدّ لأسباب المصافاة، إذ ليس مطلوب إليه بطالب، ولا كلّ مرغوب إليه براغب، ومن طلب مودّة ممتنع عليه ورغب إلى زاهد فيه، كان معنّىً خائباً، كما قال البحتري:

وطلبت منك مودّة لم أعطها ... إنّ المعنّى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الأحنف:

فإن كان لا يدنيك إلاّ شفاعة ... فلا خير في ودّ يكون بشافع

قال الإمام الصادق عليه السلام: «الصداقة محدودة فمن لم يكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال، أوّلها: أن تكون سريرته وعلانيته واحدة. والثانية: أن يرى زينك زينه وشينك شينه. والثالثة: لا يغيّره مال ولا ولد. والرابعة: أن لا يمسك شيئاً ممّا تصل إليه مقدرته. والخامسة: أن لا يسلمك عند النكبات»(٢).

فإذا استكملت هذه الخصال في إنسان وجب إخاؤه، وتعيّن اصطفاؤه، وعلى قدر وفورها فيه يكون الميل إليه، والثقة به، فالاخوان على طبقات مختلفة، وأنحاء متشعّبة، ولكلّ واحد منهم حال يختصّ بها

---

(١) البحار ٧٤ : ١٩٦ ح٢٩؛ والمحجة البيضاء ٣ : ٣١٥.

(٢) البحار ٧٤ : ١٧٣ ح١.

في المشاركة، وثلمة يسدّها في الموازرة والمظافرة، وليس تتّفق أحوال جميعهم على حدّ واحد، لأنّ التباين في الناس غالب، واختلافهم في الشيم ظاهر، والى هذا يشير بعض الحكماء إذ يقول: الرجل كالشجر، شرابه واحد، وثمره مختلف، ومن رام اخواناً تتّفق أحوال جميعهم رام متعذّراً.

## العطف على الأهل:

قوله عليه السلام: «وَلاَ يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْـخَلْقِ بِكَ».

ذلك أنّ الأهل أولى بالعطف، وأجدر باللطف، وأي شيء أجدر من الزجاج باللين واللطف، ومن كان أشقى الخلق به أهله فما هو من الإسلام وتعاليمه في شيء، وأي شيء منه يلائم التعاليم الإسلامية، والتعاليم الإسلامية تأبى ذلك أشدّ الاباء، تأبى التعاليم الإسلامية أن يكلّف الرجل امرأته بأيسر العمل دون رضاً منها ورغبة، فكيف بالرجل يكلّف المرأة مشقّة ما فوقها مشقّة، وعملا مضنياً ما فوقه عمل مضن.

أتراه يرعى من تعاليم الإسلام شيئاً، أم أنّ بينه وبين ذلك أشدّ الخلاف، وأنا لا أرى كثيراً من أصحابنا في هذا العصر، وغير أصحابنا إلاّ من كلّف المرأة شططاً، وحملها أمراً صعباً تكرهه وتضجر منه، واتّخذ لنفسه من زوجه المسكينة مطيّة يركبها، يستخدمها في أعماله، ويسخّرها في كلّ ما يريد، ويستعملها فيما يريد، وهو عليها كما يكون الملك الاستبدادي القاسي يفرض عليها أحكامه، وينزل عليها سخطه.

فإذا حادت عن رأيه قليلا، وإذا تركت من قوله جانباً، وإذا أغفلت من أوامره ناحية فهنالك القطيعة والتنكّر والاستكبار، وهناك السبّ واللوم والتعنيف الذي يوجّه نحو أبويها وأقربائها، فمن قرأ مقالتنا هذه فليكفّ عن زوجه بعض الأذى، وليرجع إلى ناموس وجدانه، وليخفّف من غلوائه، فإنّها أسيرة فرفقاً بالأسير، وإنّها قارورة فرفقاً بالقوارير أن تنكسر وتعدم فائدتها.

***

قوله عليه السلام: «وَلاَ تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ».

فإنّك لو رغبت فيه لم تجد منه إلاّ نكراً، ولم تلاق منه إلاّ ما تكره، فما أيسر أن ترغب عنه وتنأى بجانبك، ولا تعيره أي اهتمام.

***

## الأمر بالصلة والاحسان:

قوله عليه السلام: «وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ».

وكن أقوى على صلة أخيك منه على القطيعة، ولا تدعه يكون أقوى على القطيعة منه على الصلة، ولتكن أنت كذلك أقوى على الاحسان منه على الاساءة، فمقابلة السيّئة بالحسنة يكسر شرّة النفوس، ويوجهها إلى الخير، ويطفئ جذوة الشرّ، ويرد نزغ الشيطان، وهذه المقابلة من خلق الكرام الذين زكت نفوسهم وطهرت قلوبهم.

**نتيجة الظلم:**

قوله عليه السلام: «وَلاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ».

واصبر نفسك على من ظلمك، وغصب حقّك، وحرمك من نصيبك شيئاً، ففي الصبر بلوغ الأرب ونيل المطلب، ولو نظرت فأمعنت في النظر لتكشف لك أنّ الظالم محسن، وكيف يكون الظالم محسناً، وكيف يكون الظلم احساناً.

نعم هو كذلك لأنّ الظالم لا يظلم إلاّ نفسه، ولا يسعى إلاّ في جلب الضرر لنفسه، ولو تفكّرت جيّداً رأيت نفسك الرابح، وإنّك صاحب الكفّة الراجحة من الميزان، فلا تخففنّ من ضرره على نفسه بأن تدعو الله عليه أو تدافعه عن نفسك، بل اتركه، فما عرفت لك أحداً أعود عليك نفعاً من ظالمك، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه.

وقد قلت لك انّه ليس لك أن تجحد لصاحب الاحسان إحسانه بل اعرف صنيعه، واذكره بلسان المدح والثناء، وأنا لا أرى ظالمك هذا إلاّ محسناً فهو يسدي إليك يداً يجب عليك أن تؤدّي إليها حقّها من الشكر، فإن لم تفعل فإنّك الظالم، وإنّ ذلك الذي لا يستطيع أن يضع الشيء في موضعه المناسب له.

***

## الفصل التاسع عشر
## حِكَمٌ في السلوك الاجتماعي

«وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ.

مَا أَقْبَحَ الْـخُضُوعَ عِنْدَ الْـحَاجَةِ، وَالْـجَفَاءَ عِنْدَ الْـغِنَى!

إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ. وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ. وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لاَ تَنْفَعُهُ الْـعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلاَمِهِ، فَإِنَّ الْـعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالآدَابِ، وَالْـبَهَائِمَ لاَ تَتَّعِظُ إِلاَّ بِالضَّرْبِ. اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْـهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْـيَقِينِ.

مَنْ تَرَكَ الْـقَصْدَ جَارَ. وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ. وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ. وَالْـهَوَى شَرِيكُ الْـعَمَى. وَرُبَّ بَعِيد أَقْرَبُ مِنْ قَرِيب، وَقَرِيب أَبْعَدُ مِنْ بَعِيد. وَالْـغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّى الْـحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ. وَأَوْثَقُ سَبَب أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ الْـيَأْسُ إِدْرَاكاً إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلاَكاً. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَة تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَة تُصَابُ. وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْـبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ. أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ. وَقَطِيعَةُ الْـجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْـعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ.

لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْـجَارِ قَبْلَ الدَّارِ».

***

**الرزق رزقان:**

الرزق لا يعدو إحدى اثنتين: فرزق تطلبه وتسعى إليه، وتتذرّع

إليه بالوسائل المختلفة، وتحدث بينك وبينه أسباباً وصلات حتّى إذا بلغ منك الاعياء مبلغاً عظيماً نلته بعد جهد جاهد، وعسر عسير.

ورزق يسعى نحوك ولا تسعى أنت إليه، بل لم تر أنّه قد كتب لك، فهو يأتيك من دون أن تبذل فيه شيئاً من راحة، ومن دون أن تركب لنيله الصعاب، وتجتاز من أجله العقاب.

## الرزق الذي يطلبك:

دخل عماد الدولة أبو الحسن بن بابويه بشيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها وهو فقير لا مال له، فساخت احدى قوائم فرسه في الصحراء في الأرض، فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلصوها، فظهر لهم في ذلك الموضع نقب وسيع، فأمرهم بحفره فوجدوا فيه أموالا عظيمة وذخائر لابن ياقوت.

واستلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز ـ التي كان ابن ياقوت يسكنها ـ فرأى حيّة في السقف، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم ودخلت في خشب الكنيسة، فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل، فلمّا قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله، فقيل: هاهنا خياط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهورجل منسوب إلى الدين والخير، إلاّ أنّه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلا، فأمر باحضاره فأحضر عنده وهو في رعب وهلع، فلمّا أُدخل عليه كلّمه وقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا

قطعة من الثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه وقال: والله يا مولاي ما له عندي إلاّ أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء فيّ، فتعجّب عماد الدولة وأمر باحضار الصناديق، فوجدها كلّها ذهباً وحلياً وجواهراً مملوءة وديعة لابن ياقوت[1].

عبد الله بن جدعان التيمي ـ أحد أجواد الجاهلية ـ كان في ابتداء أمره صعلوكاً ترب اليدين، وكان من ذلك شريراً فاتكاً لا يزال يجني الجنايات، فيعقل عنه أبوه وقومه حتّى أبغضه عشيرته ونفاه أبوه، وحلف أن لا يؤويه أبداً.

فخرج في شعاب مكة حائراً ثائراً يتمنّى الموت أن ينزل به، فرأى شقّاً في جبل فظنّ أنّ فيه حيّة، فتعرّض للشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم ير شيئاً، فدخل فيه فإذا فيه ثعبان عظيم له عينان تتقدان كالسراجين، فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب عنه مستديراً بدارة عند بيت، ثمّ خطا خطوة أُخرى فصفر به الثعبان، فأقبل إليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه.

فوقف ينظر إليه يفكّر في أمره فوقع في نفسه أنّه مصنوع، فأمسكه بيديه فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت، فإذا جثث طوال على سرر لم ير مثلهم طولا وعظماً، وعند رؤوسهم لوح من فضّة فيه تاريخهم، وإذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتاً ـ الحرث بن مضاض ـ صاحب العذبة الطويلة ـ

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ١١٥ باب ٣١.

وإذا عليهم ثياب من وشي لا يمسّ منها شيء إلاّ انتثر كالهباء من طول الزمان، مكتوب في اللوح عظات.

وكان اللوح من رخام، وكان فيه: أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن نبيّ الله هود عليه السلام، عشت من العمر خمسمائة عام، وقطعت غور الأرض ظاهرها وباطنها في طلب الثروة والمجد والملك، فلم يكن ذلك ينجيني من الموت، وتحته مكتوب:

| | |
|---|---|
| قد قطعت البلاد في طلب | الثروة والمجد قالص الأثواب |
| وسريت البلاد قفراً لقفر | بقناة وقوّة واكتساب |
| فأصاب الردى بنات فؤادي | بسهام من المنايا صياب |
| فانقضت مدّتي وأقصر جهلي | واستراحت عواذلي من عتابي |
| ودفعت السفاه بالحلم لما | نزل الشيب في محلّ الشباب |
| صاح هل رأيت أو سمعت براع | ردّ في الضرع ما قرى في الحلاب |

وإذا في وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضّة والزبرجد، فأخذ منه ثمّ علّم على الشقّ بعلامة وأغلق بابه بالحجارة، وأرسل إلى أبيه بالمال الذي خرج به يسترضيه ويستعطفه، ووصل عشيرته كلّهم، فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف، وكانت له جفنة يأكل منها الراكب وهو على البعير لعظمها، وسقط فيها صبي فغرق ومات.

وفي الرواية عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إنّ أرزاقكم تطلبكم كما تطلبكم آجالكم، فلن تفوتوا الأرزاق كما لم تفوتوا الآجال».

## الرزق الذي تطلبه:

وأمّا الرزق الذي يطلبه الإنسان ويسعى إليه، فهو كثير جدّاً لايُحصى.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ روح القدس نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها فأجملوا في الطلب»(١).

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الدنيا دول فاطلب حظّك منها بأجمل الطلب»(٢).

وسأل الصادق عليه السلام عن بعض أصحابه، فقيل له: أقبل على العبادة وترك التجارة، فقال: «ويحه أما علم أنّ تارك الطلب لا تُستجاب له دعوة، إنّ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله فأرسل إليهم فقال: ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول الله تكفّل الله لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، فقال صلى الله عليه وآله: انّه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»(٣).

وعنه عليه السلام قال: «إنّي لأركب في الحاجة التي كفانيها الله، ما

---

(١) الكافي ٢ : ٧٤ ح٢؛ عنه البحار ٧٠ : ٩٦ ح٣؛ والمحجة البيضاء ٦ : ٥١.

(٢) البحار ٧٣ : ٨١ ح٤٣.

(٣) الكافي ٥ : ٨٤ ح٥؛ عنه البحار ٢٢ : ١٣١ ح١١١.

أركب فيها إلاّ لالتماس أن يراني الله أضحي في طلب الحلال، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة : ١٠] أرأيت لو أنّ رجلا دخل بيتاً وطيّن عليه بابه، وقال رزقي ينزل عليّ أكان يكون هذا»[١].

ويمكن الجمع من هذه الأخبار أن يجعل الرزق على قسمين: أحدهما ما ليس للطلب والسعي فيه مدخليّة، والثاني ما لا يُنال إلاّ بالطلب، فتحمل الأخبار منها على القسم الأوّل، والأدلّة الأخيرة على القسم الثاني.

ويشهد على هذا الجمع قول الصادق عليه السلام: «الرزق مقسوم على ضربين؛ أحدهما واصل إلى صاحبه وإن لم يطلبه، والآخر معلّق بطلبه، فالذي قسم للعبد على كلّ حال آتيه وإن لم يسع له، والذي قسم له بالسعي فينبغي أن يلتمسه من وجوهه وهو ما أحلّه الله دون غيره، فإن طلبه من جهة الحرام فوجده حسب عليه برزقه وحوسب به»[٢].

### الكسب من الحرام:

وأكثر الناس حرموا عن السعادة من أجل الكسب في المحرّمات، ومنعوا عن توفيق الوصول إلى الله بسببه.

---

(١) البحار ٨٩ : ١٢٩.

(٢) الوسائل ١٢ : ٢٩ ح٩.

ومن تأمّل يعلم أنّ أكل الحرام أعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار، وأقوى الموانع له عن الوصول إلى عالم الأنوار، وهو الموجب لظلمة القلب وكدرته، والباعث لخبثه وغفلته، والعلّة العظمى لخسران النفس وهلاكها، وهو السبب الأقوى لضلالتها وخباثتها.

هو الذي أنساها عهود الحمى، وهو الذي أهواها في مهاوي الضلالة والردى، وما للقلب المتكوّن من الحرام والاستعداد لفيوضات عالم القدس، وأنّى للنطفة الحاصلة منه والوصول إلى مراتب الأُنس، كيف يدخل النور والضياء في قلب أظلمته أدخنة المحرّمات، وكيف تحصل الطهارة والصفاء لنفس أخبثتها قذارة المشتبهات، ولأمر ما أصبحت أصحاب الشرع، وأُمناء الوحي محذرين عنه غاية التحذير، وزاجرين منه أشدّ الزجر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ لله ملكاً على بيت المقدس، ينادي كلّ ليلة: من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل»[1] ـ أي نافلة ولا فريضة ـ .

وقال صلى الله عليه وآله: «من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار»[2].

وقال صلى الله عليه وآله: «كلّ لحم ينبت من حرام فالنار أولى به»[3].

---

(١) البحار ١٠٣ : ١٦ ح٧٢.

(٢) عدّة الداعي : ٨٢؛ عنه البحار ١٠٣ : ١٣ ح٦٣.

(٣) البحار ٦٦ : ٣١٤ ح٧.

وقال صلى الله عليه وآله: «من أصاب مالا من مأثم، فوصل به رحماً، أو تصدّق به، أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جمعاً ثمّ أدخله في النار»[1].

وقال صلى الله عليه وآله: «إنّ أخوف ما أخاف على أُمّتي من بعدي هذه المكاسب الحرام، والشهوة الخفيفة، والزنا»[2].

وقال: «من اكتسب مالا من الحرام فإن تصدّق به لم يقبل منه، وإن تركه كان زاده إلى النار»[3]. وقال صلى الله عليه وآله: «إذا كسب الرجل مالا من غير حلّه ثمّ حجّ فلبّى، نودي لا لبّيك ولا سعديك، وإن كان من حلّه نودي لبّيك وسعديك»[4].

وقال صلى الله عليه وآله: «كسب الحرام يبين في الذرية»[5].

وفي بعض الأخبار إنّ العبد يوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن ماله من أين كسبه، وفيما أنفقه، وعن رعاية عياله والقيام بحقّهنّ، حتّى تفني تلك المطالبات تمام أعماله، فلا يبقى له حسنة، فتنادي الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، وارتهن اليوم بأعماله.

وورد أنّ أهل الرجل وأولاده يتعلّقون به يوم القيامة، فيوقفونه

---

(١) كنز العمال ٤ : ١٥ ح٩٢٦٥.

(٢) البحار ٧٣ : ١٥٨ ح٣.

(٣) مستدرك الوسائل ١٣ : ٦٨ ح١٤٧٧٠.

(٤) الوسائل ١٢ : ٥٩ ح٣.

(٥) الوسائل ١٢ : ٥٣ ح٣.

بين يدي الله تعالى، ويقولون: يا ربّنا خُذْ لنا بحقّنا منه فإنّه ما علّمنا ما نجهل، وكان يطعمنا من الحرام ونحن لا نعلم، فيقتصّ لهم منه.

فعليه ينبغي لطالب النجاة أن يفرّ من الحرام فراره من الأسد، ويحترز منه احترازه من الحيّة السوداء بل أشدّ، وأنّى يمكنه ذلك في أمثال زماننا ونحن في سنة ١٣٧٨ من الهجرة الذي لم يبق فيه من الحلال إلاّ الماء والكلاء النابت في أرض الموات، وما عداه قد أخبثته الأيدي العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة، ما من درهم إلاّ وقد غصب من أهله مرّة بعد أولى، وما من دينار إلاّ وقد خرج من أيدي من أخذها قهراً كرّة غب أولى.

وصفوة القول: الحلال يمكن أن نقول إنّه في زماننا مفقود، والسبيل دون الوصول إليه مسدود، ولعمري أنّ فقده آفة عمّ في الدين ضررها، ونار استطار في الخلق شررها، والظاهر انّ أكثر الأعصار كان حالها كذلك، ولذلك قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «المؤمن يأكل في الدنيا بمنزلة المضطرّ»[1].

وقال رجل للكاظم عليه السلام: أُدع الله عزّ وجلّ أن يرزقني الحلال، فقال عليه السلام: أتدري ما الحلال؟ قال: الكسب الطيّب، فقال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: الحلال قوت المصطفين، ولكن قل: اللّهمّ إنّي أسألك من رزقك الواسع ...[2].

---

(١) الوسائل ١٢ : ٥٣ ح٤.

(٢) الوسائل ٤ : ١١٥٨ ح٢.

## لابدّ من الاحتياط في الكسب:

ومع ذلك كلّه لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من تحصيل الحلال، ويترك الفرق والفصل بين الأموال، فإنّ الله سبحانه أجل وأعظم من أن يكلّف عباده بأكل الحلال، ويسدّ عنهم طرق تحصيله.

إنّ الأموال على أقسام ثلاثة: حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بينهما ولكلّ منها درجات، فإنّ الحرام وإن كان كلّه خبيثاً إلاّ أنّ بعضه أخبث من بعض، فإنّ ما يأخذ بالمعاملة الفاسدة مع التراضي ليس في الحرمة كمال اليتيم الذي يؤخذ قهراً، وكذا الحلال وإن كان كلّه طيّباً إلاّ أنّ بعضه أطيب من بعض، والشبهة كلّها مكروهة، ولكن بعضها أشدّ كراهةً من بعض.

وكما أنّ الطبيب يحكم على كلّ حلو بالحرارة، ولكن بعضه حار في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية، وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة، فكذلك الحرام بعضه خبيث فى الدرجة الأُولى، وبعضه في الثانية، وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة، وكذلك درجات الحلال في الصفاء والطيب، ودرجات الشبهة في الكراهة.

ثمّ الحرام إمّا يحرم بعينه كالكلب والخنزير والتراب وغيرها من المحرّمات العينية، أو لصفة حادثة فيه كالخمر لاسكاره، والطعام لسميته، أو لخلل في جهة إثبات اليد عليه، وله أقسام غير محصورة كالمأخوذ بالظلم والقهر، والغصب والسرقة، والخيانة في الأمانة وغيرها، والغش،

والتلبيس، والرشوة، وبالبخس في الوزن والكيل، وبأخذ المعاملات الفاسدة من الربا والصرف والاحتكار، وغير ذلك ممّا هو مذكور في كتب الفقه.

وقد نهى الله سبحانه عن جميع ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ﴾ [البقرة : ١٨٨].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ [النساء: ١٠].

مهما يكن الأمر ينبغي للإنسان أن يجعل رزقه من الطيب الذي أحلّه الله تعالى له.

قال رسول الله ﷺ في حجّة الوداع: «ألا أنّ الروح الأمين نفث في روعي، أن لا تموت نفس حتّى تستكمل رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب، وما يحملنّكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإنّ الله تعالى قسم بين خلقه حلالا ولم يقسّمها حراماً، فمن اتّقى الله وصبر أتاه رزقه من حلّه، ومن هتك حجاب ستر الله وأخذه من غير حلّه قصّ به من رزقه الحلال، وحوسب عليه يوم القيامة»(١).

جاء في المستطرف أنّه دخل عليّ بن أبي طالب عليه السلام المسجد، فقال لرجل: امسك على بغلتي، فأخذ الرجل لجامها ومضى وتركها،

---

(١) التمحيص : ٥٢ ح١٠٠؛ عنه البحار ١٠٣ : ٣٥ ح٦٨.

فخرج علي وفي يده درهمان ليكافي بهما الرجل على مسك البغلة، فوجدها بغير لجام فركبها ومضى، ودفع لغلامه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال عليه السلام: إنّ العبد ليحرم على نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قدّر له[1].

## الرزق بمقدار النفقة:

ورزق الإنسان من حيث القلّة والكثرة على قدر ما ينفقه، إن كثّر كثر عليه، وإن قلّل قلّل عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ مفاتيح الرزق بازاء العرش، ينزل الله للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل له»[2].

روى أبوحيّان، قال: رفع الواقدي إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلبة الدين عليه وكثرة العيال وقلّة الصبر، فوقّع المأمون عليها: أنت رجل فيك خلّتان: السخاء والحياء، فأمّا السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأمّا الحياء فهو الذي بلغ بك إلى ما ذكرت، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم، فإن كنّا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك، وإن كنّا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك.

وأنت كنت حدّثتني وأنت على قضاء الرشيد، عن محمّد بن

---

(١) المستطرف ١ : ١٥٨ في القناعة والرضا بما قسّم الله تعالى.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ١١٤ باب ٣١.

إسحاق، عن الزهري، عن أنس بن مالك، انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال للزبير: يا زبير إنّ مفاتيح الرزق بازاء العرش ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل له.

**فلسفة الإقتار في الرزق:**

ومن ناحية أُخرى انّ الله سبحانه وتعالى يبتلي أنبياءه وأولياءه وعباده الصالحين بتقتير الرزق لوجوه من الحكمة، وضروب من المصلحة، اقتضت لعنايته سبحانه بهم، كما دلّ عليه صحيح الخبر ومستفيض الأثر.

منها: اكرامهم وصيانتهم عن الاشتغال بالدنيا وقيناتها، والتنعّم بطيباتها لما تقرّر من أنّ الدنيا والآخرة ضرتان بقدر ما يقرب من احداهما يبعد من الأُخرى.

والأنبياء والأولياء ومن سلك سبيلهم، وإن كانوا أكمل الخلق نفوساً وأقواهم استعداداً لقبول الكمالات النفسانية، إلاّ أنّهم محتاجون إلى الرياضات التامّة بالاعراض عن الدنيا وطيباتها، وهو الزهد الحقيقي والى تطويع نفوسهم الأمارة لنفوسهم المطمئنّة بالعبادة التامّة، كما هو المشهور من أحوالهم صلوات الله عليهم أجمعين، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يربط على بطنه حجراً من الجوع، وكان يسمّيه بالشبع، والى ذلك أشار من قال:

وشدّ من سغب أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحاً مئزر الأدم

ومن كلام أميرالمؤمنين عليه السلام: «وأيم الله يميناً استثني فيها بمشية الله، لأُروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً»(١).

وليس ذلك منهم عليهم السلام إلاّ زهداً في الدنيا، وإعراضاً عن متاعها وزينتها، لما كان ذلك شرطاً في بلوغهم درجات النبوّة والرسالة، ومراتب الوحي والولاية، فلو فتحت لهم أبواب الدنيا واشتغلوا بنعيمها، وانغمسوا في لذّاتها لانقطعوا عن حضرة جلال الله، وبعدوا عن ساحة القرب منه والوصول إليه.

ومنها: اعظام مثوبهاتهم على الصبر والقناعة، وظلف أنفسهم عن النزوع إلى الدنيا وشهواتها، لأنّه كلّما كانت المحنة أعظم كانت المثوبة عليها أجزل.

ومنها: ابتلاء المتكبّرين وأرباب الدنيا بهم، إذ لو وسّع الله عليهم أرزاقهم فاتّسعوا في القينات الدنيويّة من الكنوز والقناطير المقنطرة، من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة، والأنعام والحرث، لكانت طاعة الناس لهم أسرع، والانحياش إليهم أقرب.

كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته القاصعة: «فإنّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه عليهما السلام على فرعون

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥؛ عنه البحار ٤٠ : ٣٤٢ ح٢٧.

وعليهما مدارع الصوف وبأيديهم العصا، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العزّ وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ، فهلاّ ألقينا عليهما أساور من ذهب، اعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان[١]، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء»[٢].

ومنها: ابتلاؤهم بالمتكبّرين والمكذّبين، لأنّهم لو كانوا على الحالة الموصوفة من الاتّساع في الدنيا لسقط بلاؤهم بالصبر على أذى المسكنة من المكذّبين لهم والمستخفّين بشأنهم، كما قال أهل مدين لشعيب عليه السلام: ﴿يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١].

ومنها: تأسّي المسلمين واقتداء المؤمنين بهم عليهم السلام في العزوف عن الدنيا، والاعراض عن زخرفها وزبرجها، إذ كانوا هم القدوة للخلق ومحلّ الأسوة لهم، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله كاف لك في الأُسوة، ودليل على ذمّ الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها،

---

(١) العِقيان: نوع من الذهب ينمو في معدنه.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٢؛ عنه البحار ١١ : ١٤١ ح٩١.

ووطئت لغيره أكنافها، وفطم من رضاعها، وزوي عن زخارفها، وإن شئت ثنّيت بموسى كليم الله عليه السلام حيث يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص : ٢٤] ووالله ما سأله إلاّ خبزاً ليأكله، لأنّه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله، وتشذّب لحمه.

وإن شئت ثلّثت بداود عليه السلام صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنّة، ولقد كان يعمل صفائف الخوص ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعها، ويأكل قرص الشعير من ثمنها، وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام، ولقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان أدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وصلاؤه في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانته ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه، دابّته رجلاه، وخادمه يداه.

فتأسّ بنبيّك الأطهر صلى الله عليه وآله فإنّ فيه أُسوة حسنة لمن تأسّى، وعزّاً لمن تعزّى، وأحبّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيّه والمقتصّ لأثره، ـ إلى أن قال عليه السلام: ـ ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ما يدلّك على مساوي الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصّته، وزويت عنه بزخارفها مع عظيم زلفته، فلينظر ناظر بعقله، أكرم الله محمّداً صلى الله عليه وآله بذلك أم أهانه، فإن قال أهانه فقد كذب والله العظيم، وإن قال أكرمه فليعلم أنّ الله سبحانه قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس لله.

فتأسّى متأسّ بنبيّه ﷺ، أو اقتفى أثره وولج مولجه، وإلاّ فلا يأمن الهلكة فإنّ الله جعل محمّداً ﷺ علماً للساعة، ومبشّراً بالجنّة، ونذيراً بالعقوبة، وخرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر حتّى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّة الله علينا حين أنعم علينا به سلفاً نتّبعه، وقائداً نطأ عقبه، والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك، فقلت: أعزب عنّي فعند الصباح يحمد القوم السرى[(١)].

ومنها: ايثاره سبحانه لهم بالحضور في حضرته المقدّسة بالدعاء والابتهال، والتضرّع والسؤال، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله يبتلي العبد وهو يحبّه ليسمع تضرّعه»[(٢)].

وفي ذلك كان يقول بعض أرباب القلوب: «الدعاء يوجب الحضور، والعطاء يوجب الصرف، والمقام على الباب أشرف من الانصراف بالمبار»، وعلى هذا ما روي عن النبي ﷺ من طريق العامّة والخاصة، إنّه قال: «عرض عليّ ربّي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا ربّ ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[(٣)].

***

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٦٠؛ عنه البحار ١٦ : ٢٨٤ ح١٣٦.

(٢) ارشاد القلوب : ١٤٨.

(٣) البحار ١٦ : ٢٧٩ ح١١٨.

## الفقر والغنى:

قوله عليه السلام: «مَا أَقْبَحَ الْـخُضُوعَ عِنْدَ الْـحَاجَةِ، وَالْـجَفَاءَ عِنْدَ الْـغِنَى!».

وإنّ للإنسان لكرامة ما أجملها لو أعطى حقّها من العناية والاهتمام، وما أعزّ الإنسان لو كفّ عن السؤال، وما أحبّه إلى النفوس، وأعظمه في الأبصار لو غني وأثرى وهو باق على مراعاته حرمات الله، وهو لم يتغيّر عمّا كان عليه أوّلاً من تواضع ولين.

ونحن نستطيع أن نرى من كلام سيّدنا الإمام أشياء كثيرة، فالفقير غني إذا عفّ عن السؤال، والغنيّ فقير إذا ألحف في الطلب، وهو في غنى عمّا يطلب، الفقير عزيز إذا لم يمدّ يده إلى من يحسن إليه، وهو ذليل إذا شره وطمع بما في أيدي الناس.

فعلى الإنسان أن يكون مثلا رائعاً للإنسانية في فقره وغناه، فإن كان فقيراً فلا يخضع لأحد، وإن كان غنيّاً فلا يجفوا أحداً ممّن كانت تجمعه وإيّاه الصلات والأسباب.

ولقد اجتمع علي أمير المؤمنين عليه السلام مع الخضر عليه السلام، فقال له علي: عظني، فقال الخضر: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء شكراً لله، فقال علي: وأحسن من ذلك تعزّز الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله[1].

(١) البحار ٣٩ : ١٣٢ ضمن حديث ٤.

قال بعض الصحابة: ملعون من أكرم بالغني وأهان بالفقير.

وقال لقمان لابنه: لا تحقرنّ أحداً بخلقان ثيابه، فإنّ ربّك وربّه واحد[1].

## فضيلة الفقر:

لا شكّ أنّ الفقر بشروطه ـ أعني الرضا أو القناعة أو الصبر أو الصدق ـ أفضل من الغنى، وممّا يدلّ على فضيلته قول الرسول صلى الله عليه وآله: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، فإن لم تفعلوا فلا ثواب لكم»[2].

وقال صلى الله عليه وآله: «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً»[3].

وقال صلى الله عليه وآله: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: من هم يا رب؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعين بعطائي، الراضين بقدري، أُدخلوهم الجنّة، فيدخلونها ويأكلون ويشربون، والناس في الحساب يتردّدون»[4].

## أيّهما أفضل الفقر أم الغنى:

لا ريب في أنّ الفقر مع الصبر والقناعة وقصد الفراغ أفضل من

---

(١) البحار ٧٢ : ٤٦ ضمن حديث ٥٧.

(٢) الكافي ٢ : ٢٦٣ ح١٤؛ عنه البحار ٧٢ : ١٧ ح١٦؛ والمحجة البيضاء ٧ : ٣٢٥.

(٣) المحجة البيضاء ٧ : ٣٢٥.

(٤) المحجة البيضاء ٧ : ٣٢٥.

الغنى مع الحرص والامساك، كما لا ريب في أنّ الغنى مع الانفاق وصدق الاستعانة على العبادة أفضل من الفقر مع الحرص والجزع، وإنّما وقع الشكّ في الترجيح بين الفقر والغنى في مواضع:

## الأوّل: الفقر مع الصبر والقناعة:

في الترجيح بين الفقر مع الصبر والقناعة، والغنى مع الانفاق وقصد الاستعانة على العبادة، فقال قوم: إنّ الأوّل أفضل لما روي أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أيّ الناس خير؟ فقالوا: مؤسر من المال يعطي حقّ الله تعالى من نفسه وماله، فقال ﷺ: نعم الرجل هذا وليس به المراد، قالوا: فمن خير الناس يا رسول الله؟ فقال: فقير يعطي جهده».

وما روي أنّ الفقراء بعثوا رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّي رسول الفقراء إليك، فقال ﷺ: مرحباً بك وبمن جئت من عندهم، جئت من عند قوم أحبّهم، فقال: قالوا: إنّ الأغنياء ذهبوا بالجنّة، يحجّون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم.

فقال النبي ﷺ: بلّغ عنّي الفقراء أنّ لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء، أما خصلة واحدة: فإنّ في الجنّة غرفاً ينظر إليها أهل الجنّة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلاّ نبيّ فقير، أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، الثانية: يدخل الفقراء الجنّة قبل

الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، والثالثة: إذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير وإن أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البرّ كلّها، فرجع إليهم، فقالوا: رضينا[١].

وقال آخرون: الثاني أفضل لأنّ الغنى من صفات الربوبية، والفقر من لوازم العبودية، ووصف الحقّ أفضل من وصف العبد.

وأُجيب عنه بأنّ غنى الواجب سبحانه ليس بالأسباب والأعراض، وغنى العبد بهما، إذ هو غني بوجود المال ومفتقر إلى بقائه، فأنّى يكون الغنى الذي يتّصف العبد به من أوصاف الربوبيّة، نعم الغنا بمعنى الاستغناء من وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوي كلاهما عنده يشبه أوصاف الحقّ، إلاّ أنّك قد عرفت أنّه نوع من الفقر، وبأنّ التكبّر من أوصاف الربوبية، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، مع أنّ الأمر ليس كذلك، بل الحقّ أنّ الأفضل للعبد صفات العبودية كالخوف والرجاء، إذ صفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال الله سبحانه: «العظمة ازاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته»[٢]، وعلى هذا فالفقر أفضل من الغنى.

والحقّ أنّ ترجيح واحد من صفات الربوبيّة وصفات العبوديّة على الآخر للعبد على الاطلاق غير صحيح، إذ كما ينتقض ترجيح

---

(١) البحار ٧٢ : ٤٨ ح٥٨.

(٢) راجع البحار ٧٣ : ١٩٥.

الأولى على الثانية بالتكبّر ينتقض العكس بالعلم والمعرفة، والجهل والغفلة، فإنّ العلم من صفات الربوبية، والجهل من صفات العبودية مع أنّ الأوّل أفضل من الثاني ضرورة.

والحقّ أنّ الأفضل من الفقر والغنى ما لا يشغل العبد عن الله، فإن كان الفقر يشغله فالغنى أولى به، وإن كان الغنى يشغله عن الله فالفقر أولى به، وذلك لأنّ الغنى ليس محذوراً بعينه، بل لكونه عائقاًعن الوصول إلى الله، والفقر ليس مطلوباً لذاته، بل لعدم كونه عائقاً عن الله.

وليس مانعيّة الأوّل وعدم مانعيّة الثاني كلياً، إذ رُبَّ فقير يشغله الفقر عن المقصد، وكم من غني لا يصرفه الغنى عنه، إذ الشاغل ليس إلاّ حبّ الدنيا لمضادته حبّ الله تعالى، والمحبّ للشيء مشغول به سواء كان في وصاله أو في فراقه، فاذن فضل الفقير والغني بحسب تعلّق قلبهما بالمال وجوداً وعدماً، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما، وإن تفاوتا فيه فأيّهما أقلّ تعلّقاً درجته أعلى وأفضل، بل مع وجود تعلّق لهما وتساويهما فيه يكون وجود قدر الحاجة من المال أفضل من فقده، إذ الجايع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة والطاعة، ومع عدم تعلّق قلبهما أصلا بحيث يستوي عندهما وجود المال وعدمه، وكان المال عندهما كهواء الجوّ ومدّ البحر.

وبالجملة إذا حصلت لهما المرتبة الأخيرة من الفقر ـ أعني الاستغناء والرضا ـ كان الواجد أفضل من الفاقد لاستوائهما في عدم

الالتفات إليه، ومزية الواجد باستفادة أدعية الفقراء والمساكين.

ثمّ الحكم بانقطاع القلب رأساً عن المال وجوداً وعدماً إنّما يتصوّر في الشاذّ النادر الذي لا يسمح الدهر بمثله إلاّ بعد أزمنة متطاولة، وقلوب جلّ الناس غير خالية عن حبّ المال والتعلّق به، فتفصيل القول بأفضليّة من هو أقلّ تعلّقاً بالمال، واستواء درجتهما مع استوائهما في التعلّق، ومزيّة الواجد على الفاقد مع انقطاع قلبهما بالكلية عنه، مزلّة الأقدام وموضع الغرور.

إذ الغني ربّما يظنّ أنّه منقطع القلب عن المال، ويكون حبّه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به إلاّ إذا فقده، فما عدا الأنبياء والأولياء وشرذمة قليلة من أكابر الأتقياء، لو ظنّوا انقطاعهم عن الدنيا إذا جرّبوا أنفسهم باخراج المال من أيديهم، يظهر لهم أنّهم مغرورون، وليس لهم تمام الانقطاع عن الدنيا.

وإذا كان ذلك محالا أو بعيداً، فليطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافة الناس وأفضل، لأنّه عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء من فتنة الضراء أشدّ، وعلاقة الفقر وأُنسه بالدنيا غالباً أضعف، وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب أذكاره وعباداته، إذ حركات اللسان والجوارح ليست مرادة لأعيانها، بل ليتأكّد بها الأُنس بالمذكور، وتأثيرها في إثارة الأُنس في قلب فارغ عن غير المذكور أشدّ من تأثيرها في قلب مشغول، ولهذا وردت الأخبار مطلقة في فضل الفقر على الغنى، وفي فضل الفقراء على الأغنياء.

**الثاني: الفقر مع الجزع:**

في الترجيح بين الفقر مع الحرص والجزع، والغنى مع الحرص والامساك، والتحقيق فيه: أنّ مطلوب الفقير إن كان ما لابدّ منه في المعيشة، وكان حرصه في تحصيل هذا القدر دون الزائد منه، وكان قصده الاستعانة به على الدين، وكذا حرص الغني وامساكه في هذا القدر بهذا القصد فحال الوجود أفضل، لأنّ الفقد يصدّه عن أُمور الدين لاضطراره في طلب القوت، وهو أولى بالتفضيل إذا كان قصد الغني ذلك، وكان مطلوب الفقير فوق الحاجة أو قدر الحاجة بدون قصد الاستعانة به إلى أمر الدين.

وإن كان مطلوب كلّ منها فوق الحاجة، أو لم يكن قصدها الاستعانة به على أمر الدين، فالفقد أصلح وأفضل لأنّهما استويا في الحرص وحبّ المال، وفي عدم قصد الاستعانة به على الدين، لكنّهما افترقا في أنّ الواجد يتأكّد حبّ الدنيا في قلبه، ويطمئنّ إليها لأُنسه بها، والفاقد يتجافى قلبه عنها اضطراراً، وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يطلب الخلاص منه، وهو أولى وأحرى بالتفضيل إذا كان قصد الفقير ذلك، وكان قصد الغني فوق الحاجة أو قدر الحاجة بدون الاستعانة به على أمر الدين.

**الثالث: الفقر مع التكالب على الدنيا:**

في الترجيح بين فقير حريص متكالب على الدنيا ليس له همّ

سواه، وغني هو دونه في الحرص على حفظ المال، وتفجّعه بفقد المال لو فقده أقلّ من تفجّع الفقير بفقده، والظاهر حينئذ كون الفقير أسوء حالا، إذ البعد عن الله بقدر قوّة التفجّع بفقد المال، والقرب بقدر ضعف التفجّع به.

### ماذا يجب على الفقير:

وينبغي للفقير أن لا يكون كارهاً للفقر من حيث أنّه فعل الله، ومن حيث أنّه فقر، بل يكون راضياً به طالباً له فرحاناً به، لعلمه بغوائل الغنى. وأن يكون متوكّلا في باطنه على الله، واثقاً به في اتيان قدر ضرورته، ويكون قانعاً به كارهاً للزيادة عليه، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، وغير حريص على اكتساب المال كيف كان، وأن يكون صابراً شاكراً على فقره.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ لله عقوبات بالفقر فمن علامته إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه، ويطيع به ربّه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله على فقره، ومن علامته إذا كان عقوبة أن يسيء عليه خلقه، ويعصي به ربّه، ويكثر الشكاية، ويسخط بالقضاء»[1].

وهذا يدلّ على أنّ كلّ فقير ليس مثاباً على فقره بل يرضى بفقره ويفرج به ويقنع بالكفاف ويقصر الأمل، وإن لم يرض به، وتشرّف به إلى الكثرة وطول الأمل، وفاته عزّ القناعة، وتدنّس بذلّ الحرص والطمع،

---

(١) المحجة البيضاء ٧ : ٣٣١.

وجرّه الحرص والطمع إلى مساوي الأخلاق وارتكاب النكرات الخارقة للمروات، حبط أجره وكان آثماً قلبه.

وينبغي أن يظهر التعفّف ويستر الفقر، وأن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم، ولا يتواضع لهم لأجل غناهم، بل يتكبّر عليهم، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله»[١].

وأن لا يسكت عن ذكر الحقّ مداهنةً للأغنياء وطمعاً لما في أيديهم، ولا يفتر بسبب فقره عن عبادة الله، ويبذل قليل ما يفضل عنه، فإنّ ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة يبذلها الغني.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف دينار، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف دينار يتصدّق بها، وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب مائة ألف دينار»[٢].

وينبغي أن لا يدّخر أزيد من قدر الحاجة، فإن لم يدّخر أكثر من قوت يومه وليلته فهو من الصديقين، وإن لم يدّخر أكثر من قوت أربعين يوماً كان من المتّقين، وإن لم يدّخر أكثر من قوت سنة وهو الفصل

---

(١) البحار ٧٥ : ١٢٣ ح٢١، والمحجة البيضاء ٧ : ٣٣١.

(٢) المحجة البيضاء ٧ : ٣٣١.

المشترك بين الفقر والغنى كان من الصالحين، ولو زاد عليه خرج عن زمرة الفقراء، وأفضل من هذا كلّه الصبر على الفقر والقناعة بما قسم الله.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «طوبى للمساكين بالصبر، وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض»(١).

ويقول صلى الله عليه وآله: «من جاع أو احتاج فكتمه عن الناس وأفشا إلى الله تعالى، كان حقّاً على الله أن يرزقه رزقاً من الحلال»(٢).

ويقول صلى الله عليه وآله: «إنّ لكلّ شيء مفتاحاً، ومفتاح الجنّة حبّ المساكين والفقراء لصبرهم، هم جلساء الله يوم القيامة»(٣).

وروي أنّ الله تعالى أوحى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون(٤).

ومن دعاء زين العابدين عليّ بن الحسين ـ صلوات الله عليه ـ وهو من أدعية الصحيفة: «اللّهمّ حبّب إليّ صحبة الفقراء، وأعنّي على صحبتهم بحسن الصبر».

لّما كانت النفوس البشرية مجبولة على بغض الفقر وكراهيّته، نافرة

---

(١) الكافي ٢ : ٢٦٣ ح١٣؛ عنه البحار ٧٢ : ١٥ ح١٥.
(٢) جامع الأخبار : ٣٠٢ ح٨٢٤؛ عنه البحار ٧٢ : ٤٩ ح٥٨.
(٣) المحجة البيضاء ٧ : ٣٢٥.
(٤) المحجة البيضاء ٧ : ٣٢٥.

عن صحبة الفقراء ومعاشرتهم، سأل عليه السلام ربّه أن يحبّب إليه صحبتهم، بأن يجعلها ملائمة لقلبه ليكون مائلا إليها، إذ كانت المحبّة ميل القلب إلى ما يلائمه، وذلك لما في صحبتهم من رياضة النفس وتحليتها بالتواضع والتذلّل، والتأسّي بهم في القناعة باليسير من حطام الدنيا، والرضا بالقليل من متاعها، وصيانة النفس عن الانهماك في شهواتها ولذّاتها، وترك طلب المنزلة والجاه والكرامة فيها.

وقلّة الحرص على طلب الحاجات والأوطار منها، وترك الخلطة مع أبناء الدنيا الراغبين فيها، والتفرّد في الخلوات، وكثرة ذكر الموت، وفناء نعيم الدنيا وزوال ملكها، والنظر إلى آثار القرون الماضية، والاعتبار بها وبالمباني الخربة، والمنازل الدارسة، والمعالم العافية للأُمم الخالية، لنزولهم بها غالباً، واعتباراتهم تصاريف الزمان ونوائب الحدثان، واليقين بأمر المعاد، وشدّة الشوق إلى نعيم دار القرار مع الأبرار من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً.

ولذلك أمر الله سبحانه حبيبه المختار من خيار خلقه بصبر نفسه معهم، وحبسها على صحبتهم ومجالستهم، فقال في محكم كتابه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْـغَداةِ وَالْـعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْـحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطا﴾ [الكهف:٢٨].

قال المفسّرون: المراد بهم فقراء المؤمنين مثل عمّار، وخباب،

وسلمان، وأبي ذر، وغيرهم، وقيل: أصحاب الصفّة وكانوا نحو سبعمائة رجل، قيل: إنّه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نحّ هؤلاء الموالي الذين كان ريحهم ريح الضان حتّى نجالسك، كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] فنزلت الآية.

وروي عن سلمان، وخباب قالا: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن الحصن الفزاري، وعبّاس بن مرداس، وذووهم من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ جالساً مع ناس من ضعفاء المؤمنين، فلمّا رأوهم حوله حقّروهم، فأتوه فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس، ونفيت عنّا هؤلاء وأرياح جبابهم ـ وكانت عليهم جباب من صوف ـ جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك.

فقال ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين، قالوا: فإنّا نحبّ أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا فيه العرب فضلنا، فإنّ وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد ـ يعنون فقراء المسلمين ـ فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا بذلك كتاباً، فدعا ﷺ بالصحيفة وبعلي ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرئيل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام : ٥٢] إلى آخر الآية.

فرمى ﷺ بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده، وكنّا ندنو منه حتّى تمسّ ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنّا إذا أراد القيام، فنزلت: ﴿وَاصْبِرْ

﴿نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف : ٢٨] الآية، فترك القيام عنّا إلى أن نقوم عنه، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتّى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أُمّتي، معكم الحياة، ومعكم الممات(١).

وفي حديث ليلة المعراج: يا أحمد انّ المحبّة لله هي المحبّة للفقراء والتقرّب إليهم، قال: يا ربّ ومن الفقراء؟ قال: الذين رضوا بالقليل، وصبروا على الجوع، وشكروا على الرخاء، ولم يشكوا جوعهم ولا ظمأهم، ولم يكذبوا بألسنتهم، ولم يغضبوا على ربّهم، ولم يغتمّوا على ما فاتهم، ولم يفرحوا بما أتاهم(٢).

***

## النافع من الدنيا:

قوله عليه السلام: «إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً ...».

قد علم أنّ الإنسان مهما أنفق وأسرف في الإنفاق، ومهما أعطى وبذل فلن يعدو ذلك مقداراً معيّناً، ولن يتجاوز حدّاً محدوداً، فما باله يسعى ويغلو في السعي وراء المزيد من الرزق، وإنّ في ماله لما يضمن له السعادة والراحة والطمأنينة ما عمر من السنين.

---

(١) البحار ٢٢ : ٣٢.

(٢) البحار ٧٧ : ٢٣ ضمن حديث ٦.

أو ما علم بأنّه لو اكتفى بما لديه لأراح نفسه من عناء كثير، أولست ترى أنت في هذا الساعي وراء ما لم يقدر له ساعياً بلا أُجرة، وعاملا بلا نفع، أو ما علم بأنّ ما يجمعه الآن ممّا يفوق حاجته، ويفيض على مطالبه، سيبقى غداً ليهنأ به غيره ممّن لم يذق في سبيل جمعه عناءً كثيراً ولا قليلا.

وقد ترى البعض يأسى على ما فاته من رزق وقع في يده، فليس أساه هذا إلاّ عبثاً، وما أسفه إلاّ سفه وضلال، فلم الأسى والأسف، ولم هذا الجزع الذي نراه عند بعضهم، وإنّ رزقاً لم يكن يكتب له قد وقع في يده عفواً، أفما آن له أن يعرف بأنّ ما قدّر كان، فإن كان له بلغه حيثما أقام، وإلاّ فما يصرف من جهد وما يبذل من جهود، ليس إلاّ سبب في إبعاد ما ليس له وإقصائه عنه، ولم هذا الجزع وأحرى به أن يجزع على ما لم يصل إليه، أوليس جديراً به أن يجزع على ما لم ينل من نعيم الدنيا، وعلى ما لم يصب من ملذّاتها.

### القريب والبعيد:

«وربّ قريب أبعد من بعيد، وربّ بعيد أقرب من قريب»، فأنت إذا غبت عن صديق لك وفيّ، لا يخلفك ولا يضمر لك شرّاً، وإنّما يخلصك الأُخوّة ويمنحك النصيحة، إنّك إن فارقته كنت أقرب إليه من قريبه الذي بينه وبينه عداء بغيض، فالقلوب متآلفة، والأرواح متناغمة منسجمة، وهل رأيت أحداً أقرب إلى الدار من الميت المقبور فيها، ولكنّه مع ذلك بعيد عنها البعد كلّه، فهو في عالم آخر ليس بينه وبين عالمنا هذا

شبه من قريب أو بعيد.

وإذا أردت أن تسمع حقّاً فاسمع لي، ليس الغريب من بعدت به الأرض عن أهله وذويه، وليس الغريب من اشتطّت به نوىً بعيدة، وإنّما الغريب من بَعُدَ عن حبيب، أو فقد حبيباً وإن كان ذا مال وافر وأقرباء كثيرين.

## أقوى الأسباب:

واعلم أنّه لابدّ لكلّ إنسان من سبب يتمسّك به، وإنّ من الأسباب لما هو ضعيف نحيل لا يكاد يستمسك بالذي يتشبّث به، ومنها ما هو قوي كلّ القوّة، وإنّ أوثق سبب يمكن التمسّك به هو السبب الذي يربط بينك وبين الله، وإنّ أوثق قرابة يمكنك الظفر بها هي القرابة والصلة التي تحدثها بينك وبين الله.

## الصديق الحقيقي:

وإنّما محبّك وصديقك من حفل بك وعنى بأمرك، أمّا إن لم يكن من ذلك في شيء فهو عدوّ بغيض، فمن أصبح ولم يكن من أمر المسلمين في شيء فليس منهم.

وإن كنت والياً فارفق برعيّتك، ولاينهم باللطف والعدل وسامحهم، وألزم جانب العفو في أكثر الأحيان، فأنت تطلب من الله دائماً أن يعفو عنك، فكن للناس كما تريد من الله أن يكون لك.

## اليأس والطمع:

ايئس وابتئس وأنت في ضيق وعوز وحاجة، فإنّ ذلك لخير لك من أن تطمع؛ لأنّ الطمع مهلكة للإنسان، والطمع والجشع مطيّة من مطايا الموت، وأمّا اليأس والفقر فهو حياة ليس فيها احتمال هلاك أو موت، إن كان في الطمع هلاك وموت فليكوننّ في اليأس والحرمان إدراكاً وظفراً، وأي عقل لا يرجح الظفر والادراك على الهلاك والموت.

وليس كلّ بصير مصيب، فقد يصيب وقد تزلّ به القدم فيخطئ، وليس كلّ أعمى مخطئ فقد يصيب وقد لا يصيب، وإن أردت أن تستفيد مثل ما تستفيده من العاقل الذي تصاحبه، فاقطع الجاهل قطيعة لا رجعة لك بعدها أبداً، لأنّ الجاهل يضيع عليك كثيراً ممّا تتعلّمه من العاقل، فلذلك تعدل قطيعة الجاهل صلة العاقل.

والزمان غادر ماكر كأعظم ما يكون الغدر والمكر، فمن أمن مكره واستراح إلى مكره فهو المغدور المغلوب على أمره، لأنّ من ظنّ بالزمان خيراً كذب ظنّه، ومن أمنه خانه، ومن استراح إليه جرعه الغصص، ومن أعظمه وأكبره أهانه، وقد قيل: «من هاب شيئاً فقد سلّطه على نفسه»، فمن كان في نفسه ضعف وخور فأعظم الدنيا وأكبر من شأنها فقد جعل للزمان على نفسه سبيلا.

وليس كلّ من رمى السهم عن القوس قاصداً المرمى أصابه؛ لأنّه لم يضمن له ذلك، ومتى كان الجادّ الكادح محصلا للرزق دائماً فقد

يكتب له الرزق فيصيبه بكدّ أو بغير كدّ وقد لا يكتب له، فلو قلب سماء على أرض على أن يستجلب ما لم يكن له من الرزق لم يكن له ذلك بحال من الأحوال، ومن يستطيع أن يتحدّى القدر المكتوب، والقضاء الذي لا يردّ ولا يبدّل.

وبتغيّر السلطان يتغيّر الزمان، إذ ليس شيء أعظم ضرراً على الرعية من تبدّل رأي السلطان، وعدوله عن العدل إلى الظلم، وعن مراعاة الحقوق إلى إضاعتها، وقد عرف أنّ انقطاع الغيث، وانتشار الأوباء لا تبلغ من تغيير صفحة التاريخ إلى مثل ما يبلغه تغيّر السلطان، وانقلابه على السيرة الصالحة الحميدة.

جاء في كتب الفرس أنّ أنوشروان جمع عمّال السواد وبيده درّة يقلّبها، فقال: أيّ شيء أضرّ بارتفاع السواد وأدعى إلى محقه، أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه، فقال بعضهم: الجراد، وقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال.

فقال لوزيره: قل أنت فإنّي أظنّ عقلك يعادل عقول الرعية كلّها أو يزيد عليها، قال: تغيّر رأي السلطان في رعيّته، وإضمار الحيف لهم والجور عليهم، فقال: لله أبوك بهذا العقل، أهّلك آبائي وأجدادي لما أهلوك له، ودفع له الدرّة فجعلها في فيه[1].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ١٢١ باب ٣١.

وإيّاك أن تسير وحدك إلى غاية بعيدة، فإنّ الوحشة تسري إلى قلبك فتميته، فاستصحب معك رفيقاً وصديقاً يؤنسك من وحشتك، ويعينك على أمرك، فإذا أزمعت السفر فاختر الرفيق المواسي قبل أن تلج في الطريق.

### الجار قبل الدار:

وإذا أردت داراً فسل عن جوارها، فليس شيء أصعب على الإنسان من جار السوء، فإنّ مجاورته تعدل مجاورة كلاب ناهشة، وسباع ضارية، وهل يأمن الإنسان على نفسه يوماً من مجاورة هذه الكلاب والسباع، كلاّ.

أجل جار السوء أفعى سامّة شديدة السمّ، فإذا أردت داراً فسل عن الجار قبل أن تأخذ مكانك منها، فتقع في مأرب لا خلاص لك منه.

### الكلام المضحك:

قوله عليه السلام: «إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْـكَلاَمِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذلِكَ عَنْ غَيْرِكَ».

نهى الإمام ولده عن ذلك لما تشتمل عليه تلك الخلّة من المساوئ والعواقب غير الحسنة، فمن نتائجها أنّها تحطّ المرء في الأعين، فبعد أن كان الإنسان محترماً وكان له مقامه المرموق، تراه إذا ما تفوّه بكلمة

يستخفّ بها يهوي من شرفة العزّة والشرف إلى الهاوية السحيقة من الذلّ والاحتقار والسقوط، وأكثر ما في هذا أنّه يسلب ثقة الناس واطمئنانهم تجاه كلّ ما يقوله فيما بعد، فتمثّل تلك القولة الأُولى حدّاً فاصلا بين ثقة الناس وتصديقهم إيّاه، وبين سلب تلك الثقة وزوال ذلك التصديق.

والإمام عليه السلام يربأ بولده أن يكون حاله كهذه التي وصفناها لك، كيف وهو الذي سيكون من بعده محطّ أنظار أصحابه وتابعيه، وهو الذي سيكون مرجعاً في الأحكام الشرعية، ومنبعاً لمختلف العلوم، وهو الذي ستعيّنه القدرة الإلهية منصباً سامياً ـ هو منصب الخلافة ـ .

وما تقدّم كلّه مضاف إلى أنّ ذكر ما يؤدّي إلى الخفّة ليس من صفات أهل الشرف والمقام الجليل والمكانة السامية، وليس هذا شأنهم، وإنّما هو شأن أُناس عجزوا عن التفوّه بالحقائق العلمية الراهنة فعمدوا إلى تعويضها بالسفاسف والمضحكات، أو قل إنّهم عجزوا عن الوقوف أمام تلك الحقائق إلاّ عن طريق ضدّها والحدّ منها بواسطة الاكثار من الهزليات والأباطيل.

وما يقال في ذكر المضحك من الكلام إن كان من الإنسان نفسه فيشمله الحديث: «ويل للذي يحدّث فيكذب ليضحك القوم ويل له، ثمّ ويل له»[1].

---

(١) البحار ٧٢ : ٢٣٥ ح٢.

وإن كان حكاية عن الغير فهو وإن لم يبلغ في الشدّة ما يبلغه الأوّل إلاّ أنّه يقاربه من جهات عديدة، وقد قيل قديماً: «الناقل للقول ليس كقائله»، أو «الناقل للكفر ليس بكافر».

***

## الفصل العشرون
## العلاقة مع المرأة

«وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْن، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْن. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْـحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لاَ يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلَا تُمَلِّكِ الْـمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْـمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَة، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا.

وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَة، فَإِنَّ ذلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السُّقْمِ، وَالْـبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيْبِ. وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَان مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلّا

يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ.

وَأَكْرِمْ عَشيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ. إِسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْالْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالسَّلاَمُ».

***

## التشاور مع النساء:

قوله عليه السلام: «وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْن، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْن. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لاَ يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ».

نرى الإمام عليه السلام يستمرّ في إلقاء وصاياه وعظاته البالغة على ولده المجتبى عليه السلام، فينهاه عن ذكر ما يزري بالإنسان من صنوف الكلام، ثمّ يعرّض على النساء ومشاورتهنّ، فيظهر حقيقة المرأة بأجلى صورها وأوضحها، ويعرضها عرضاً دقيقاً لا يقصد من ورائه إلاّ تزييف آرائها، وأنّ عزمها إلى وهن، وأنّ رأيها إلى أفن.

ويبدو من كلامه عليه السلام أنّ المرأة غير صالحة للإستشارة والحوار في الأمور وبخاصّة الأمور المهمّة منها، وليس من شكّ أنّ المرأة ناقصة في

تكوينها العقلي ـ وقد استعرضنا هذه النكتة في المجلّد الثاني من كتابنا الجواهر الروحية ـ ، وهي لا تبلغ مهما بلغت مرتبة الرجل، ولا تستطيع يوماً أن تقف في مصاف الرجال جنباً إلى جنب ما دامت العاطفة والشفقة، أو قل بساطتها التي تشابه بساطة الطفل وسذاجته من جوانب عديدة يطغى على نفسها.

فهي إذاً لا تصلح لجعلها في موضع الحكم أو في مرتبة مهمّة لا ينوء بعبئها الثقيل إلاّ ذو عزم وحزم عظيمين، ولو صلحت للإستشارة فلا يكون ذلك إلاّ مجاراة لها ومماشاة لرضاها، ثمّ مخالفة ومعاكسة في العمل كما هو منطوق بعض ما يؤثر: «شاوروهنّ وخالفوهنّ»[1].

وممّا يلاحظ أنّ كلام الإمام عليه السلام لا يدلّ على أنّ نقص المرأة سنّة مطردة في كلّ امرأة على الخصوص، وإنّما هي تجري في الأكثرية الغالبة، وليس من شكّ في أنّ بين النساء من تفضّل كثيراً من الرجال، وتصلح لما يصلح له العظماء وزيادة.

ولا يخفى أنّ وجود امرأة كهذه قليل أو قل نادر، لأنّ ذلك يعتبر شذوذاً وتحدّياً على الطبيعة، ـ راجع موضوع المرأة في المجلّد الأوّل من كتابنا الجواهر الروحية ـ .

(١) البحار ٧٧ : ١٦٧ ضمن حديث ٢.

الحجاب:

وينقلها الإمام عليه السلام من هذا التحذير إلى شيء آخر ممّا يمتّ إلى المرأة وطبيعتها بصلة قوية، وهو أن تحتجب المرأة وتلحّ في الاحتجاب، لأنّ ذلك أستر وأبقى عليها، كما أنّ عليها أن تكفّ بصرها عن رؤية الأجنبي، بل إنّ الإمام عليه السلام لم يكتف بهذا كلّه بل أمر الزوج أن يجعل معرفتها محدودة بحيث لا تتعدّاه إلى غيره بقوله: «وإن استطعت أن لايعرفن غيرك فافعل».

وليس مفهوم هذا النصّ هو أن لا تعرف أحداً ولو من ناحية الاسم فقط فإنّ ذلك ممّا لم يكن، بل يقصد أن لا يكون في نفسها حبّ وتعلّق بغير زوجها، وأن يكون قلبها مرآة صافية تعكس صورة زوجها فحسب، دون أن تكون مرآة يتطلّع إليها الأجنبي، وهذا هو المقصود من المعرفة.

ولم يمض عليه السلام في وصيّته لولده إلاّ بعد أن كانت جارية ونافذة في أهله وزوجه، وهي بضعة الرسول صلى الله عليه وآله، وهي التي قد سألها أبوها يوماً: ما أحسن الأشياء إلى المرأة، فكان جوابها منطوياً على مدى عفّتها واحتجابها وهو: أن لا ترى أحداً وأن لا يراها أحد، فكان ذلك قصارى الاحتجاب والعفّة.

ولا شكّ في أنّ دخول الرجل على المرأة ليس بأقلّ محذوراً وعاقبة من رؤية الرجل لها، ولعلّ قوله عليه السلام: «وليس خروجهنّ بأشدّ

من إدخالك من لا يوثق به عليهنّ»، يفسّر لنا أنّ دخول الرجل عليها ممّا يؤدّي في كثير من الأحيان إلى الخلوة بها، والتمكّن منها أكثر ممّا لو رآها خارجاً، وليس يعقب ذلك عندئذ إلاّ حدوث شيء لا تحمد عقباه.

وطبيعي أنّ إلقاء الحجاب عن وجه المرأة قد أسفّ بكثير من الأمم إلى الخلاعة والتهتّك والمجون، والمرأة باعتبار مرونتها وسهولة نحولها وانفعالها لا تستطيع أن تحتفظ بعفّتها ما دامت تقابل الرجل وجهاً لوجه، وأنّى لها أن تحتفظ بها بين رجل رضيها ورضيته.

## المرأة ريحانة:

قوله عليه السلام: «وَلاَ تُمَلِّكِ الْـمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْـمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَة، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَة، فَإِنَّ ذلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السُّقْمِ، وَالْـبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيْبِ».

ليس بوسعي أن أُفسّر كلامه عليه السلام: «ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها»، وليس بوسعي أن أجد إلى تفسير هذه العبارة طريقاً يؤدّي إلى المقصود.

فقد اختلف الشرّاح في شأنها، فقال البعض منهم: إنّ الإمام يقصد منها أن لا تكلّف المرأة مشاقاً وأتعاباً قد طالما خرجت عن

طوقها، ولا كان في مقدورها الاتيان بها، لأنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة.

وقال آخر: إنّ معنى ذلك أن لا تكلّف المرأة بشيء أصلا، ولا يحقّ لزوج أن يأمر زوجه أيّاً كان ذلك الأمر، لأنّ الشارع المقدّس احترمها ورفع من مقامها، وجعل الغاية من اتّخاذ الرجل إيّاها واقترانه بها غاية شريفة، وهي إنجاب النسل عن الطريقة التناسلية، والعملية التناسلية حقّ مشترك بينهما.

فهي حقّ من حقوق الزوجة، وهي حقّ من حقوق الزوج، إذ يجب على الزوجة مطاوعة الزوج متى طلب منها حقّه، وعلى الزوج أداء حقّ الزوجة باشباع رغبتها الجنسية ما أمكنه ذلك، وإذا لم يجد الرجل في قلبه ذرّة من حبّ، وكمية من ودّ فما عليه إلاّ تأدية حقّها مرّة في كلّ أربعة أشهر ما لم يمنعه مانع أو يصدّه صادّ.

وقال بعض آخر: إنّ المراد أن لا يجعل الرجل من المرأة رجلا آخراً تعمل عمله، وتنزل معه إلى السوق لتواجه جميع الطبقات من الناس وتشاركهم في مهام الأُمور، وتتسنّم المناصب الراقية لما بيّناه أوّلا من أنّها رقيقة القلب، حسّاسة المشاعر، تتألّم وتنفعل بسرعة، وتتحوّل وتتغيّر من طبيعة إلى أُخرى كالطفل، فلذلك لا يصلح لها أن ترتقي منصب الحكم والقضاء، ولا أن تخدم المجتمع خدمة فيها شيء كثير من عناء الفكر والجسد، لأنّها ريحانة وليست بقهرمانة.

كانت الخيزران كثيراً ما تكلّم موسى الهادي ابنها لّما استخلف في

الحوائج، وكان يجيبها إلى كلّ ما تسأل، حتّى مضت أربعة أشهر من خلافته، وقد انثال الناس عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدوا إلى بابها، فكلّمته يوماً في أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلا، واحتجّ عليها بحجّة، فقالت: لابدّ من إجابتي، فقال: لا أفعل، قالت: إنّي قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب موسى وقال: ويلي على ابن الفاعلة قد علمت أنّه صاحبها، والله لا قضيتها لك ولا له.

قالت: والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذاً والله لا أُبالي، فقامت مغضبة، فقال: مكانك تستوعي كلامي، والله وأنا بريء من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله لئن بلغني أنّه وقف أحد من قوّادي وخاصّتي وخدمي وكتّابي على بابك لأضربنّ عنقه، ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدوا إلى بابك كلّ يوم، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك، إيّاك ثمّ إيّاك أن تفتحي فاك في حاجة لملّي أو ذمّي، فانصرفت وما تعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرّة بعدها حتّى هلك(١).

ويخطر على بالي أنّ المسعودي ذكر في «مروج الذهب» في أواخر أحوال محمّد الأمين، انه لمّا قتل محمّد الأمين دخل على زبيدة بعض خدمها فقال: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمّد، فقالت: ويلك وما أصنع؟ فقال: تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: إخسأ لا أُمّ لك، ما للنساء وطلب الثار، ومنازلة

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ : ١٢٥ باب ٣١.

الأبطال[1].

أجل نحن لا نكلّف المرأة فوق طاقتها، لأنّها متعة ولذّة فحسب، وليست خادمة تستخدم لأشقّ الأمور وأصعبها.

نحن نريد أن نراها دائماً أمام أبصارنا تتحرّك وتمشي بحسن واعتدال لكي نتمتّع باطالة النظر إليها، وتبتهج نفوسنا بها كلّما اجتمعنا على المائدة، تحدّثنا أمر أولادها وصغارها، وما كانوا يصنعونه في البيت حينما نغادره إلى أعمالنا، وما يحدّثونه من لغط وضوضاء، فكانوا بذلك يؤدّون حقّ الطفولة وواجبها.

نحن لا نريد للمرأة الخمول والجمود والجهل والغباوة، بل نريد لها الحشمة والوقار والعفّة والرزانة، وليس هذا بمنغص لحياتها الدراسية، ولا مكدر لحياتها العلمية، فإنّها تستطيع أن تجعل من عفافها وحجابها مدرسة علوم ومعارف، ومن وراء ذلك تنفع المجتمع الإنساني بما تسديه من خدمة صحيحة غير مشوبة بجهل ولا دعارة، ولا ممزوجة بتبذل وخلاعة.

فإذا كانت هذه بنتاً وهي كما نريد صارت في بيت أبيها كالسراج الذي ينير في جنباته، فيسعد أهلها بعفّتها ومعرفتها، ويرتاح أبوها من الخوف عليها، وإذا صارت في بيت زوجها كانت تاج رأسه، وملكة قلبه، وإذا أعقبت أنجالاً صارت الرؤوم الحنون والمدرّسة السيارة لهم، غرست في نفوسهم بذور الخير للإنسانية.

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٤١٥.

## حقوق المرأة في الاسلام:

١ ـ المساواة في القيمة البشرية:

من البديهيّات الإسلامية التي لا تحتاج إلى ذكر ولا إعادة أنّ المرأة في عرف الإسلام كائن إنساني له روح إنسانيّة من نفس «النوع» الذي منه روح الرجل: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾ [النساء : ١].

فهي إذن الوحدة الكاملة في الأصل والمنشأ والمصير، والمساواة الكاملة في الكيان البشري، تترتّب عليها كلّ الحقوق المتّصلة مباشرة بهذا الكيان، فحرمة الدم والعرض والمال، والكرامة التي لا يجوز أن تلمز مواجهة أو تغتاب، ولا يجوز أن يتجسّس عليها، أو تقتحم الدور، كلّها حقوق مشتركة لا تمييز فيها بين جنس وجنس، والأوامر والتشريعات فيها عامة للجميع:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ﴾ [الحجرات : ١١].

﴿... وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ [الحجرات : ١٢].

﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها﴾ [النور : ٢٧].

والجزاء في الآخرة واحد للجنسين: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران : ١٩٥].

٢ ـ المساواة في الشخصية القانونية:

وتحقيق الكيان البشري في الأرض متاح للجنسين: الأهلية للملك والتصرّف فيه بجميع أنواع التصرّف من رهن وإجارة ووقف وبيع وشراء واستغلال... الخ ﴿لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْـوالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء : ٧]، ﴿لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء : ٣٢].

ولابدّ هنا من وقفة عند أمر أو أمرين بشأن حقّ الملكية والتصرّف والانتفاع، فقد كانت شرائع أُوربا «المتحضّرة» تحرم المرأة من كلّ هذه الحقوق إلى عهد قريب، وتجعل سبيلها الوحيد إليها عن طريق الرجل زوجاً كان أو أباً أو ولي أمر، أي أنّ المرأة الأُوربية ظلّت أكثر من اثني عشر قرناً بعد الإسلام لا تملك من الحقوق ما أعطاها الإسلام.

ثمّ هي حين ملكتها لم تأخذها سهلة، ولا احتفظت بأخلاقها وعرضها وكرامتها، وإنّما احتاجت أن تبذل كلّ ذلك، وتتحمّل العرق والدماء والدموع، لتحصل على شيء ممّا منحها الإسلام ـ كعادته ـ تطوّعاً وإنشاء، لا خضوعاً لضرورة اقتصادية، ولا إذعاناً للصراع الدائر بين البشر، ولكن إحساساً منه بالحقّ والعدل الأزليين، وتطبيقاً لهما في

واقع الأمر لا في عالم المثل والأحلام.

والأمر الثاني أنّ الشيوعية خاصّة والغرب عامّة، يعتبرون الكيان البشري هو الكيان الاقتصادي، ويقولون صراحة إنّ المرأة لم يكن لها كيان لأنّها لم تكن تملك، أو لم يكن لها حقّ التصرّف فيما تملك، وأنّها صارت مخلوقاً آدمياً فقط حين استقلّت اقتصادياً، أي حين صار لها ملك خاص مستقلّ عن الرجل تستطيع أن تعيش منه وتتصرّف فيه.

وبغضّ النظر عن إنكارنا لتحديد الكيان البشري بهذه الحدود الضيّقة، والهبوط به حتّى يصبح عرضاً اقتصادياً لا غير، فإنّنا نوافقهم ـ من حيث المبدأ ـ على أنّ الاستقلال الاقتصادي له أثر في تكوين المشاعر وتنمية الشعور بالذات.

وهنا يحقّ للإسلام أن يفخر بما أعطى المرأة من كيان اقتصادي مستقلّ، فصارت تملك وتتصرّف وتنتفع بشخصها مباشرة بلا وكالة، وتعامل المجتمع بلا وسيط.

ولم يكتف الإسلام بتحقيق كيان المرأة في مسألة الملكية، بل حقّقه في أخطر المسائل المتعلّقة بحياتها وهي مسألة الزواج، فلا يجوز أن تزوّج بغير إذنها، ولا يتمّ العقد حتّى تعطي هي الاذن: «لا تزوج الثيّب حتّى تستأمر، ولا تزوج البكر حتّى تستأذن، وإذنها صمتها».

ويصبح العقد باطلا إذا أعلنت أنّها لم تبد موافقتها عليه، وقد كانت المرأة ـ في غير الإسلام ـ تحتاج إلى سلوك طرق ملتوية لتتهرّب من زواج لا تريده، لأنّها لا تملك شرعاً ولا عرفاً أن ترفض، ولكن الإسلام

أعطاها هذا الحقّ الصريح، تستخدمه متى أرادت، بلى أعطاها أن تخطب لنفسها، وهو آخر ما وصلت إليه أُوربا في القرن العشرين، وحسبته انتصاراً هائلا على التقاليد البالية العتيقة!

ويبلغ من تقدير الإسلام لمقوّمات الكيان البشري ـ في عصور كان يغشيها الجهل والظلام ـ أن اعتبر العلم والتعلّم ضرورة بشرية، ضرورة لازمة لكلّ فرد لا لطائفة محدودة من الناس، فقرّر للملايين حقّ التعلّم، بل جعله فريضة وركناً من الايمان بالله على طريقة الإسلام.

وهنا كذلك يحقّ له أن يفخر بأنّه أوّل نظام في التاريخ نظر إلى المرأة على أنّها كائن بشري، لا يستكمل مقوّمات بشريّته حتّى يتعلّم، شأنها شأن الرجل سواء بسواء، فجعل العلم فريضة عليها كما هو فريضة على الرجل، ودعاها أن ترتفع بعقلها، كما ترتفع بجسدها وروحها عن مستوى الحيوان، بينما ظلّت أُوربا تنكر هذا الحقّ إلى عهد قريب، ولم تستجب إليه إلاّ خضوعاً للضرورات.

الى هذا الحدّ وصل تكريم الإسلام للمرأة، وما يستطيع أحد مهما أُوتي القدرة على التبجح أن يقول: إنّ فكرة الإسلام في كلّ هذه الأُمور قائمة على أنّ المرأة مخلوق ثانوي، أو تابع في وجوده لمخلوق آخر، أو أنّ دورها في الحياة دور ضئيل لا يؤبه له.

فلو كان الأمر كذلك ما اعتنى بتعليمها، والتعليم بالذات مسألة لها دلالة خاصة، وتكفي وحدها ـ دون حاجة إلى المسائل الأُخرى ـ لتقرير الوضع الحقيقي للمرأة في الإسلام، وهو وضع كريم عند الله

وعند الناس.

### ٣ ـ الفوارق الطبيعية:

ولكن الإسلام بعد هذا ـ بعد تقرير المساواة الكاملة في الإنسانية، والمساواة في جميع الحقوق التي تتّصل مباشرة بالكيان البشري المشترك بين الجميع ـ يفرّق بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق وبعض الواجبات، وهنا الضجّة الكبرى التي تثيرها نساء المؤتمرات، ويثيرها معهنّ كتّاب و «مصلحون» وشباب، يعلم الله أنّهم لم يريدوا بدعوتهم وجه الاصلاح، بل يريدون بها أن يجدوا المرأة سهلة التناول في المجتمع وفي الطريق، ولله درّ الصافي النجفي إذ يقول:

الناس سمّوا عصر نور عصرهم جهـلا كمن سمّى الظلام النورا
فإذا هـم بعلومهـم يومـاً مشوا فبخلـقهـم يتقهـقـرون دهــورا

***

### الغيرة على النساء:

ويمضي عليه السلام في تحذير ولده ووعظه، فينهاه عن التغاير في غير موضع الغيرة لأنّ ذلك يؤدّي إلى ما يحذر منه، فيجب عليك أيّها الزوج أن لا تتوسّع في الغيرة فإنّ ذلك ممّا يكسب لك عاقبة وخيمة، وقد ينهيك إلى العار والشنار، فإنّ الرجل إذا تحذّر واحتاط كثيراً على امرأته قد يبصرها بما لم تكن تبصره من قبل فيوقعها في ما كان يحذره عليها، ويقع هو فيما كان يخشاه ويتجنّبه، وهذا معنى قوله عليه السلام: «فإنّ ذلك

يدعو الصحيحة إلى السقم، والبريئة إلى الريب».

ما أحسن الغيرة ولكن في محلّها، وما أقبح الغيرة لو وقعت في غير موقعها.

**معنى الغيرة:**

الغيرة هي الحمية، وهي السعي في محافظة ما يلزم محافظته من الدين والعرض، وهي من نتائج الشجاعة، وكبر النفس وقوّتها، ومن شرائف الملكات وبها تتحقّق الرجولية والفحلية، والفاقد لها غير معدود من الرجال، وفقدانها من نتائج صغر النفس وضعفها، ومن المهلكات العظيمة، وربّما يؤدّي ذلك إلى الدياثة والقيادة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب»[١].

وقال: «إذا أُغير الرجل في أهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر، بعث الله طائراً يقال له القفندر حتّى يسقط على عارضة بابه، ثمّ يمهله أربعين يوماً، ثمّ يهتف به إنّ الله غيور يحبّ كلّ غيور، فإن هو غار وأنكر ذلك فأكبره، وإلاّ طار حتّى يسقط على رأسه فيخفق بجناحه على عينيه، ثمّ يطير عنه فينزع الله منه بعد ذلك روح الايمان، وتسمّيه الملائكة الديّوث»[٢].

---

(١) الوسائل ١٤ : ١٠٨ ح٣.

(٢) الوسائل ١٤ : ١٠٨ ح٤.

وقال صلى الله عليه وآله: «كان إبراهيم عليه السلام غيوراً وأنا أغير منه، وجدع الله أنف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين»[1].

***

### الحزم مع العمّال:

قوله عليه السلام: «وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَان مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ».

نستنتج من هذه العبارات الجليلة مواداً تدبيرية هامّة سواء في حياتنا العامة أو الخاصّة، تعلّمنا كيف ندبّر أمر الخدم في المنزل، وأمر الخدم في خارجه، وكيف ننظّم أعمال العمّال ونجعلهم يعملون بكلّ ما لديهم من إمكانيّات، وقدر كلّ حسبما أوكل به، فعلى صاحب العمل أن ينظّم دفتراً لحساب العمّال، وترتيب أعمالهم اليومية وما يأتيه أحدهم من العمل ليعطي الأجر على قدر المشقّة، وليس مِنْ شكٍّ في أنّ هذا خير من أن يتواكلوا في الخدمة، ويلقي بعضهم العمل على عاتق البعض الآخر.

### العلاقة مع العشيرة:

قوله عليه السلام: «وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ،

---

(١) البحار ١٠٣ : ٢٤٨ ح٣٣.

وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ. إِسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْالْـهُ خَيْرَ الْـقَضَاءِ لَكَ فِي الْـعَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالسَّلامُ».

إنّما يُعرف الإنسان بأهله وعشيرته. إنّما يُعرف الفرد بأقربائه وذويه. إنّما يحميه ويذود عنه ويدافع دونه أبواه وإخوانه. إنّما يتمكّن أن يلعب الفرد في فضاء واسع من السعادة والرفاهية والأمان إذا ما حصل على عشيرة وأقرباء.

حقاً أنّ العشيرة جناح لمن أحبّ الطيران فوق المسافات الشاسعة من احياء الغبطة والسرور، وحقّاً إنّ العشيرة أصل يصير إليه الإنسان كلّما طلب إليه ان انتسب، وكلّما بوغت بمن يقول له هل تبارزني، وانّهم يد يصول بها الفرد، ويبطش بكلّ ما تمرّ عليه من حوادث ومصاعب ومشاقّ في سبيل الحياة، فهو بهذه اليد يسجّل في مقاومة تلك الحوادث والمشاقّ صفحة وصفحات.

يقول علي عليه السلام في مقام آخر: «أيّها الناس! إنّه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، وألّمهم لشعثه، وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به، ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه»(١).

---

(١) البحار ٧٤ : ١٠١ ح٥٣.

ألا لا يعدلنّ أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدّها بالذي لا يزيده إن أمسكه، ولا ينقص إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنّما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودّة.

وبعد أن أفرغ الإمام عليه السلام ما في وسعه أن يفرغه من الوصايا والعظات على ولده المحبوب، وبعد أن أدّى ما للبنوّة على الأبوّة من حقوق، بعد فراغه من كلّ هذا لم يتركه وشأنه، وإنّما أوكل أمره إلى الله تعالى، واستودعه إيّاه في دينه ودنياه، سائلا المولى أن يقضي له بخير القضاء في الدنيا والآخرة، والعاجلة والآجلة، وبعد هذا كلّه أبلغه سلاماً من أب حنون إلى ولد بار.

***

هذا منتهى ما جادت به دراستي ومطالعاتي عن هذه الوصية، توخّيت بذلك خدمة الإنسانية، فإن لقيت هذه الخدمة قبولاً وكانت ذا نفع، كان قبولها وتأثيرها خير جزاء لمعاناتي، وإلاّ فأسأل الله تعالى أن يلهم من هو أكثر أهلية لهذا العمل ليقوم بهذه الخدمة.

# فهرس الكتاب

اقرأني أوّلاً ........ ٥
الفصل الأول: الوصية في القرآن والسّنة ........ ٧
الفصل الثاني: الامام علي (عليه السلام) والحنان الابوي ........ ١٣
الفصل الثالث: معالجة القلب ........ ١٩
الفصل الرابع: الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ........ ٧٣
الفصل الخامس: عوامل في بناء شخصية الانسان ........ ١٠٩
الفصل السادس: أهمية العلم والتعلّم وعلوم القرآن ........ ١٢٩
الفصل السابع: حقيقة التقوى ........ ١٤٣
الفصل الثامن: الاعتراف بالجهل وطلب العلم ........ ١٥٧
الفصل التاسع: الاعتصام بالله وإخلاص العبادة له ........ ١٦٧
الفصل العاشر: دلائل التوحيد وواجبات الموحّدين ........ ١٧١
الفصل الحادي عشر: قيمة الدنيا وشأنها ........ ١٩١
الفصل الثاني عشر: اجعل نفسَكَ ميزاناً ........ ١٩٥
الفصل الثالث عشر: الاستعداد لما بَعد الموت ........ ٢١٥
الفصل الرابع عشر: الدعاء والاجابة ........ ٢٢١

الفصل الخامس عشر: الإكثار من ذكر الموت ................................ ٢٣٥
الفصل السادس عشر: الاقتصاد في الطلب وذل المسألة ............... ٢٥٩
الفصل السابع عشر: الصمت وقبح الظلم .................................... ٢٧٣
الفصل الثامن عشر: قواعد الصداقة والإخاء ................................ ٢٩٧
الفصل التاسع عشر: حِكَمٌ في السلوك الاجتماعي ......................... ٣٢٥
الفصل العشرون: العلاقة مع المرأة ................................................ ٣٦٣
الفهرس ....................................................................................... ٣٨١